شهادة صحفية على الحرب في سوريا

صحافة الصبيان

سمارة القوتلي

معهد
الجزيرة للإعلام

صحافة الصِّبيان

شهادة صحفية على الحرب في سوريا

الطبعة الأولى 2018

معهد الجزيرة للإعلام

جميع الحقوق محفوظة ©

معهد الجزيرة للإعلام 2018

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 208/51

ISBN: 978/9927/4065/0/8

إلى من تكفلني بصدقة جارية بعد موته..
دافعًا عني فقر الحرب وذلها..
وإلى أبي خلف القضبان.

عشتُ بين هذه الصفحات دون أن أعرف يومًا أنني سأحيا وأكتبها.

كتبت هذه الحوادث بدمي كأنني أعيش بين خطوط النار مرة أخرى.

عشتُ بمعجزة كونية.

فقد حدّثت الكتب السماوية عن ميت كتبت له الحياة مرة أخرى عندما أمرت فئة من الناس بذبح بقرة وضربِ الميت ببعضها كي يصحو الميت من موته وينبئ الناس بقاتله كي لا تظل الحقيقة مكتومة.

وقد عشتُ للمرة الثانية دون أن تُـذبَح بقرة ودون أن أضرَب ببعضها.

كذلك يحيي الله الموتى ويعيدني لأدلي بشهادتي بعد الغياب.

تستغرق رحلة الموت إلى أي مدينة في سوريا أياما وليس ساعات، وتتطلب اجتياز 40 حاجزا للنظام وقوات المعارضة والمليشيات المسلحة، كي يتسنى للمراسل الصحفي إعداد تقرير تلفزيوني، ونقل معاناة المقيمين في جحيم الحرب قرابة دقيقتين على الهواء أو أقل.

قبل عام طلبنا في معهد الجزيرة من الزميلة سمارة القوتلي أن توثق مشاهد الحرب في سوريا، كي نقدم للقارئ تجربة العمل الصحفي في مناطق الحروب. وكانت الغاية المنشودة من هذا الكتاب هي تعزيز الممارسة المهنية للصحفي عند التغطية في ظروف استثنائية للغاية كالحرب. نذكر الصحفي دائما بأنه يجب أن يصغي جيدا للناس ويرصد معاناتهم، ولكن ننسى كثيرا أن نصغي للصحفي ونعرف معاناته هو الآخر. كانت سمارة القوتلي تنفض الغبار عن وجهها وثيابها بعد القصف مباشرة، ترتب هندامها سريعا، تعتدل في وقفتها أمام الكاميرا وتعد التقرير. لكن هذا الكتاب تحول مساره عندما استطاعت سمارة أن تتحرر من كل القيود التي تفرضها عليها مهنة الصحافة: الوقفة الرصينة أمام الكاميرا، التفكير بالسياسة التحريرية، التحدث باللغة الفصحى، وأخيرا وليس آخر وطأة الدقائق المعدودة التي تبدأ في النفاد على الهواء قبل أن تنفد حولها أرواح القتلى صاعدة إلى السماء.

توقفنا كثيرا عندما مشهد مؤذن المسجد الذي يصعد إلى المنبر كي يقرأ أسماء القتلى في القصف على مدينة دوما بريف دمشق، أو إن شئتم أن يقرأ الخبر الأول كل يوم: "كان (المؤذن) ينعى شابا وراء شاب بالاسم، امرأة وراء امرأة، رضيعة تلو رضيع. ظللت أحمل انقباضًا في صدري حتى انتهى الصوت الأجش. أصابني انقباض في صدري خوفًا من أن يقرأ اسم أمي أو أبي أو أي قريب في العائلة. أنتظر كما لو أنه سيرتل اسمي بعد قليل. فأحار إن كنت إنساناً حيًا أو ميتًا يمشي في جنازة نفسه".

يتطلب من الصحفي أن يتحلى برباطة الجأش وأقصى درجات الاتزان على الشاشة، في حين أنه قد يكون جائعا أو خائفا أو فقد للتو قريبا أو صديق. وجدت صبية لا تتجاوز 22 عاما نفسها في ميدان الحرب، تحمل الكاميرا كي لا يموت الناس في العتمة تحت قصف النظام السوري. وكغيرها من الصبية الذين بدأوا كناشطين وامتلكوا أدوات الصحافة، انخرطت في العمل الإعلامي دون خبرة أو دراية كافية. فالمناطق المحاصرة تخلو من صحفيي القنوات التلفزيونية العربية والأجنبية. وإذا كان النظام نجح في حصار مدن سورية فإنه لم ينجح في حصار الصورة بسبب هؤلاء "الصبية" الذين تفوقوا في كثير من الأحيان على الصحفيين المحترفين.

في هذا الكتاب سنصغي جيدا إلى سمارة القوتلي كصبية شجاعة قبل أن تكون مراسلة صحفية للجزيرة، تروي تفاصيل حياتها بدون أية مساحيق تجميل أو تأنق أمام الكاميرا. تحكي عن شجرة الليمون في فناء الدار، القهوة من حبوب العلف، سلاح الباذنجانة، المعطف "البني المحروق"، والشاب فداء..

معهد الجزيرة للإعلام

الوميض الأول

الصورة المحذوفة

صوّر، انطلق.

Stand by.. four - three - two - one

أضغـطُ زرًا فضيًا، وأوقف مشـاوير يـوم الجمعة بين طريق المطار وقاسـيون والقرية الشـامية. أترك الكاميرا وأقف أمام العدسـة، أضع إصبعي على إصبعيْ أختي لنشـكل قلبًا مكتملًا، ونميل بكتفـي وكتفها على الحائط لترصدنا الكاميرا بعد ثلاث ثوان.

كان يمكن أن أظل ألتقط صورًا عادية كهذه.

أحمـل حاسـوبًا أحمـر اللون ادخرت ثمنه شـهرًا بعد شـهر؛ قبـل أن أذهب إلى معرض دمشـق الدولي لأشـتريه أخيرًا وأدخـل في عالم الإنترنت.

كان يمكن أن أبقى في الشبكة.

وفجأة:

تتغـير اللقطـة بـين يـدي- علمهـا، زمانهـا، شـبابها، صوتهـا، لكننـي عـلى الوقفة نفسها في المكان ذاته. مَـن هؤلاء؟ وكيف تجمعوا فجأة؟ صرخوا كلهم بالجملة عينها وسـمع صوتهم من خلال عدسـة في الهاتـف. إلى اليوم لا يعرَف مـن الذي حملـه، ولا يعرف واحد من الذيـن صوبوا نحوهم.

- stop-

"مهلًا".. سـألني حاسـوبي الحالي: أعرف كل شيء، فالصور تتكرر، نشـاهدها ولا نسأل ولكن ما الجديد في هذا الخط الرديء؟

- لعـل الجديـد مـن تكتـب أنـا؛ وأنـا معروفـةٌ بالنسـبة إلى كثيريـن، إن كانوا يذكـرون طبعًـا، فالمشـاهد العربـي لا تكفيه ميتـة واحدة ليتذكـر صاحبها.

لعلـه شـاهدني أول مرة فقال عني.. مراسـلة.. بنت.. تغطي الأحـداث الميدانية في أكثـر مناطـق العالم احتراقًا، مـن أجل أن تقف وتظهر على الشاشـة، واعتبر أن لي مطلـق الحريـة في نوعيـة الميتة التـي أختارها، لذا كان عـليّ أن أتحمل، في مـا هو مخير، يشـاهدني أو لا يشـاهدني بضغطة واحدة.

عزيزي الحاسوب:
اتخذت قرارًا بكتابة جريئة بعد تفكير طويل وعزلة قضيتها شهورًا في بلد يعمل كل المقيمين فيه ثلث اليوم أو نصفه، ويعودون إلى بيوتهم. لا ألتقي أحدًا ولا أتحدث إلى أحد، علمًا أن الانعزال ليس من طبيعتي. كل ما أكتبه جئت به من حرقة استجماع ذكريات أزمنة لا تعود إلى الماضي، ولا تتأقلم مع الحاضر، ترافقني كفطرة الإيمان. فمنذ أن غادرت بلدي لم أتحدث مع الآخرين حديثا واحدًا مثل الخلق، كما يقال عندنا. جملة من الشرق وأخرى من الغرب. كل قصة أرويها بمفردها لا علاقة لها بقصة سبقتها ولا بأخرى ستلحق بها.
بين هنا وهناك..
لا أعرف طبيعة الحياة هنا أي شخصية تناسبها وأي أسلوب؛ كالحرباء أتلون بحسب كل مكتب أدخله، لا أعرف كيف أنشئ سيرة واحدة تطرح تعاطفًا في قلب الآخر تجاهي.

مع أن الرحلات المرعبة التي جلتُ فيها، كأنما جعلت أيام حياتي تلف وتدور، وتسقطني آخر المطاف مجرد مواطنة مقهورة، تعيش بقية عمرها عند أهل الحسبة في بيت لأمير المؤمنين. حدث هذا بخطأ المسير أثناء رحلة التهريب الأخيرة؛ تلك التي عزمتُ فيها رحيلاً أبديًا إما أن يكلفني الأسر أو الموت؛ لأتخلص من آخر حبل يلف عنقي.

سِرت يومها بالقدر لا بخطاي، فحطّ بي في قطعة أرض ظننتها بمعزل عَن الأذى، بعد مخاطر فرار طويل، دخلت الخط الصحراوي المأمول من محافظة الميادين، أبرز مناطق القوة التي يبسطها تنظيم الدولة قرب دير الزور. وصلتُ مرهقة بكاميرتين وجهاز لاب توب ثقيل؛ كنت قد غادرت بهما وراهنتهما على حياتي وحياة أمي وأختي الرضيعة الباكية على بكائنا.. كيف نُفهمها سبب هذه الرحيل المفاجئ؟ .. فقبل أن نوضب أشياءنا المهمة، كنت مستعدة لإلغاء السفر تماماً ما لم يقبل المهرب باصطحاب كاميرتيْ

وحاسوبي معي، رجلي على أرجل هذا الثالوث.

ألغيت موعد الانطلاق بيني وبين المهرب تسع مرات خلال خمسة أشهر، ثم أحالني رفضي المتكرر إلى بيت مهجور كسجن رضيت به في سبيل الوفاء للكاميرتين والحاسوب الثقيل، إذ كان لأمي ابنتاها، وكانت أدواتي أولادي.

وصلنا أخيرًا؛ اعتقدناه بر الأمان، لكنه قطعة من سوريا مجهولة المعالم، "أهلاً بكم في مدينة الميادين، بين ربوع تنظيم الدولة الإسلامية". مكان يخال لكل أمرئ قصده وهو يحمل قطع تكنولوجيا أن يتدحرج رأسه بهم ذهابا وإيابًا بحد السيف. ولكن ما نفع رحيلي من البلد دون أن أحمل ذكرياتي وسكراتي في أيام الشباب؟ أنا بعد عامين أو أكثر قد أبلغ الثلاثين من عمري، وبعدها سأطوي الأيام دون أن أعدها خجلًا كأي امرأة، أقل ما يمكن أن يعرف أحفادي من بعدي كيف تذهب أيام العمر.

كاد يكتشف أمري عند حلولي بين الرقة وحلب، في منطقة تدعى مسكنة، أعتى المناطق التي يفرض فيها التنظيم هيمنته، ويطمح أن يكسب قلوب أهلها وولاءهم ليرتاح بقبضته، وهناك تضاعف خوفي. فإن فتشت حقيبتي سيُكشَف أمري بأمري؛ في منطقة أرهبت الشرق والغرب بإصدار الأوامر بقطع الرؤوس والحرق والإغراق.
وهناك المزيد:
اليوم أفيق بجفاف حلقي وأفتح باب الغرفة بسرعة لأتدبر وجوه الموظفين في الفندق، وأتأكد أني لست في فنادق التنظيم، أو بيت فاطمة ذات العينين الخضراوين زوجة الأمير أبو قصي. فاطمة التي أكرمتني وتربصت بي في الوقت ذاته، لتقنعني بالزواج من شقيق زوجها والعيش بقية عمري زوجة أمير مدللة في الموصل. يناديني الآن صوت غريب ليتك فعلت.. ولكنت الآن أميرة في الجنة. جيد أن لا أحد غيري يسمع الصوت الغريب وإلا لتركوا كل شيء وسألوا أعند التنظيم فنادق؟

غـير مهـم، فالـكل يفضل أقصوصة تناسـب المـزاج العام، قصـة يفهمها العقل العادي ويدركها المنطق دون إضافة مشاعري حتى لا تُعتبر مبالغة، بلا الرجوع كثـيرًا للخلـف حتى لا يُقال رياء، بلا قص الحقيقة كاملة حتى لا يتصدع رأسي.
أفضل لي أن أحذف المشاهد الحساسة من ذهني.

• Are You Sure?

قال الحاسوب.

• YA, DELETE

حذفها، وتحدثت عن شيء آخر.

أخرجـت لقطـة حـاضرة في الذهـن، لا تختلـف العـين عليهـا وربما لا تنسـاها الذاكـرات كمـا أظـن، "دومـا نحـو الحقيقة"؛ لقطـة رمزية تعرض على شـكل "بروميـو" عـلى الشاشـة، اقتطعـت مـن حـدث يومـي اعتـاده المشـاهد وأدمن براميلـه، ظاهـره سـماء تمطـر نـاراً، باطنـه أرض يسـكن عليها تجـار أزمة، مهربـو بشر، مسـلحون بالبنـادق، عوام مغلـوب على أمرهم، وأطفـال يعملون بتكسـير الحطـب، دوما نحـو الحقيقة..
وبنت تثرثر.
نعيـش جميعنـا في مدينـة مزدحمـة من أكبر مـدن غوطة دمشـق، كان يقطنها يومًا قرابة مليون إنسـان. من بيننا فلسـطينيون وعراقيـون ولاجئون نؤثرهم على أنفسـنا، ودمشـقيون قدامى من كل المدائن هربوا من غلاء أسـعار بيوتهم حين تزنّـرت العاصمـة بالغرباء، نرى أن الصواب في مـا يفعله الآخرون. وما نفعلـه في الخفاء عن أعين بعضنـا هو الخطأ.
تقلـص عددنـا بعـد الحـرب إلى الربـع، لكننـا بقينا نتـزوج من بعضنـا، نكره بعضنـا، نخـشى بعضنـا، وجميعنـا نُقتل دفعـة واحدة للسـبب ذاتـه. لا ندمن موتنـا، لا نرحـم بعضنـا، نحفـر لإخوتنا حفرًا ونقـع فيها معًـا، لا نحب أحدًا، ولا نمـوت.
الحاسوب الجديد سأل: من مات إذًا؟
أجبـت: حاسـوب ثقيـل أحمـر ملكته من قبلـك وأخبرتـه الحقيقة كلهـا، وقبل

أن أنهيهـا وضعتـه بسرعة في مياه خزان كبـير. تركته يموت غرقًا عندما اقتحم رجـال الأمـن منزلي، أبقيتـه في الماء لسـاعات حتى ماتت معه نصـف تغطياتي وذكرياتي.
ورغـم ذلـك جلبته معـي للغربة، على أمل أن يشـفى يومًا مـا. تركته يجف من البلـل ويرتـاح لسـنوات، خفت على جثمانه كمـا أخاف على حياتـي، اصطحبته معـي في رحلـة التهريب الأخيرة وهو يعيش معي لهذه اللحظة في البيت نفسـه، لكنـه لم يصحُ من سـبات طويـل، -ما يزال لا يعمل- فأنا وفيـة جدًا لذكرياتي.
لا تخف مني أيها الحاسوب الجديد ودعني أكتب قصتي عليك.
إنها بالفعل قصتي، لن أبالغ ولن أختلق شيئًا.
قال: ابدأي السرد.
أضاف الحاسوب الجديد: صفحة بيضاء كل يكتب فيها ما يشاء...

4 كيلومترات

كان ينبغي أن أتحمس مع أول عقد وقعته مع قناة محلية، لكن كل شيء حولي غير صالح للتغطية. يجن الليل ولا أنام.
أفتح الإنترنت ولا يروق لي الحديث إلى أحد. لا بد أن أستفيد من آراء الآخرين كي أعرف كيف يفكر الصحفيون خارج الحصار، لعلي ما زلتُ أجيد التعامل معهم. أستشير في عملي شابًا إعلاميًا غادر البلاد منذ سنتين، وقبل أن أقول له مرحبًا، أقتطع مكالمتي:
ـ دقيقة من فضلك.

لم أعد أتحمل البرد، أجمع الحطب وعلب البلاستيك من خلف الباب، أضعها داخل موقدي وأتم المكالمة عن أشياء أخرى برجفة أخفّ، فقصص حرائقي الصغرى تبقى مخبوءة معي داخل البيت. ما عاد بوسع أي مكالمة سكايب أن تنقل حواسي أو تجعل المتصل به يفهم عمّ أتحدث. ولماذا أتأخر كلما ذهبت أتفقد مدفأتي؟ ولماذا يترتب عليّ أن أتابعها كل ثلاث ثوان، فصديقي الذي يبعد عني أربعة كيلو مترات ما زال يسمي الكوارث التي أمر فيها مجرد صعوبة. هوة كبيرة بيننا رغم أن شقائي لا يبعد عن نعيمه أكثر من كيلومترات معدودة. كل شيء في البلد بعد مغادرته قد تغير. لا قواسم مشتركة تربط أحاديثنا. ولا أي بيت يعرفه صديقي داخل مباني المدينة يشبه مناخ البيت العادي الذي عاش فيه أيام صبوته.

الأجواء اختلفت بالمجمل.. أسلاك الكهرباء قطعت كلها. المواقد الموصولة على أسلاك الطاقة مركونة في الخرابات بسعر القمامة، وما عادت تجري الحياة داخل صنابير الماء. بتنا نستخرجها ثلجًا من الأرض. قحلت أرض مدينتنا من عمق جذورها. موسم الزيتون ارتد خائبًا، وانسلخ العنب إلى مجرد فروع واستحال على المطر أن ينقذ النبات وحده دون مولدات وكهرباء تضخ الماء. المعاصر أحجمت عن إنتاج محصول زيتونة واحدة. الأشجار قصّت

بيد أصحابها للتدفئة والطبخ. إدخال الوقود والزيوت وحمض الليمون صار محرمًا لأنها من فئة المواد القابلة للاشتعال. تزعم قوات الأمن أننا سنصنع منها متفجرات وقنابل ـ كأن الغوطة خالية من الرشاشات والأسلحة.

ربيت نفسي منذ الصغر ألا أحمل ضغينة في قلبي تجاه أحد، لكني الآن أحقد على كل من ينعم بالدفء دون عناء. لا أحد من أصدقائي في المهجر يصدّق هذياني، وأي محادثة مع شخص دافئ باتت تربكني للغاية، لأنه يرى العالم من وجهة نظر عامة منعمة دافئة لا من وجهة نظر باردة محاصرة. صحيح أن أصدقائي في دمشق يستمعون إلى أخبار الغوطة جيّدًا. لكن إدراك أبصارهم وقلوبهم وحتى تخيّلهم لهذه الأخبار متفاوتة وفق المكان والبيئة التي يسرحون فيها.

أدركتُ أخيرا معنى الآية التي تتحدث عن انقسام الناس لدى نزول القرآن. كلّ الناس سمعوا الآيات جيدًا بسمع واحد لكنّ الأبصار والقلوب تفاوتت حيال هذا السّمع. كلٌّ بحسب صفاء قلبه.. نيته.. فطرته.. إنسانيته.. حتى لو كانوا يستمعون إليّ إذًا.

إلا أنهم ينظرون لمعاناتي بقلب وعقل مختلفين عما أعتقد. شرح الواقع يتعبني جدًا والصقيع يعيق قدرتي على الاسترسال في أي حديث. صرت مجنونة بالفعل، أتحدث مع نفسي.. مع الجماد.. مع الفئران مع الحاسوب.. مع الحطب.. مع أيّ شيء يلازم حصاري..

على ضوء الشمعة الخافت يتحول كل خيال إلى كيان. الكون كله أشعره إنساناً ثقيلاً مطبقاً على صدري. أضم خديّ بيد واحدة وأنظر للحطبات المكدسات أمامي على الطبق تحت الموقد.. أيّ واحدة منكن أختار لأحرقها يا حبيباتي وأسمع صوتها "تئ، تئ، تئ" وهي تتجزأ داخل النار وتستعر لتزيد حرارة غرفتي. أسمع كيان الحطب يصرخ كلما احترق. تصيح حطبة

زيتـون أمامي، توقفي أرجـوكِ، لا تحرقيني لماذا تفعلين بـي هكذا. فالحكايات التـي قرأتها عن نفـسي في كتبكم منحتني الأمان بـين ظهرانيكم، ولذلك اخترت غوطة دمشـق معاشًـا لي. ألم يكن الزيتون يتجذر في مدينتكم منذ آلاف السنين، كررت عريشـة العنب تقريبًا مـا قالته الزيتونة.

بـين كل هذه الأصوات ابتسـمتُ ابتسـامة سـاخرة مـن أنفي، وأطلعتُ خشـبة الزيتـون عـلى واقعنـا. مـا كان يحكى في الحكايـات انتهى يا خشـبتي ولم يعد يحترمـه النـاس. نحـن في حقبـة جديدة يصنـف الزيتـون فيها بـلا تاريخ ولا مسـتقبل. أمجاده مجرد جروح غائرة على جذوع الشـجر تمزقها يد أي حطاب عابـر. حتـى تمثال الزيتون وعريشـة العنـب المصنوعة من البلـور الأحمر عند دوار المدينة دمرهمـا القصف الجوي.

نحـن لا نفعل شـيئًا ضـد الزيتون من حيـث المفهوم، إننا فقط نـدرأ البرد عنا. يصـدم جـذوع الزيتونـة جوابـي.. تقول لـماذا أنا بالـذات دون غـيري؟ ثم ما ذنبـي لأمـوت مع الثائريـن؟ أنا لا أريـد أن أتبنى مواقفكم! أجيـب: لأن عودكِ مـن نـوعٍ ودود. من سـوء حظك يـا زيتونة المدينـة أن حطبـك وحطب الجوز كانا من أَجود أنواع الأخشـاب التي توفر مخزوننا الشـتوي لوقت أطول، فأنت تختزنـين جمرًا أكثر في مدافئنـا ولا تحترق أغصانك بسرعة.
هـذا يميـزكِ عـن بقية حطـب الشـجر. البلوط والسرو يسـاعداننا على إشـعال النـار فقـط، دون أن نحتـاج وقتـا طويـلاً لإضرامهـا. أمـا أنـتِ يـا زيتونتنـا فيجـيء عملـك رصينًـا ضامنًـا لدفئنا سـاعات أطـول. ميزتـكِ أنـكِ تتجمرين وتخترقين قلبي الرطب لتلبسـيه مـلاءات الدفء.
شـكرًا لتفانيـكِ القـسري. ولكن هل تعتقدين أن الناس سـيحرمون أجسـادهم مـن الـدفء والعافية من أجـل حماية مشـاعر الزيتون والحفاظ عـلى الطبيعة واحـترام ما يقـرؤون في كتبهم. بالنسـبة إلي، حتى كتبي ودفاتـري مزقتها إلى صفحات وأحرقتها داخل موقدي لتتأجج النار، فهل ستقف القصة عند عيدانكِ أيتها الزيتونة السـورية المعذبة؟

أحيطـك علمًـا أن العيـش في الجوع والبرد لا يحتـاج إلى دراسـة مناهج العلوم والرفق بالنبات، يحتاج فقط إلى "حربأة". هذه كلمة يقولها الإنسـان السـوري، إن كنـتِ تفهمـين كلام النـاس، وهـي تـدل على أن الشـخص قادر عـلى التلون كالحربـاء ليدبـر شـؤونه في الظـروف الصعبة بحنكـة لا متناهيـة. أتعرفين يا سـيدة زيتونـة كيف قضيـت أوقاتي قبـل أن تلومينـي؟ عندما تغيب الشـمس وينقطع عني أي مصدر للنور أجبر نفسي على النوم كرهًا حتى لا يخيفني الأرق بالظـلام. كما تشـاهدين نوافذ بيتـي حطمتها طائرة "الميـغ" ظهر أمس ويعبر الهـواء مـن الفتحـات فيقرصني البرد طـوال الليل، لذا أضع آخـر حطبتين من جمـاركِ حتى لا أحـرق مدّخراتي من حطـب البلوط والسرو.

لـم أكن امتلك الخبرة قبل هذه الأيام لأشـعل مدفـأة، حتى أني ما كنت أميز بين أنـواع الحطـب. الآن -لا أعـرف ما يجب أن أقول في حضرتك، ألحسـن حظي أم لسـوء حظـك ـ فقـد صرت أجـزّ حطبـكِ إلى قطـع صغـيرة، وأسـتغرق ربـع سـاعة وأنا ألفّ رقائق النايلون على الأخشـاب لأقدح شرارة نار هامدة. أوْريها مـن قداحة أشـتري غازها بخمسـة دولارات ـ الغاز وحده فقـط دون القداحة - وأحافـظ عليـه أشـهرًا لكـي لا أنقطع مـن الاسـتحمام والـدفء إذا فقد غاز القداحة من الأسـواق فجأة.
وحتـى لا تـذوب جـذوة النـار الخافتـة، أحتويهـا بأسـفل يـدي وألـف رقائق النايلـون حـول الجذوع حتـى أطمئن بأن النايلون شـبب أحد الجـذوع ونقلها لباقـي الأخشـاب. أظـل أطعـم المدفأة من فـروع الشـجر حطبـة وراء حطبة. أصالبهـا داخـل المدفـأة عـلى شـكل حـرف "X" ليمر الهـواء من بـين الأغصان ويزيـد قـدرة النّار على الاحمـرار واللهب. كم يسرني هذا المنظر وهذا الشـعور الحميمـي في الشـتاء، يمنحني كثيرا من الأمان المفقـود والطقوس العائلية التي فارقتني.

أضـع حاسـوبي قرب الموقـد لأكمل عملي بدفء، فيشـوى الحاسـوب والحطب معًـا لكي لا تبتعد الأخشـاب المشـوية عن ناظري وتمنعني هنـاء التصفح. فلو

أهملت مدفأتي على حساب تصفحي ستبرد جدران الغرفة بسرعة كبيرة وستذهب أتعابي سدى. كم كانت تزعجني رائحة الحطب وتجعلني أكره رحلات اللحم المشوي مع أبي في الصغر كي أجمع له جذوعاً من البستان، فيقشعرّ شعر جلدي من ملمسها.

منذ أول سنة على اختفاء المازوت من الأسواق سلمت يدي لقانون الحطب. خلعت عن المدفأة جرتها التي كان يوضع فيها الوقود وفتحت فوهتها الأمامية لتكون مستعدة لاستقبال ضيوفها من الأخشاب. كنت في قمة عجزي في البداية دومًا تراني أستنجد بجيراني وأصدقائي لإشعال مدفأتي. وعلى مر الأيام اضطررت للتغلب على نفسي والخلاص من عجزي في البرد، وتعلمت فن الإشعال على مهل. لكنني قد أستغرق في جعل الحطب يتوقد ساعة كاملة وقد أعطب المدفأة وأنام في البرد.

عاماً بعد عام سهلت عليّ المهمة فأدمنتها وعشقتها.. الحاجة أم التعلم وأم الاختراع. لكن خشبة الزيتونة ليست بمستسلمة أبدًا ولا تصمت عن العذاب أبدًا. لم تتقبل فكرة أن النظام يصنف النبات كالإنسان ويعتبرها زيتونة معارضة ويزجها مع المحاصرين في سجن كبير. واعتبرت أنني أروي لها جرائم النظام تبريرًا لجريمتي، فهي لا تقبل أن تذبح وتعذب لمجرد قبولها البقاء بيننا؛ لم تعد الزيتونة تتقبل أحاديثي وطريقتي في تجمير خشبها. ذات مرة عاقبتني على حرق الجذوع أشد عقاب، تركتني أوهج مدفأتي وأضع فوقها قليلًا من الحطب الأخضر المقطوع حديثًا من زيتونة مثمرة قطعها صاحبها ليستفيد من الثمن، دون أن يخضع عيدان الزيتون لأي عملية تجفيف. جففتها أنا داخل نار أضرمتها حتى يتسنى لي تدفئة نفسي صبيحة اليوم التالي. ظلت الجذوع تصدر صوت العافية، يا الله ما أعذب صوت الدفء، ما أوفى حطب الزيتون! كان صوت اتقاد مدفأتي الصوت الوحيد الذي يؤنسني في كل الشارع. فرشت لحافي وطيئًا على الأرض. تمددت ملتصقة بالمدفأة ورحت أغفو وأنا فرحة بجمرها. تركت الحطب يؤز المدفأة أزًا وأنا غارقة في نوم عميق.

أستيقظُ فجأة على عبق دخان أبيض يشكل غمامة في الغرفة. تنسد عني حاسة الشم وتدمع عيناي حرقة في جوف الليل. قمت لا أقوى على الحركة ولا الكلام. أحسستُ كما لو ازرقّ وجهي وجحظت عيناي. عجزت أن أسحب شهيقًا أدفع به الأذى عن رئتي. أفقت مذعورة أبحث عن أقرب متنفس أمامي. فتحت كل الأبواب والشبابيك ونفضت لحافي على الأرض، سقط حاسوبي، تهشم جزء من الشاشة. أطفأت المدفأة رغم زمهرير كانون الأول. أخرجت كل الدفء الذي اكتسبته الغرفة بعد عناء ساعات.

إنها جمرة الزيتونة، سقطت من مدفأتي على لحافي خلال نومي وأخذت تشتعل بخبوّ داخل الإسفنج دون أن أشعر. كادت الرائحة تميتني اختناقًا كأنها قنبلة كيميائية. انتقمت مني الزيتونة أشد انتقام. والقصف الليلي يثأر لها أيضًا في جولة صواريخ مفاجئة يختفي فيها صوت الحطب تمامًا، ويستبدل بصراخ أطفال ونساء من بناية مجاورة تنبئني بتهوية ثيابي من روائح الدخان، والخروج أول الفجر للتغطية.

لقطة بلا رأس

أضع مسيرة الشقاء في حياتي كلها في كفة، والاستيقاظ للتصوير في صبح شتوي في كفة ثانية. البرد على أشده، ولا يحالفني المزاج ولا العزيمة لأدخل مع خشب الزيتون والسرو منذ الصباح في معركة. تتجعد يداي وينغرز نسر الحطب في أصابعي حتى أشعر أنه سينبت من تحت الجلد نبتة. لا يكترث الحطب طبعًا لاهتراء جلدي ومنظري أمام الكاميرا. أجهد نفسي في الصباح وأعاود إضرام النار لأحضّر قهوتي. آهٍ.. حتى أنتِ يا قهوتي تغيرتِ، صحيح أن بُنّكِ وفيّ لم يقفر من السوق بعد، ولكنهم يطحنونكِ من بذور تالفة أيًا كان، بذر التمر، نفايات الذرة، بقايا العلف، وربما يطحنون خشاش الأرض لاحقًا. فالبائعون يريدون إكثار كمية البن المتوفر كي يبيعوه بسعر أعلى، ويحافظوا على وجوده في الحوانيت أطول وقت ممكن.

لا بأس، نصف ساعة ويتقد الحطب، ونصف ساعة أخرى حتى تذوب القهوة في الماء. كم صرتِ تبدين مشؤومة يا قهوتي كم تغير طعمكِ وكم أنا نادمة على عشقك كل هذه السنين. ها أنا اليوم أشتُم كل من يحتسيكِ. إنكِ تكلفينني ساعة كاملة وتأخذين من وقتي وطاقة جسدي، فأذوب ولا تذوبين لدرجة أنك اضطررتني لأعاملك معاملة قاسية ما كنتُ لأرضاها لك. صرت أفتح الفوهة الأمامية للموقد، وألصقك بالنار إلصاقًا كأنكِ من قبيلة الحطب لتحترقي وتتكرمي بالغليان.

أرتشف القهوة في البرد وأبكي فوق فنجانها سرًا. من جديد أحدثها. بالله عليكِ لماذا عليّ أن أخرُج في الصقيع؟ لماذا لم تنصحيني بالزواج على العرف؟ حينما تذوقتكِ أول مرة كان عمري ستة عشر عامًا. لو أحسنت النصيحة إليّ منذ ذلك الوقت لكنت أحتسيكِ الآن في بيت زوجي الذي يحمل عني الأعباء ولا يضطرني إلى الخروج في البرد. تهمس القهوة من قلب الفنجان: احمليني.. احمليني واذهبي إلى الشباك؛ هناك حيث الجهة المدمرة أقصى اليسار. أذهب

وأرى سيدة تحمل أطباق الحلوى وحدها؛ الساعة السادسة صباحًا والسيدة لا تملك معطفًا شتويًا يقيها البرد القارس. آه يا قهوتي عندكِ حق، النتيجة واحدة. لو تزوجت لكنت الآن أرملة شهيد أو زوجة معتقل وأحمل على عاتقي مسؤولية أطفال أيتام. وقد أبيع الحلوى بلا سكر مثل هذه السيدة؛ وربما اضطررت أن أصير حطابة أقطع الشجرات بنفسي. في كلا القراءتين المغشوشتين لفنجانك كنت سأخرج في الصقيع وأموت من البرد.

أراكِ كبرت يا قهوتي وتحولتِ إلى كائن حكيم وصرت تعطينني دروسًا أكثر من أي شخص يمشي في المدينة الخراب. لكن كما ترين يا محروقة أنا متعبة جدًا ومقرورة. صار الثلج يغمرنا شهرًا كاملًا من كل عام، ويطل الدمار علينا بثوب أبيض قد يكون جميلًا لمن لا يعيشون في مكاني لكنه يزيدني تجمدًا وشقاء.
قالت القهوة إن الصور ستبدو أجمل وأرقى كلما ابيضّت؛ لأن الأشياء التي بقيت في بلدتنا سواد في سواد البن والعلف والدمار والبيوت المعتمة. تجلّدي، اذهبي تمَشّيْ في البرد لتبعثي الروح في الثلج حين يراكِ تحولينه إلى صور جميلة تغطي الركام. أستجيب للنداء.. إلى اللقاء يا آنسة.. يا قهوة.
أرتدي معطفي وأتحرك في السابعة بكاميرتي حيث يحلّ الصباح في الثلج هامدًا حكيمًا وأكثر ابتعادًا عن صخب الناس. أرتدي ثلاثة قمصان من الصوف ومعطفا وشالا سميكا يغطي كتفيّ. أخرج من قمقمي المضاء بالشموع إلى نور الكون. أحاكي جدران المدينة المدمرة وحطابيها الكادحين، نسير باكرًا وحدنا. أسرد حكايات طويلة مع كاميرتي حين أتمشى في ما أتيح لي على أرضنا المحاصرة الضيقة. أبدأ بلقطات عشوائية أضعها خلفيات في نهاية كل تقرير حتى لو لم أتفق مع غرفة الأخبار على إنجاز تقرير بعد. لو اضطررت يومًا للمكوث في غرفة مقاسها مترٌ بمتر، أعاود الصبر على القهوة أعدُها وأحتسيها وأصنع عن ضيق المكان تقريرًا واسعًا لن يرى النور في غير مخيلتي. وهمٌ مستحدث في عقيدتي الجديدة يبشرني بأن الكاميرا والقهوة تستطيعان مؤازرتي. تملآن عليّ الوقت وتخففان من ثقل الغارات وأخبار الموت.

كافيـين القهـوة غـير كافٍ. الأثقال على الجسـد تزيـد. فرغ تماماً من سـعراته وطاقتـه وكربوهيدراتـه، لم أحتس سـكرًا وليمونًا منذ زمـن، ولم تلمح عيناي حبة بطاطا. البقوليات نسـيت شـكلها كيف كان، ونسـيت شـكل لحم الدجاجة أيضًـا. يـا رب مـا عدت أقوى على مقاومـة البرد أكثر، ولا أقـوى على العمل بلا طعام. في الأشـهر الأولى من الحصار كان أمر الجوع هينًا علي وأضحكتني هذه العقوبـة التـي أراد بهـا النظـام تركيـع أبناء المدينـة؛ لأنني وجدتني أسـتطيع العيـش عـلى وجبة واحـدة كل ثلاثة أيـام، واعتبرت أن الجسـد مسـتودع آمن يختزن الطعام ويخرج مخزونه في وقت الجوع. لكن مخزوني بعد سـنة انتهى تمامـاً، فالوجبـة التي آكلهـا لا تحمل في قصعتها سـكرا ولا أرزا ولا طحينا ولا أي مـواد تسـهم في تخزيـن الدهـون أو في اكتنـاز الطاقة؛ لا سـكاكر ثنائية ولا أحاديـة ولا متعـددة. غذاؤنـا أعـلاف حيوانية فقط تخـز معدتي، وأنـا بالكاد أتحرك بقدرتي على تخيل جسـدي مجرد عظمة لا تتلكأ أمام الجوع ولا تشـعر.

كنـت أتخطـى عظامـي وأحـاول ألا أفكـر فيهـا، وأتجاهـل أمر جوعـي تماماً كلمـا ذهبـت للتصوير. أحمل الكامـيرا لأبحث بها عن بقايـا أطعمة على رفوف الحوانيـت هنـا وهناك. دومًـا يخيب ظني وأصـور الرفوف فارغـة. أجد علبة واحدة من مربى المشمش المخزن بلا سكر أو قطعة من قمر الدين المصنوع من "السـكرين" المُحلّي غير الطبي وغير الصالـح لوضعه في الأكل، أو أجد في الدكان بهارات قديمة تباع هكذا وحدها. ومع ذلك أرى صاحب المحل صامدا في محله، يضـع كرسـيًا لينتظـر زبائناً مـا. لو جاؤوا لوجـدوا محله فارغًـا.. ولكن ماذا سـيفعل في البيـت؟ مضطـر هـو لأن يمكـث كل الوقت بلا جـدوى، ربما كي لا يخـوض في القيـل والقال مـع أهل بيته، أو ليدرأ عن نفسـه الخجل أمام الأولاد بما أنه لا يسـتطيع تأمين لقمتهم.

كنـتُ أرى بائعًـا يجلس كل يوم عـلى كرسي أمام محله. لم أره مرة يبيع شـيئًا أبـدًا. يجلـس أمـام دكانـه مجرد جسـد. في ذلـك اليوم جـاءت الغـارة بسرعة، سـقطت عليه شـظية وقطعت رأسـه. لكنها أبقت جسـده جالسًـا على الكرسي

وهـو يضـم رجلـه اليمنى عـلى اليسرى بـلا رأس فوقهمـا. جاء أقاربـه لاحقًا ورأوه ماكثًـا عـلى هذا الحال.. جسـدٌ ينتظر الزبائن بلا رأس والدم يسـيل من العنـق. رأيت الشـباب يصرخـون ويبحثون عن رأسـه بين الدمـار ليدفنوه مع صاحبـه. أُخرج مـن بين المباني التـي اختبأت فيها عندما سـمعت الغارة.

يومًـا بعـد يوم بـدأت أفـارق تماسـكي.. أرى الجـوع يذبلني ويغـير طبيعتي أكثـر مـن أي مصيبة أخـرى. أتعب من تحريك يدي.. طاقتـي لا تكفيني للمشي مسـافات طويلة حتـى أبحث عن مواضيع وقصص إنسـانية ألتقطها. لا وجهة أقصدها في غياب المواصلات والاتصالات عن البلد. كل حياتي بحسـب الصدفة. هكـذا حتـى خيمت الكآبة عـلى كل قطعة فيّ بعد موت معدتـي. أصبحت زاهدة تمامًا. كل الأيام أراها كبعضها؛ لا أتحدث إلا للأشـياء. لا أبتسـم ولا أندفع ولا أتحمـس لأي تطـور ميدانـي، لا أذعر ولا أحزن لأي مصـاب أمامي. أهم قضية تشـغلني الحصول على رشـفة شـاي بسـكر خالص؛ كـي أكتنز طاقـة تؤهلني لتحمل غارات يوم أو يومين.
أقضي غالب أيامي على قهوتي المغشوشة رغمًا عنها وعني.

”فيكسر“ اسمه الغثيان

أسير منذ ثلاثة أيام على أرصفة حي فقير. أطرق البيوت بيتًا بيتاً دون مجيب. يوم الخميس الفائت عادت عدستي معي فارغة، خائبة الرجاء. رأيتُ في طريقي سيدةً تستغيث وترجو رجلا أن يساعدها في إيجاد سكن لأن الطائرة أفرغت ما تبقى من حمولتها في بيتها وغادرت. أبقت لأم محمود روائح النار والقاذورات والحمم. سحقت جدران شقتها وتركتها عارية من أي ستر. حنّ الرجل المسؤول عن الإسكان أخيرًا على المسكينة بعد تذلل طويل. أعطاها شقةً في الطابق السابع كي لا تبيت في العراء، وقد يبدو العراء أكثر أمنًا من هذا البيت. لا أحد يجرؤ أن يقطن فيه فالمبنى مجمع للقذائف. حيطان البيت كلها واجهات شبابيك مهدمة تطل مباشرة على السماء دون أي فواصل.

قبلت أم محمود أن تسدل النايلون على الواجهات المكشوفة وتعتبرها زجاجًا. ورضيت أن تنام مع أطفالها في سقيفة خطرة. لم تفكر السيدة المسكينة بصعوبة نزول وصعود مئة وخمسين درجة كلما احتاجت شيئًا من الأسفل. مشكلتها أكبر من هذا بكثير. لا شيء يحيط بيتها أو يحمي الأولاد من السقوط من الطابق السابع إلى الأرض إذا ما هبط النايلون فجأة. لا سقف فوقهم يدرأ الموت إذا سحقتهم الغارة من جديد؛ بل إنهم يسمعون الغارات بصوت أعلى مما يسمعه الذين في الطوابق الأرضية. كأن بيتهم مطار دولي.

بعد قليل رأيتها تلوح لي من الطابق الأعلى. فهمتُ أنها تخوض هذه المغامرة العسيرة القاتلة بإرادة نادرة. لقد أصبحت قريبة جدًا من السماء. خامرني وقتها شعور بأن هذا مؤشر على قرب موتها. كيف أنتشلها؟ وهل إذا ظهرت باكيةً على شاشة التلفزيون سيرأف بها أحد؟ إن عشرات مثلها يبكين على موت متنوع كل يوم. ضعفت حيلتي ولكني قررتُ أن أستعير عينيها للنظر إلى بشاعة الحياة من فوق.. من أعلى طابق دون سقف؛ ربما استعطفت بندائها شخصًا ما في هذا الكون.

اقترحت أن أسلط الضوء على قصتها فلم تقبل. قالت إنها لا تريد أن تظهر ملامحها على الشاشة حتى لا تستهدفها طائرات النظام من فوق تحديدًا. جنونُها، توسُّلها، خيبتها وفرحها، كل هذا وأمور أخرى ظلت تحوم في رأسي أسبوعا كاملا. رحت أتنقل ثلاثة أيام وقت الظهيرة جيئة وإيابًا لأجد حياةً تشابه حياتها. لعل إحداهن تقبل مخاطبة عدستي.

في اليوم الرابع مشيت دون توقف تحت شمس حزيران، تحت الطائرات الحوامة. زاغ بصري وأصابني نزع من الغثيان. أسقطني الملعون أرضًا. فتحت عينيّ لأجد نفسي في بيت عائلة تطعمني رقيقتين من الخس مع كوب ماء. أكلت رقيقة خس واحدة خجلًا وتركت الرقيقة الأخرى. سحقًا للشمس، سحقًا للمشي بلا طعام. اللهم اقصف الغثيان واحرقه مئة قطعة ليرحل عن الدنيا بلا عودة.
بعد لحظة جاءني الغثيان بوجه متجهم عابس. أنت تسيئين إليّ وأنا أحمل الخير لك، ألم تستمعي إلى مقولة ”رب ضارة نافعة“؟ تأملي في أرجاء البيت حولك..

يا للغرابة! كان أسوأ مما تخيلت. الأم وابنتها تسكنان في كراج سيارات، أو محل خرداوات قديم آوت إليه مع زوجها وابنتها بعد خراب بيتهم. يصنعون من دواليب سيارة مأوى للحطب والحمام والمرحاض والمطبخ. كل ذلك في فسحة واحدة تفصلها عن باقي أرجاء البيت قماشة ممزقة. البيت معتم جدًا حتى في منتصف النهار، وربة هذا البيت لا تملك ثمن شمعة واحدة. ستحتاج ثلاث شمعات كل يوم على الأقل لتواجه العتمة. قطعت السيدة حواري مع الغثيان.
- ما الذي أتى بكِ إلى آخر البلدة وأنت تسكنين في أولها؟
صارحتها بأني أعمل في التصوير للتلفزيون، وأني أبحث منذ ثلاثة أيام عن عائلة تسكن بيتًا مردومًا، وتقبل سيداتها بالظهور أمام عدستي. حكيت لها قصة السيدة التي تقطن الطابق السابع، وأطلعتها على نيتي في تعريف

المشـاهدين بمشكلة السـكن الكبرى. صارحتها بأني أفضّـل بطلات لتقاريري مـن السـيدات، لأنهن يعرضن وجعـي بطريقة أفضل. تعاطفـت معي وحزنت عـلى وضعي الصحي وجسـدي المتعب. أبلغتنـي بأنها لا تظهر عـلى التلفزيون في العادة، ولكنها ستسـأل زوجها من أجلي، فإن أذن لها ستسـاعدني وتسـمح لي بتصويـر زوايـا بيتها مع مقابلـة تظهر فيها. انتظرت زوجهـا حتى الرابعة كأننـي جئـت لأصـوره هو. تحركـت إحـدى الهيئـات الإغاثية أخيرًا وأرسـلت موفدهـا، هـو ذاته الذي اصطحبته ليدلني على العائـلات المحتاجة. في الصحافة يسـمونه منسـق المقابـلات أو "فيكسر". كان يلتقط لهم صورا في السـابق عن اليمين وعن الشـمال وهم يسـتلمون المأكولات ويرقصون فرحا بها ويشكرونه جزيل الشكر على الأغذية التي لم يدفع ثمنها من جيبه. عندما تذكرت أنه خلف البـاب أبلغتـه بأني قد يتاح لي التصوير في البيت ولا احتاج مسـاعدته، لأن أغلب العائلـة نسـاء ومن عاداتهن ألا يختلطـن برجال غرباء.

تعـودت أن أصور العائلات بمفردي، وتربكني الموازنة بين ظهوري وأسـئلتي وتصويـر لقطـات تظهرني والعائلة في مشـهد واحد. بعد سـاعتين جاء الرجل وأذن لامرأتـه اخـيرًا بالتوجه للعدسـة، شريطة أن تضع لثامًـا لا تظهر منه إلا عيناها.

يحدثنـي الغثيان مـرة أخرى: أفهمتِني الآن؟، لماذا شـتمتني؟ لمـاذا ازدريتني؟ انظـري لـدوري العظيـم في إقنـاع المرأة بالتوجه نحو عدسـتك. فعلـت هذا بك لأسـاعدكِ لأننـي رأيـت عجز الشـاب الذي اسـتنجدتِ بـه بأم عيني؛ ثـم إني لا أريدك أن تربطي عدسـتك بوجباته الإغاثية. أتعبتك ولكن اختصرت عليكِ عناء البحـث. قلـت لـه: وماذا عن عناء السـيدة وابنتها؟ سـيظل حاضرًا مسـتمرًا في ذهنـي. ألا تـرى أن فواجعنا مهما تعاظمت تقتنصها الشاشـة كمجرد موضوع عابر دون أن يُـناقش حتى بعد النشرة؟
أجاب الغثيان: وأنا أصاب بالغثيان للسبب ذاته.

**

جولة شواء

قـال لي مخـرجٌ فاضـل: ابدأي قصتـكِ مع القـراء انطلاقًا مـن الحديث عن يوم شـاق. وثّـقي لقطة معروفة يميزونهـا، فطبيعة الناس أنهـم يتفاعلون مع ما يعرفـون. ربمـا كان محقًا، قلـت في نفسي. العرب يفضلـون اللحم الطري حين يشـوى، نظرا لغلائـه وقيمته الغذائية. بما معناه ما كانـوا ليتابعوني في فيديو مجزرة المئتي شـهيد من الأول للآخر لو أني ظللت أقف أمام الكاميرا بالجمود نفسـه، بـاردة غير مبالية بـين الحرائق، أي دون شـواء علني يُظهـر احمراري رويدًا رويدًا.

أوشـك تقريـري أن يكـون مقتضبًـا، عاديًـا كأي صـورة تحت القصـف لو لم تَجُد الطائرات علينا بحمم متتابعة تزيد الصورة حمرة وتفحمًا. أخبرني شـابٌ مـصريٌ لا يتابـع تداعيات الوضع الميداني على السـاحة السـورية بأنه سرح من خـلالي في صـور فتيـات كثـيرات راعشـات، قبل أن يشـاهد فيَّ صحفيـة ترتدي درعًـا. يقـول إن ذلـك هـو الشيء الوحيد الذي أثر في نفسـه من بـين كل ما رآه من مشـاهد دموية في سـوريا. ربما تـرك ذلك أثرًا لدى أغلب المشـاهدين الذين شـاهدوني لحظة تقليبهم المحطـات التلفزيونية وقت الإعلان.

لعلهـم فوجئوا بي للحظات قصيرة؛ كان من الممكن ألا تشـتق الشاشـة من تلك اللقطـات "برومـو" تعرضـه عـلى مدار ثلاث سـنين بـين النشرة والتـي تليها. وكان مـن الممكـن بالتـالي ألا يتعـرّف العالم عـلى معاناة قطعة بشرية حسـبها البعض محذوفة مـن وجه الكون.

الحقيقـة أننـي كنـت بـلا عقـل؛ لا أتأثر ولا أتلـونُ لكننـي بدأت أفـزع منذ أن شـوت إحـدى الغارات ذات مرة غرفـة أقبع بها مع أخواتـي صبيحة الأول من كانـون الثاني مـن عام ألفين وثلاثة عشر. هربت من تحطـم الأبواب والخزائن فوقـي، فنجـوت وأصيبـت أختـي في رجليها لأنها ظلـت "مدفوسـة" لم تهرب

ولـم تندهش. نومهـا كنوم أهل الكهف كما تقول أمـي. بعدها صرت ألوذ بأي مكان حين تُــغير الطائرات حتى لو كان الفضاء منبسطا لا ملجأ فيه. المهم أن أتحرك وآخذ بأي سـبب قد يدحر عني وسـواس الإصابة.

يقـال: "مـا عـاب امرئ شـيئا إلا ابتلي بـه". مرة عبتُ على شـاب يعمـل في أحد المكاتب العسـكرية انبطاحه لحظة سـماع صوت الطائرة حتى قبل أن تنخفض مـن علوهـا إيذانـا ببدء القصف. عـاد هذا المجنـون الى البلد أخـيرًا بعدما قضى معظم حياته في أمريكا معتقدًا أن نفسه ستحظى ببلد تهتم بموهبته السياسية. خـرج منهـا في النهايـة بصيت "سـارق"، ولكـن هذا موضـوع آخر.

جعلـتُ مـن سـيرته "علكـة" بألسـنة أهـل الحـي؛ أنقـل القصـة من حـارة إلى حارة وأهزأ به. أروي للجميع كيف كان يسـتلقي على الأرض ويحفر في ترابها قبـل انخفـاض الطائرة. يحفـر حتى لو لم يكـن في الأرض تـراب يحفَر. المهم عنـده أن ينبطح مبـاشرة ليتقي الموت، وما كانت وقتها عـادة الانبطاح في البلد سائدة.
نظل نردد قصته ونحكي ونبالغ ونضحك ونسخر منه لساعات.
خلاصـة الأمـر أنني ابتليـت، وهربت واضطربـت. الحمد للـه أن معابتي له لم تصل بي حد أن أنبطح.
فهمـت أخـيرا أن كل إنسـان يتعامـل مـع الحدث بشـكله الخاص، وهـذه أمور تختلـف طبعًـا مـن جسـد إلى آخر. أحدُهـم يُقصـف فينبطح، والآخـر يُقصف فيتصـور، وثالـثٌ يُقصف فيمسـك بالكامـيرا ويصور. هناك أيضـا من يُقصف فيسرق قوت غيره.

لكنـي لا أعتقـد ابـدًا أننـي لـو أدخلت في منقـل حقيقي لشـواء اللحـم البشري ومددوني على أسـياخ نار وأشـعلوا النار في جسـدي لآخر درجة؛ لا أعتقد أني سـأقول لهـم مثلا: أرجوكم صوروني في "ووك آند تـوك"، أو: أرجوكم دعوني أوجـه للنـاس آخـر تقريـر في حياتـي، أو أن أهـذي بأقاويـل من قبيل شـهيدة

الحقيقـة. الأكيد أنني لحظتها سأسـب الحقيقـة وتفاصيلها.

بوصـف أدق، كنـا نُــقلى عـلى مهـل. اللحم عندما نشـويه لا يخطـر في بالنا أن نصـور احمراره عـلى المنقل. نفعلها بعدما ينتهي صـوت النار ويوضع الطعام مستسـلمًا عـلى الطاولة. هكـذا كنت أوثق درجات انشـوائي. فغـير معقول أن أشـوى في الحقيقة وأظل أرسـل للناس صورًا.

لا يختلـف اثنـان عـلى أنني مجنونة؛ أرغـب في الثرثرة والبـوح إلى الكاميرا بأية حـال كنـت. أعتقـد أني يومها كنت جسـدًا صالحًـا للتصوير فقط. كان سـهلًا عـليّ رغـم انشـوائي أن أجمر نفسي ثم أبرد جلدي لأسـتدرك قواي بسرعة أمام الكاميرا، بعد كل ما خطر من هلع على هذا الرأس. في كل مرة أقول هذا التجمر الأخـير، ولا أعـرف من أيـن تأتيني القـدرة بعدها. أعرف كم يضحي الإنسـان حـين يصر في حياته على أمر ما؛ يسـتميت حتى لا يعـود دونه. المصيبة أنني ما عـدت أطيـق التحدث عن الفكرة نفسـها، ولـم يبق فيَ ولا في البلد لحم للشـواء، كلنا بسـبب الجوع مجـرد عظام بلا لحم.
أحيانا أراني لا أسـتميت من أجل شيء ولا أطمح إلى شيء سـوى أن أنام طويلًا.
لكن أحب المجانين الذين انشـووا من قبلي بسـبب الأمر ذاتـه. لم يكونوا عظامًا مثلنـا، إذ لم يعيشـوا إلى زمـن الحصار. رأيت لحمهم يحـترق أمام عيوني. لقد اسـتحدثوا لنـا -نحن مـن جاءوا بعدهم- واجبـاً وعادة. أنا أكمل مسـارهم من بـاب الواجب ومن باب العـادة. نندفع باتجاه النار ولا ننتبـه. الواجب والعادة يمنعاننـي أن أعـود يومًـا فارغة الأيـدي دون أن يكون في حوزتـي ولو نصف دقيقة مصورة عن هذا اليوم.

قـال لي أحـد الأوغاد قبـل أن يصبح شـهيدًا خالدًا: إن اللحظـات مرها وحلوها تفنـى وتبقـى الصور.. لا أعـرف إن كانت الصور باقية معـه الآن. ولا يتاح لي أن أفهم مشـاعره وهو في القبر حتى لو سـمع سؤالي من تحت الشاهدة.
في كل وقفة لي أمام الكاميرا كنت أسـتحضر وجوه المراسـلين والمصورين الذين

رافقوني وماتوا واحدًا تلو الآخر من أجل أن يحملوا الكاميرا ويسيروا كالعميان باتجاه منقل الشواء. كانوا يسمون ذلك "لحظة وقوع الحدث".

أرى أشلاءهم أمامي أكثر مما أرى فوهة الكاميرا. لم أتوجه لإنجاز تقرير إلا وفكرت أنها ستكون الوقفة الأخيرة. سأرحل مثل السابقين تاركة شيئًا من أثري. قد تكون عقيدة الموتى قبل أيام موتهم بقليل أفضل مما كانوا يعتقدون مسبقًا وأفضل مما أعتقد أنا.

ما كان لضخامة أي حدث أن تجعلني أتوقف؛ لم أكن أعمل المنطق كثيراً. عودت نفسي منذ البداية على الاستمتاع برائحة الشواء. أقول في نفسي إن مت حرقًا سألاقي أصحابي الأغبياء الذين سقطوا قبلي فأتفاعل معهم وأرتاح من عتاهة أهل البلد. وإن سُجنت فقد أجد في المعتقل ظروفًا مواتية للعيش أكثر من تلك التي تتوافر لي الآن. ما ضر لو تلقيت ضربًا وركلًا في الأيام الثلاثة الأولى. سأجلس بعد ذلك مع مجموعة من البنات في زنزانة تتاح لنا فيها فرص للحزن والندم وحديث الذكريات. قد يمزج لي السجانون وجبتين في اليوم بالمجان من دون أن أدفع ثمنهما، ومن يدري ربما يتكرمون عليّ بثلاث وجبات. أتناولها مع الشاي المحلى دون النحت في الصخر وعناء البحث اليومي. وهناك في السجن سأضمن ابتعاد حواسي عن مناقل الشواء المتطورة في شوارع المدينة: البراميل.

كلما وقفت أمام الكاميرا تأكدت من تأخر الموت والسجان ومن غياب الوجبات الثلاث.

كاميرا على ثلاث أثافي

١

أتاح لي هدوء العتمة القسرية تحت الحصار أن أسمع حواراتٍ لم أصخ لها سمعي من قبل.
قالت لي النار: حين تضعين يدك بقلبي يجب أن تعرفي أن اليد التي في قلب الماء لا تحسّ بحرقتك، وقبل أن تشتكي ألمي وأنت صاحبته يجب ألا تتوجهي لمن ليس به الألم ذاته. قالت لها الكاميرا: أنا مثلك يا نار.. فأنا على ثلاثة أرجل وأنت على ثلاث أثافي بل إنني الأقوى منكِ مهما تظاهرتِ بالقوة. الكل يتحداك من أجلي، يتركون الحوامل واقفة وحدها ويمسكونني بأياديهم كأنني جذع الياسمين، بينما أنتِ تتقدين ببطء على الحجار الساكنة، ها أنا أكسب دومًا بياض الوجه من وراء أفعالكِ. تقتلين في كل يوم منهم. فأرصدكِ ولا يرصدني أحد.

عرفتُ منذ ذاك الوقت مكرهما؛ أدركت أنني حين أدفع ثمنًا كبيرًا مقابل رسالة ما أوجهها عبر الكاميرا لا بد أنني أستنزف عمري لأطيل في عمر النار وعمر الكاميرا. فحملت مسؤولية موتي على عاتقي وحدي، دون أن أتوقع تعاطفًا أو تفهمًا من أحد. أحدّد خطورة أمري واستعدادي لاستقبال الحرائق قبل أن أقطع خطوطكِ يا نار.. وقبل أن أحتضنك يا عدستي المخادعة يا من ظننتك ترحمين. ما بالك لا تفكرين بي قبل أن تستجيبي لمنتج في غرفة الأخبار يطلب منك تقريرا مصورًا على عجل؟ ها أنت تحرقينني كل يوم وتعتبرينني مثل الأسوياء، راشدة، قادرة على تحديد الظرف والمصير دون أن تواكبي ارتباكي الذي يجعلني أتصرف كطفل يستقبل الأوامر دون أن يفكر فيها.

٢

كنت ابنة طبقة متوسطة وضعت يدها في جُذا النار، ودفعت ثمنًا كبيرًا من أبنائها وبيوتها وأشغالها ثم نامت على الأخشاب. شهدنا مظاهرات مناهضة

لحكم زين العابدين ومبارك مدة خمسة عشر يومًا وانتهت بخلعهما؛ لكنها هنا انتهت بخلع أفراد عائلتي الواحد تلو الآخر. لم تتملك عائلتي فكرة الهجرة أو السفر كبقية السكان، ولا القدرة عليهما. ولم يكن متاحاً لفتاة من بيئتي لا قبل الحرب ولا بعدها أن تنتج كتابًا ورقيًا يسمع العالم فيه قصة حقيقية عن واقع بنات دمشق. جرت العادة في وسط المثقفين أن لا تُقرأ كلمات لفتاة لا يكون أبوها طبيبًا أو تاجرًا ولا أمها أديبة.

جئت المهنة بخسائر بشرية بالأصل. وبعدها أكملت عملي وأكملت معه باقي الخسارات التي أصابت روحي في مقتل دون أن ترفعها إلى السماء. اعتقلت أمي وأختي التي لم تتجاوز العامين ثلاثة أيام معًا. سيق بهما من المبنى الذي أحط فيه. ظلت أمي تكمل شهرها في السجن لعلهم يخمدون صوتي بسبب الحزن والحرج. أخبرني الخاطفون بأن الأم غالية وتستحق أن أفارق لأجلها عدستي وصوتي وأن أسلم نفسي. تأتيني تهديدات جدية من الفصيل الحاكم ويطوق مكان إقامتي بسيارتين تقفان خلسة في الحارة المقابلة حتى لا أشعر بوجودهما. في اللحظة ذاتها كان التلفاز يصدر صوت المذيع معلنًا خبر اختطاف والدتي وملاحقة مراسلة الجزيرة من كبرى الفصائل المسلحة في الغوطة الشرقية، واحتجازي في المدينة تحت الإقامة جبرية على ذمة التحقيق في الوقت المناسب.

من دقيقة إلى دقيقة كل شيء تغير، لم تعد حياتي بالوتيرة المعتادة التي قبلتُها رغمًا عني، ولم تكن الرؤيا التي شاهدتها ليلة أمس أضغاث أحلام، حين شاهدت بحرًا عميقًا يغمرني ويقطع أنفاسي ويشتّت شمل العائلة أكثر مما مضى. أنا وأمي نغرق معًا في اليقظة، ونتنفس الصعداء كما اللجّة التي كادت تغمر رأسينا حين هاج البحر في المنام. من لحظتها صرت أخشى الغفوة كي لا أستيقظ في الليل مذعورة من كابوس الحلم وأحداثه التي أراها تتحقق على أرض الواقع.

قبل أن تمر هذه الأيام وأكبر، اشترى لي أبي عوامات سباحة كي لا أتعبه أثناء

جولات البحر. أمي قالت إن الألفة مع الماء أثرى تجربة في الصغر. لكنّ نايلون العوم سيعيق قدرتي على الطواف في البحر، ويحرمني متعة الحركة كالأسماك. قالت إنها لا تريدني أن أغرق في أي مستنقع في الدنيا، وألا أسقط إلا واقفة. نسيت أمي أن تتعلّم وتعلمني كيف يطفو الجلد إذا كان يسبح في بركة نار.. حين لا تستجيب الماء لأمر خمودها.. أو حين تكون أمي وحدها في المعتقل.. أو حين أهرب بمفردي بين الطرقات المتردّمة.

٣

كنت أتبع الهراء وتسارعات الزمن، وغير متأهبة لمزيد من المفاجآت على دروب التغطية حين شغلت منصب مراسلة معتوهة لأكثر من وسيلة إعلامية. "المعتوهة" فعلاً هكذا ينادني بعضهم لأنني دخلت في مهنة لا أفقه من أمرها شيئا. كنت على عمى الحياة أحيا مثل أي شاب ناشئ اختار تصوير المظاهرات وقتلاها أسفل منزله في الحارة. ثم حول صيغتها وحمّلها فورًا على يوتيوب قبل أن تغادر قوات الأمن المكان، لكي يعطي رابط المقطع المسجل للقنوات المهتمة وغير المهتمة، ويفرح حين تعرض على التلفزيون. حتى لو كان قد مات قبل ذلك، فإنه سيموت بسرور عجيب.

انقضت مغامراتي خلال أول عامي الثورة بفواتير باهظة الكلفة.
لم أفكر بالانتحار طبعًا، حاولت ضمن المتاح أن أعيش. عرفت أن روحي صعبت حتى على القدر نفسه، وعلى النار التي أخرج إليها برجليْ. أيقنتُ وبصمتُ بالأصابع العشرة أن كل محاولات إحراقي فاشلة مسبقًا؛ فالنار تتحداني وترد مطالبي كلما وجهت الجسد والقول لها "يا نار كوني حرًا وموتًا عليّ لا على أحبابي".

أغلقت الباب على نفسي واخترت العزلة الهادئة مبيتًا نهائيًا مكتفية بكل ما مضى، لكنني وجدت نفسي في لحظة مباغتة أنقل صراخي من هتاف المظاهرات و"العراضات" إلى منبر عالمي شهير، لا يليق معه التركيز على صراخي أو

حرقـة قلبـي. ولا ينفـع فيـه العمـل الصبياني المنمط. اسـتخفافي بمـا آلت إليه الأمـور صار باديًا للجميع بعد انقضاء السـنوات الثلاثـة الأولى. راوَدني بعض الحمـاس الكامن لفكرة أن أتوظف في قناة الجزيرة في البداية. لكنني ظللت على المنـوال الأخـرق ذاته. ذاك كل ما تعلمت على عجل مـن الصبيان المتهورين ممن شـقوا طريـق الصحافة المرئية قبـلي، وهم يحملون أرواحهم عـلى راحاتهم كما سمعوا في النشيد.

بقيـت أخطـو خطاهم من باب الاعتيـاد ومتابعة الحياة رغـم القواعد المتبعة في الجزيـرة. أرى النـار، ألتقـط فعائلهـا، أصـور جثثًـا، أشـاهد طحـالًا مفتوحًا يدخـل وحده إلى المستشـفى، أحملق في يد يُخـاط مكانُ بترها ثم يذهب صاحبها مـع رفاقـه ليحضر دفن يده. أصبحت كل المشـاهد عادية مكررة. لا أسـتغرب، لا أتأثـر. أرفـع مقطع الفيديو على شـبكة الإنترنت طيلـة الليل ليعرض صبيحة اليوم التالي. أكتب مواجز إخبارية وأنام وجه الصبح سـاعتين. أفيق على صوت الغارة لأرسـل خبرًا جديدا مع غيمة يوم جديد.

تسـتغرب النار مني رغم انقضاء نشـاطي وحماسي بسـبب الندبات التي ركبت جسـدي وألحقتهـا بعائلتي. عنـادي ورفـضي يبارزانني ويبارزانهـا لا يزالان همـا.. همـا، أمـام أي عرقلـة لأي موضوع مـن مواضيع تقاريـري. سرعان ما تراني أسـتعيد لسـاني السليط مسـتميتةً دفاعًا عن قصصي وصوري.

قالت النار: كنتِ لحظتها أسفه قلب ينبض في العالم.

مكياج تحت النار

جاءتني أمي صبح السـادس عشر من أغسـطس تحت القصف لتوقظني وتتأكد بنفسـها أنني فقت للتصوير؛ كما لو أن القناة التي أعمل فيها وظفتها لتخاطر وتمـوت. تذيـع لي والدتـي نشرة المقتولين مـن بائعي الخـضرة والجيران "على الريـق". تحفظ أسـماءهم جميعًا مهمـا كان العدد كبيرًا، ودون أن تكتب شـيئا على الورق. تشير بكلتا يديها وتحكي قصص الضحايا دفعة واحدة. لا تفهِمني سيرة واحد من آخر.

أمـي امـرأة تزعجنـي وإن كانت تفيدني لحـد كبير. لكنها تحـشر أنفها في ما لا يروق لي وتهملني في أهم القضايا. لم أعد أفكر فيها منذ أن مات أخواها وابنها. فـكأن لا أحـد مات في الحرب سـوى أقاربها. لا أرضى منها سـماع قصة واحدة ممـا نعيشـه كل يـوم، فأنـا أركز في أشـياء لا تعنيهـا ولا أشـياؤها تعنيني -لا أريدهـا أن تعنينـي أصلًا-. هي بالنسـبة إليّ مجـرد امرأة عابرة، تسـتيقظ منذ الفجر وتضع رأسـها على الوسـادة باكرًا لكن لا تنام، وفجأة تختفي من المنزل ومـن كوكـب الأرض. يقال إنها تصعد أحيانًا فـوق براق إلى كوكب عطارد.

كالعـادة، لـم أسـتيقظ على صوتهـا ولا على صـوت ابنتهـا الرضيعـة -أختي- فهـي لا ترافقهـا إلا نـادرًا. تعتبرها جـاءت من بطن قطة في الشـارع، ولا مانع في أن تتبناهـا قطـة. اسـتيقظت على صـوت خبط قريب جدًا قربـي. هكذا أنا لا أتعلـم ولا أفهـم معنـى أن أفيـق من تلقاء نفسي باسـترخاء وهـدوء. اعتدت أن أقـوم على رُعب، كمن سـمع صوت البـوق يوم الحشر.

أنـا في قمـة القـرف؛ لا يرهقني انكسـار الزجاج المفزع وتشـظيه بـأرض الدار بقـدر مـا ترهقني رائحتي بعد النـوم. درجة الحرارة تقـارب الأربعين مئوية. الغرفـة التـي تمـددت فيها ليلة أمس بلا مروحة. تلفحها الشـمس من الوسـط منذ الثامنة صباحًا، فتغمس جسـدي كاملًا بالعرق وتسـيل ريقي على الوسادة.

مشـاعر الكـره والضجر تلفحنـي ككل الأيام، أكره كل شيء. أكـره حتى الذين ماتـوا اليوم والذين سـيموتون بعد قليل. أكره الذين لـم ينزحوا من أهل الحي لأنهم سـيقصفون ويضطروننني للاسـتيقاظ مكرهة للتصوير وقت الحر. أكره القصف لأنه سـيدفعني للخروج بهذه الحالة.

ارتديت فردة حذاء واحدة مرمية على السـجادة؛ قفزت بقدم واحدة إلى المغسـلة حتـى لا يدخـل زجاج الشـبابيك المنثور في القدم الأخرى، فتحت السـيد صنبور الميـاه لأمضمض فمـي. الماء في الخـزان انتهى البارحة، عقرب السـاعة الصغير يتجـه نحـو الثانية عشرة ظهـرًا. الوقت ضيـق في وقت القصف. مازال السـيد خرطـوم المـاء في الحمـام يختـزن بثنياتـه بعـض القطـرات. لويـتُ الخرطوم بيـدي، فسـمعت خرير قطرتـين سرعان ما لامسـت بهما وجهي. المـاء في البلد يُجلب من حفـر الأرض ويوزع علينا القليل منه.

إن صممـت عـلى مـلء خـزان المـاء في السـطح فعـلي تخصيص ثلاث سـاعات لأنـادي عمـال "الصهاريج" وثلاث سـاعات لانتظار قدومهم وسـاعتين لأسـند خرطـوم الميـاه من الأعلى للأسـفل بيـدي. عدلت عـن الفكرة؛ المـاء متكبر جدًا ويعتقد نفسـه شريـان الحياة. الماء غير ضروري ولن أعـيره أي اهتمام. الماء لا يسـاوي شـيئًا دون جسـدي. أتجاهله، ألبس بنطالي ومعطفي المليء بالشظايا. كنت قد غسـلته ووهبته للشـمس في وسط الدار. عندما أمسكت الكمّين من حبل الغسـيل ونفضته جيدًا بدأ الزجاج يتسـاقط على الأرض. لو تركته متسخًا لكان في وضع أحسن الآن.

لا مـزاج يروق لي حتى أحسـن وضعيـة ارتداء حجابي. قالـت الكائنة البلورية التي تظهر من زجاج التلفزيون والمواقع المعاكسـة الأخرى:
- هذه اللحظة لا يصح أبدًا أن تقرفي، الملايين سيرونك بعد قليل.
- لم أعد أكترث.
- ألا تشـعرين مـن خمس سـنين أنكِ معـي كائنة افتراضية.. غـير موجودة على

أرض الواقـع. لا أحد يراك؟
- بالفعل أنا أعمل وأظهر لأجل أن أرى نفسي.. أن أتأكد أنني موجودة فحسب.

ثنيـت الحجـاب قسـمين؛ وضعتـه هكـذا بلفـة وحيـدة مع شـكل "بـوزة" من الأمـام. عـادة أملّس الحجاب مـن الأعلى بشـكل دائري، لكن العملية تسـتغرق وقتًـا طويـلاً وبالا مرتاحًـا، لذا قمت بتثليثـه سريعًا؛ ووجدت في شـكل البوزة مخرجًـا لضيق الوقـت واضطراب مزاجي.

ارتديت فوق كل ذلك درعًا غليظًا بالكاد يحمله جسـدي النحيل من ثقل قماشـه وصفائح المعدن فيه. فككت لصاقتيه وخلعت الصفائح سرًا دون أن أخبر أحدًا، فالقنـاة التـي أعمل فيها لا تقبل تقريـرًا في منطقة خطر دون درع حماية كامل وخـوذة واقيـة. أرتديه شـكليًا لأننـي لا أرغب في الحياة مقابـل أن أحمي رأسي وصـدري فقـط. لماذا لا يخترعـون درعًا لحمايـة الأرجل والأيـدي؟ لا أريد أن أحيا مبتورة.

أفّ.. ليـس عـلى الطاولـة لقمة أشـغل بها فمـي؛ القداحة انتهـى قدحها. كيف سأشـعل فتائـل الزيـت في موقـدي الخـاص؟.. موقـدي عبارة عـن "قطرميز" صغـير راج في الأسـواق كبديـل عـن الغاز. وعـاء زجاجي قديم. يثقـب الغطاء من وسـطه وتوضع داخله فتائل مغموسـة بزيت سـيارات عتيق ليسرع عملية التشـعيل. واسـمه اصطلاحـا عندنـا "زيت التشـعيل". كنت أقـرب منه شرارة الولاعـة وأخـرج الفتائـل رويـداً رويـداً كلما ذابـت فتيلة ثنيت أخـرى حتى لا تنطفئ الشرارة.

ومثـل "قطرميـزي" بـلا ولاعـة كمثـل الحاسـوب بلا شـحن. لا بـأس، فقدت الأمـل مـن القهوة، سـأقضم قطعة من حلـوى داكنة صنعت محليًـا من عجوة الشـعير بلا سـكر. صعدت بسرعة البرق إلى مكتبي، لا سقف فوقه سوى سقف السـطح. عـادة لا أمكـث بـه وقتًـا طويـلاً وقـت ذروة القصـف. أخرجت من

الحقيبة بودرة حمراء اللون ظلت تعيش معي من قبل الأحداث، وهي الآن منتهية الصلاحية، لكنها جيدة وتخفي شحوب وجهي إلى حد ما. مسحت البودرة من العلبة بإصبعين وعجنتها عجنًا عليّ بالكامل. لم أكن أعرف أنها توضع بشكل مائل. ربتت ببطن يدي على مسار الحاجبين كي لا تبدو الشعيرات كل واحدة في جهة، وبخخت عطورًا قديمة لأبدو مقبولة.

حقيبة الكاميرا ومكبر الصوت والبطاريات فوق الدرع والخوذة، وضعتهم في اليد اليمنى. أسدلت الحامل الثلاثي المطوي على كتفي اليسرى. وازنتهما بجسدي ووضعتهما بطريقة معقولة تمكنني من السير بالأشياء وقتًا طويلًا. لن أرتدي الخوذة هنا، ستزيد ظهري اثقالًا. حملتها مثل الحقيبة. في العادة أضطر لننتع هذه الأوزان كلها دفعة واحدة؛ جزء على بطني وجزء آخر على ظهري وجنبي طول الطريق؛ المصور بالكاد يحمل باقي أدواتنا المنثورة..
لحظة! هناك صوت.
ركنت الحقائب على عجل، ودخلت ألبي نداء الطبيعة. كانت الطائرة لحظتها فوق السقف تمامًا كأنها فوقي بالضبط. ماذا لو أغارت هنا؟ سيظل أفضل من أن تهبط قريبًا من هنا! ضغط الغارة القريبة سيساقط الجدران والشبابيك الساترة حولي. حدث شيء مشابه من قبل؛ سقطت جدران المطبخ وظل السقف واقفًا، فتأمل الناس الخراب من الأسفل. مع اشتداد الصوت أمضي في التطورات. لا أريد أن أموت على هذه الحال؛ سيركضون ليلتقطوا صورتي الاستثنائية. أعرفهم هؤلاء مجانين ويفعلونها.. لا يفكرون، يصورون فقط.

تجيء قذائف "الفوزديكا" لتواسي وحدة الطائرة. ما أزال في مكتبي بالأعلى. الزجاج يتطاير من النافذة يتطاير على أرض الدار بشكل كثيف. تعطلت أشرطة الكهرباء الموصولة على مولد جاري. يبدو أن آخر غارة سقطت فوقه. يا الله من أين آتي بالكهرباء إن مات أو قصف المولد؟ هو أرخص كهربائي قريب، ماذا سأفعل؟

أحداث اليوم متلاحقة. جلست لأشعل زر البطارية التي تمد أجهزتي بالكهرباء. لاصقت أسلاك الحامي والبارد من خلال جهاز يدعى "الإنفرتر" أربط خلاله البطارية فيعطي شرارة خفيفة دليل أن حفنات الكهرباء أريد لها الحياة في المكتب.

أخطأت كثيرًا قبل أن أتعلم قانون البطاريات. وقبل أن أتعلم ألا أضع السلك الأحمر على إشارة الموجب والأسود على السالب فتنطلق الشرارة في وجهي وتشوط الأسلاك مع رائحة احتراق في الغرفة، فأعصب رأسي وأشعر أن جسدي هو الذي احترق وأستعد لتعطل عملي ثلاثة أيام متتالية. يومٌ حتى أنادي الكهربائي؛ يومان حتى يصلح الجهاز وأصلح أنا.

الشرارة الآن خافتة، والزر الأحمر يصدر صوتًا ينذر بانتهاء الطاقة في البطارية. يؤز الصوت في رأسي أكثر من أزيز صواريخ الجو. أتيح لي أخيرًا أن أتصل بالمصور خلال تفريغ موجة كهربائية خافتة. الشاب يقطن في منطقة المرج البعيدة عن مدينتنا؛ أخبره بضراوة القصف أكتب إليه:
- الموت بالمئات، المجازر في أكثر من ناحية، سنلتحق بالناحية الأكثر تعرضاً للقصف، أستعجلك ولا أملك الكهرباء لانتظار الرد. أسرع قبل أن يسعفوا الجرحى وينظفوا مكان الدماء والدمار.

سمعت طقطقة مفاتيح في الأسفل؛ جاء المصور لاهثًا قبل أن يقرأ الرسالة. لقد تعلم في معسكرنا قوانين تصوير المجازر، ويدرك أننا لحظة الإنقاذ إذا تخلفنا عن الركض وراء المسعفين ستخلو ساحات الدم من معالمها وتغدو خطرة بلا فائدة. وقتها يترتب علينا أن نلاحق الجرحى هرولة من مستشفى إلى آخر. كل ذلك من أجل أن أجد نقطة طبية مزدحمة بالجرحى تشبع عين مشاهدي الجالس بوقار.
فإذا ما تأخرنا فإن هذه التحضيرات كلها لن تغري ممرضًا لم يبلغ سن الرشد في أن يُدخلني.

إبر مشبوهة فوق البيوت

١

كان أبـي يسـكن في بيت عمتـي بمفرده. تراه دومًا يسـد منافذ شـبابيك البيت بلاصـق خشـية صفارة إنذار كيميائي ليليّة. أمـا بيتنا الذي قضينا فيه ذكريات الطفولـة وقـضى أبي عمره ناحتًا في الصخر ليشـتريه لنا فقـد رآه يتحطم أمام عينيـه. المطبـخ وغرفة الجلـوس دمرتهما قذيفـة هاون والنصـف الذي مازال صالحًـا مـن البيت مهـدد بالانقراض. يلتصـق جدار بيتنا بجامـع رئيسي دأبت الغـارات عـلى اسـتهدافه خصيصًـا، وطبعـا كانت تسـتهدفنا معـه. في البدء لم نغـادر بيتنـا فجميعنـا فاقد الإحسـاس والإدراك بالمـوت المحيط. لكـنّ والديّ كانـا يكرهان مشـاهدتنا أنا وأخواتي مجتمعات للأكل عـلى طاولة واحدة دون أن يشـتمّوا فيها ريح أخي نجل العائلة الوحيد. كانا ينقمان علينا لأنّ القدر لم يأخـذ واحدة منـا ويترك الصبـي حيًا. ودومـاً يخبراننا بذلك.

فجأة وجدنا أنفسنا نُجمِع على قرار هجران البيت بإيماءة. تركناه يتنسم الموت وحـده دونمـا اسـتئذان. حدثت الأشـياء أمام البيـت فجأة حتـى دون أن يرانا نجمـع حقائبنـا. أبقينا بعهدته كل شيء.. الأسرّة والأثـواب والصوَر التذكارية.

كنـتُ الأخت الكبرى في العائلة وهذا أسـوأ ما في الترتيـب. أختار بيوتًا مهجورة أقطنها وحدي حتى لو كانت مهدومة الأجزاء أو مراتع محتملة لغارات مسبقة. المهـمّ عنـدي أن أجـد مقـرّا إعلاميّا لا يزعجني فيـه أحـد أو شيء ويمكّنني من زرع إبـرة فضائية تنجب لي إشـارة للتواصل مع العالـم الخارجي دون عوازل مقابـل المبنـى تعيـق عـليّ ذبذبات البـث. ذاك أهم مـا أملك في الوجـود. لا شيء يهيـج إصراري عـلى نسـيان أعبـاء الموت سـواها. أتـدلّى لأجل هـذه الإبرة من أخطـر الطوابـق. أبحـث عن أعـلى القمم التـي لا تصطدم حيالها إشـارة الإبرة بشيء. تُحييني وتجول بي في مناكفات وسيَر مختلفة أعيشها مع العالم المهاجر.

جهـاز لاب تـوب، إنترنـت فضائـي، أشرطـة كهربـاء موصولـة إلى مولّـد. هذا كل شيء يلزمنـي لأفتتـح مقـرًا إعلاميًـا باهرًا، حتى لـو كان خاليًـا من الأثاث والمـاء والـدفء، أو كان كومة ركامية مقوّسـة على بعضها. فلن يقال تعسًـا له بـل أنعِم وأكرِم بجـود الإنترنت في هذا البيت البهي!

مقيـاس الغنـى والفقر في مقار البلد العسـكرية والإعلامية مقامـة على مقادير واضحـة، يكشـفها ضوء الحاسـوب بين من يملك ترف السـهر بنـور الأجهزة، فيحـول ليلتـه الظلمـاء إلى نهـار، وبين مـن يمتزج بيتـه مع ظلمة الليـل فينام مكرهًـا عند أول المغيب.

أتجنـب الجلـوس في أي مقر أكثر من أربعة أشـهر. هكـذا أتلاعب مع احتمالات القصـف. يشـتدّ بـيَ الأرق كلّمـا أطلت بمـكانٍ مـا ويصبح الليل سـكّرا بطيء الذوبـان. عـادة ما كنتُ أشرف على غبش الفجرٍ وأنا أشـاهد برامـج تلفزيونية مـن عالـم آخـر. غالبـاً ما تتشـاجر فيـه المطربـات وتتفلسـف في الخـواء لكي يضحكنني قليلا.

كنـتُ أعـدّ طبق سـلطة فواكـه "منـوّع" لأُختَيّ قبل اسـتيقاظهما عـلى أصوات غارة فراغية اتخذتها هزوًا قبل أن يتناثر زجاج الشـباك وتحلّ شـظاياه داخل الطبـق. هبط نصف المبنى من القصف، وظـل النصف الثاني من العمارة واقفًا في واحـدة مـن أعجب العجائـب التي أضفتهـا في جغرافيتي الخاصـة إلى قائمة عجائب الدنيا السـبع. تنسـكب الشـظايا والـركام من الجزء الثانـي للمبنى إلى حيث مكان تعايشـنا بعدما عرّت البيت من الشـبابيك والجدران. للجدران أيضا هيبتُهـا. انهـار أثقل جـدار في البيت دفعـة واحدة فوق قدمي أختي الوسـطى، بذريعـة أنهـا اعترضت طريق جـدار عالي المقام. لقـد اعتبر قـرارَ نومها المبكر في منتصـف الصالـة تحديًا مرفوعاً في وجهه. يتفتّـت الجدار يفتت عظم ركبتي أختـي ويمنعهـا من النهـوض. يتداعى له جـدارٌ آخر من عائلته ليشـفي مزيدا من غليل أخيه ويثأر من أختي من جديد، لأنها مازالت تجثو على الرقعة نفسها

لعجزٍ قرأته الجدران في لغة انهيارها، مواصلة للتحدي.

اضطرت أختي للزحف إلى الحمام باتجاهنا وفي تلافيف دماغها أن كلّ ما جرى كابوس ضمن المنام. وها هي الآن غارقة في حقائق اليقظة تزحف على عكازين وآمال صغار في الشفاء. دكّ الجدار عظامها، وقبل الرحيل تحقق أنها ستكمل العمر على حبوب الترامادول، معشوقاتها اللواتي تدخلن رسغها في سبات المنام. وحرمت أنا أكل الفواكه مخلوطة طيلة عمري كطبق ينذرني باقتراب خطر ما.

على الرغم من أنّ زجاج شباك سميك تهشم على رأسي ورأس أختي، فإننا اعتقدنا أننا سليمتان رغم حجم الضغط على أدمغتنا. لكن كل من رآنا بعد القصف أكد أننا مجنونتان. فكرنا بمنهج النجاة بأنفسنا، طرنا باتجاه مكان قضاء الحاجة. جرة الغاز المقيمة في المطبخ كأنما لها جناحان سبقتنا إلى هناك؛ وهناك ذاكرنا الآية الكريمة. يوم يفر المرء من أَخِيه * وأمه وأَبِيْه.. أين الأخت الثالثة؟ صغنا السؤال حين زحفت أختي الوسطى أخيرا نحونا. تذكرت قول جدتي المخترع من عقل أبيها الحكيم كدرس في الأخوة يوصي به الأبناء والبنات: حين تتألم يا ابني تصرخ "آخ" و"الآخ" تعني أخ. وأنت أول ما تنادي أخاك حين تتألم؛ فلا ترد نداه حين تسمعه.

كنت الكبرى وأختاي اللتان تصغرانني سناً اختارتا البقاء معي قبل الحادثة كمساعِدتين مكرهتين على جنون عملي الإعلامي. أسى وضيق وكآبة تأكلان حياتهما أكلًا. تريان في الجلوس معي تحت ذبذبات "الأسترا" -الجهاز الفضائي الذي ترصده الطائرات النظامية- خيارًا أفضل من المكوث بجوار أم أو أب لا يظهران الرغبة في رؤيتهما أو الفرح بنجاتهما.

رميت أختي في أقرب شاحنة ركنتها عند باب المستشفى. نقف ضمن طابور طويل من الدم لا يسمح لنا بتجاوز أي خطوة فيه مهما بلغت آلام الجريح

المرافق. لم يجد الطبيب أي أهمية لإدخالنا. إن جرحًا يسيل من قدم مكتملة لا معنى له أمام منظر انصهار الرؤوس والبنكرياس المتطاير.
في القاعدة الطبية المعاصرة: هذه نزوف ليست خطرة إلى حد الموت، ولا يفضي تأخير علاجها لأكثر من بتر القدم؛ لا سيما أن قدمًا شبه مبتورة كانت تنتظر الطابور خلفنا، نجح منظرها في إدخالها إلى إحدى غرف المستشفى بعد أكثر من ثلاثين دقيقة.

في أثناء العودة أخبرنا السكان بوجود قبو قريب إن أحببنا النجاة، وإذا أحببنا أن نموت فلنا الحرية المطلقة بمشاهدة طلعة طائرة أخرى. فجأة وقفت أثرثر كلمات بين العامية والفصحى أمام عدسة ما قد وجهت نحوي بصفتي واحدة من ناجيات المبنى. وكان انفعالي يدل على أنني ناجية فعلية مما عدا الجنون. لماذا تحدثت بتعصب للكاميرات العابرة؟ ينبغي أن أصور الناجين بنفسي لا أن أتصور على أني مجرد ناجية. ثم إني لا أجيد التعامل الأنيق أمام الكاميرا. رددت كلامًا عبثيًا ومشيت دون التفكير بأي أمر آخر سوى تفريغ هلعي على شكل صور.

سرت أتفقد الإبرة التي تمد جهازي بالإنترنت تحت أنقاض المبنى. لم أجدها مرمية بين الأشياء المتناثرة، ولا أتوقع أن تفتتها طائرات الجو فهي ليست إبرة عادية، مدورة متينة من الخلف، مدعومة بقطعة عمودية من الأمام تثبت فوق طبق لجذب الأقمار الصناعية. وضبت حواسيبنا والأدوات المهمة خشية أن يسرقها العابثون. نزلت بأشيائي للقبو وبقيت أتفقد الإبرة من حين لآخر في الشارع؛ هذه مصيبة أخرى. لا يعمل الإنترنت الفضائي دونها، فإن قررت السكن في مبنى آخر سيكلفني ذلك الكثير. أعود لأفتش أمام ركام المبنى، وأسأل العجوز الذي وظف نفسه مختارًا على الحي. تباكيت وشكيت له كم أنا بحاجتها وأنها الفيصل بين سعادتي وشقائي، حتى قال أخيرًا عودي إليّ بعد أسبوع سوف أفعل كل ما في جهدي للبحث عنها. أعاد العجوز إليّ إبرتي بعدما تأكد أنها لا تسمنه ولا تغنيه من جوع، ولا تنفعه بشيء وإن عرضها

للبيع لن يشتريها أحد سواي فأنا أمتلك أسوأ جهاز بث في البلد.
انقضى اليوم بعشر غارات وخمسة عشر شهيدًا من أبناء المدينة.
أختي الوسطى ظلت تدفع الثمن من غضاريف قدميها حتى هذه النقطة.

٢

غادرت أختاي البلد تاركتين فراغًا كبيرًا في حياتي وجروحًا غائرة. غادرت من كانتا تشاركانني جنون الوالدين في النهار، والبكاء على أخي في الليل، والسخرية على كل صبيان البلد. رحلت من كانتا تذهبان معي في رحلات هانئة إلى القبور.. كنا نتجهز لها بالفناجين والقهوة كمن يذهب إلى رحلة استجمام آسر.

ذهبتا بحثًا عن حياة طبيعية آمنة لهما الحق فيها إن وجدتاها. هما تريان أنني اخترت مصيري وموتي المحتم بيدي، وأنا حرة في اختياري، ويحق لهما اختيار مستقبل بعيدًا عني وعن الأهل بعد ما حل من انتكاسات في العائلة. إلا أن غياب أختي الصغرى قد أفادني للغاية، إذ تركت لي حاسوبها الشخصي خشية أن يفتشها الجنود عند حاجز المخيم الفاصل بين مناطق النظام والمعارضة. حدث هذا قبل أن تغلق قوات النظام معابرها إلينا بالكامل، وتصدر قرارًا مباغتًا بمنع دخول الناس والطعام والدواء.
يا للحظ! حاسوب أختي وحاسوبي من النوع نفسه، ما أجود مفعولهما حين أربط أسلاكهما بالشحن، فالمولّد يأتيني بمقدار خمس وثمانين دقيقة كهرباء في اليوم بـ"فيوز" سعته ٢ أمبير، وهو قطعة يركبها الكهربائي لتدفّق التيار إلى بيت بعينه، وينقطع التيار عن البيت عندما تتلامس الأسلاك المتناقضة مشيرة أن الطاقة المستهلكة في منزلي قد تجاوزت أكثر من المتاح لي. أشحن بهذين الأمبيرين المتاحَين حاسوبين اثنَين وأربع بطاريات للكاميرا ثم أخلع البطارية من حاسوب أختي عند نفاد بطاريتي. وأستخدمها بحرص وتقتير كبيرين.

في تلك الأيام أيضًا غادرني كثير من الأصدقاء المخلصين ممن كانوا يحملون عني من الأعباء ما يكفي قبل حصار الغوطة ومجزرة السلاح الكيميائي. بقيت أنتقل من بيت إلى آخر. يقصَف البيت وأغادره وأظل حية. أعيش في غيره فيقصف وأستأنف البحث عن مأوى آخر.

لكن آخر مكتب موحش سكنته بمفردي دفعني لأغنج نفسي وأن أظهر أخيرًا بمقام مراسلة معتبرة فأسرق من بيت ابنة خالة أمي مكتبًا ذا خشب مغر وكرسيًا يدور بكل الاتجاهات كاد يدور معه عقلي. كيف لا وقد اشترته مع أثاث غرفة نومها المصنوع من خشب الزان بثمن باهظ أثناء تجهيزات العرس. ليس بالأمر الصعب طبعًا أن تسرق هنا شيئًا لا تملك مفتاحه؛ كل البيوت تسكنها الأشباح، والأبواب الثقيلة لم تعد مثلما كانت. ركلة واحدة يصبح البيت وأشباحه ملكك.
كنت وأنا أحمله مستعدة لمواجهة الأمنيين. لو سألوني من أنت.
سأقول إنني قريبة صاحبة البيت. أحفظه عن ظهر قلب، فأنا أولى بالاستحواذ على ممتلكات قريبتي من أيّ غريب. أحمل المكتب وأمضي.

لست الوحيدة التي تجلس على هذا المكتب الرفيع. تكسر وحدتي فئران وفيرة أصفّق لها من فوق الخشب لأختبر الصوت قبل مشاركتي التلفزية. فتخرج لي الفئران طائعة من كل شق عميق. أراقب غدوّها ورواحها في خفّتها فأحسّ كأنها عششت أوكارها في بيتي لتكسر هيبتي ووقاري أمام مكتبي المهيب من خشب الزان. تأكل القوارض من أثوابي وأوراقي. تبرز لي رأسها فجأة وتلامس بذنبها قدمي. تلف الواحدة منها البيت بأذنيها العطنتين من تحت الأريكة. تعيش حياتها ما بين تنجيد فرشي ومقاعد الجلوس من تحتي. لكنني أسعى دومًا لإقناع نفسي بأن الحركة أسفل مقعدي قادمة من ضغط الهواء.

مرت الأيام وازدادت الفأرات تماديًا بسبب عدم تأديبي وتجاهلي الدائم لها. لقد تراخيت معها وقتًا طويلاً، ولم أضع لها ولأخواتها حدًا، فلو رأت

بجانبـي حذاء يصفعها لمـا أقبلت على التبرز أمامي بهـذه الوقاحة اللا متوقعة. بـل صـارت تتبخـتر في ضـوء النهـار وترنـح في وجهـي ذنبها ببـطء دون أي مخـاوف كأننـي صديقتها في الخدمة العسـكرية. لا ينقـص إلا أن تقول لي قبل النـوم تصبحين على خير، ويزعجها تأخري في الرد. لعلّها فهمت أن الإنسـان في زمـن الحـرب ينقلـب إلى فأر يبحث عن جحر، ولكن أنا لسـتُ كذلـك وعليها أن تفهم عاجـلاً أم آجلاً.

تجرأت أخيـرًا وقررت هجران أسلوب الدلال إلى أسلوب الترهيب. صوبت نحوها أثقـل حذاء عندي عن بعد، لكن الفأرة تشـبهني إلى حد كبير رغم صغر حجمها وعـدم إيـلاء النـاس لهـا أهمية؛ لا تستسـلم، ولا يقـوى أي خبـط في الكون أن يوقـف جنونهـا وركضهـا نحـو المجهول، خصوصـا أن الأم التـي خلفت أفلاذ أكبادها القوارض قد ولدت في بيتي منذ زمن واتخذته مسكنًا دافئًا قبل أن أقوم أنـا باحتلاله. لو أتينا بالمقاييس التي تتخذها المؤسسـات الإعلامية في التوظيف لكانت الفئران أجدر مني في أن تكون مراسِلة من باب الخبرة والشجاعة والقِدم.

لكننـي لـن أقبـل بهـذه الأحكام، ولـن أستسـلم أبدًا مع هـؤلاء الوغـدات. مرة أضـع لهـن الكرتون اللاصق وعليـه قطعة جبن، مرة أخدعهن بالسـم الأبيض، مـرة أشـتري لاقطة فئـران من حديد؛ ولا فائـدة، فبيتي مسـكون بالفئران منذ سـنين وأم فأراتي صاحبة دين وتقوى؛ قد حفظتهن منذ الولادة كتاب الفئران المقـدس، وشرحـت لهن كل الآيات التـي تفصّل ألاعيب البـشر البالية تفصيلاً.

ألفـت نهيزهـنّ قسرًا، واسـتطاع إيمانهنّ القوي بكتابهنّ المقـدس أن يحفظهنّ منـي؛ وعرفـت الفـأرات أن كلام الأم كان صدقًا مصدوقًا. وأنّـه بالجد وبالنية الطيبـة تحيـا الفئران. لا خيـار عندي إذًا إلا القبول بهـنّ صديقات ليل. فالبيت هـذا يهبني إشـارة سريعة تحيي مواقـع الإنترنت وتيـارًا كهربائيًا يصعب نقل أشرطته من حين إلى حين. ورغم كرهي وقزازة شـعر جسـمي من رؤية مشهد الفـأرة، كنـت أقنـع نفسي بأننـي إذا نمت على كنبـة مرتفعة لن تصعـد إليّ ولن

تـدق أوبـار جلدها بجلدي، وأن الرب سـيحفظني منها أيضًـا لأن نيتي تجاهها صافية.

وجاء يوم الفزع الكبير!
دخلتُ المنزل مرة ورأيت جرذًا كبيرًا مستلقيًا على الوثيرة اللصيقة بمكتبي.
لاا!..
لا بـد أن وقـت المـزاح قـد انتهـى، ركضـت بسرعـة وصرخت بعنـف في وجهه وهـو يحملـق في عينـي، وعلى الثبات نفسـه يحك قدمـه، فهرعـت وأقفلت باب الغرفـة. جيـد أننـي شـغلت الإنترنت قبـل فزعـي. تواصلت عبر سـكايب كمن تطلب مؤازرة لصد دخول الجيش. يرسـل أحد أفراد المقار العسـكرية القريبة منـي كتيبة من العسـكر تؤازرني ضد الجرذ لكنهـم لم يطلقوا عليه الرصاص، لأنـه أدنى مـن أن يدفع فيه ثمـن رصاصة.
مات الجرذ تحت التعذيب بالأحذية والعصا.
سـمعت صراخـه كل فئران منزلي فانتفضـت أمهن قائلة: أرأيتـم ماذا فعلت به نيّتـه الزنخة؟ لقد جنى الجرذ على نفسـه.

أسـمعني شـبان الكتيبـة التي جـاءت لتدفع خطـر الجرذ عني كلامًـا كثيرًا عن علاقـة الجرذان بنظافة المنـزل، وتفادي ترك النفايات وبقايـا الحبوب المعفنة، وهـي المتروكـة منـذ خمـس سـنين، وأنا لا حيـاة لمن تنـادي. أقـول في الغد إذا ازداد الجـوع ستستسـيغون لحم الجرذ وتقيمون له "سـناكات" صباح مسـاء مـع قليـل من الملح، لذا لن أتلف ديـدان البرغل العفنة ولن أنظف أعمدة الغرفة. سـيكون عفـن ديـدان الأرز أشـهى من أي جـرذ. تسرني رؤية القـذارة حولي؛ أشـعر بالارتيـاح. وأدرك أن بيتي فيـه حياة ويملأ عليّ وحشـتي طيلة العامين الذين عشـتهما في البيت وحيدة، نشـوى باللا مبـالاة والظلمة.

المنزل الذي عشـت فيه ذكريات مريرة لا أحن إليها. لكنني أعرف أنه لا يتسـع لمقـاس ذكريـات امـرأة ثانية، وليـس قويًا بما يكفـي ليواجه خطايـا مجموعة

عسـكرية تسكنه من بعدي إذا ما رحلت. فكثيرون قد صوبوا أعينهم نحو بيتي أمـلاً في إخراجـي واسـتحواذهم عليه منذ أول سـكني له، ذلك لقدرات سـطحه الفائقة في اقتناص إشـارات بث من أعالي الجبال. البيت الذي تلقيت فيه تهديدًا كتابيًا في الأيام الأخيرة قبل أن تصادر أشـيائي وجواز السفر، وقبل أن أتعايش مع سـيل مشكلات خُطِط فيها لأذيتي.

خرجـت وفي قلبـي لوعـة للمـضي بعيـدًا عـن رفيقاتـي الوحيدات مـن فصيلة الثدييـات اللواتـي يعرفـن أسراري ولا يفضحنهـا. بناتـي الوحيـدات اللاتي لا يستسـلمن لفكـرة الأنوثـة ولا يرهنّ تصرفاتهـن بالفوارق بين الذكـر والأنثى والتفوّه بأحاديث النسـوان. متفهمات أن دواعي التغيير قد شـملت كل الكائنات الحيـة بما فيها الجـرذان والفئران.

٣

قـررتُ أخـيرًا وأنا في قمة الحسرة نقل جميع أجهزة مكتبي إلى شـقة فوق مبنى يسـكنه أبـي. لم يكـن أبي راغبًـا في ذلك وما كنـتُ براغبة. يمسي أبـي في لعبة شـطرنج و"جواكـر" مـع رفاقـه الكثيرين ليؤنسـوا ليلـه الطويل. يفتـحُ باب المبنـى ليأتي السـاهرون. ويفتحـه ثانيةً ليرحل العائـدون في ظروف غير آمنة. لـم أكـن أرغـبُ في العيش عـلى ظفر الشـيطان كمـا يُقـال عندنا، فأنـا أتوخى أعلى أسـباب الحذر من الوجوه الغريبة التي تشـعرني بعدم الثقة رغم اعتراف أصحابهـا بأن المعطيات التي تدفعهم لمراقبتـي دون الجرم المطلوب.

هكـذا أجـبِرت على نقل المعـدات الثقيلة بعد أيّـام قضيتها في فـك قِطع الإنترنت والكهربائيـات المتناثـرة بـين السـطح والبيت والشرفـة، وأجبِرت عـلى القبول بالسـكن في المبنى حيث يسـكن أبي، بعد أن أحجمت مبان أخرى عن اسـتقبالي.

عـلى ضـوء القمـر فقط ننقـل المعدات قطعـة قطعـةً.. مولّـداً مولـداً.. شريطا شريطًـا. يتذمّر الشـابّان ممـن يظهرون التعاطـف معي في أثناء مسـاعدتي في

نقـل المعـدات أو في التقاط الصور والقصص الغريبة في الشـارع، ويقفز صوت أنفاسـهم أثنـاء النقـل حتـى تصبح شـبيهة بشـتيمة يطلقونها في أذنـي، فهما يعمـلان معي بمبلغ مـالي زهيد. نتابع نقل المعدات بهدوء تام حتى لا يرانا أحد مـن أهـل الحـارة أو يلمحنا أحد من النوافـذ. أنهينا الأمـر سرًا، وكل ما يُعرف عـن دواعي نقلتـي المباغتة أنني سـأركن معداتي في بيت أبي ريثمـا أجد مكتبًا جديـدًا، ولـم يكن لدى الشـابّين علم بسرّ الشـقة في الأعلى. اختفيـت بعدها من البلـد مخافةَ تعرضي لعرقـلات محمومة.
بعـد نصف شـهر مـن خيبة الأمـل أجبِر أبـي مكرهاً عـلى تقبل إشـارة إنترنت فضائيـة ومكتـب إرسـال إعلامـي فوقَ رأسـه بعد رفضـه القاطـع في البداية. وأصبـحَ يربـط الغارات التـي لا يمكن حصرها بذبذبة أجهزتـي. تلوح الطائرة فيومـئ إليّ أبـي بإطفـاء الإنترنـت، ويفـسر كل نهـج وضعـه النظـام للقصف بسـبب اسـتهداف مقري ووجودي الجرثومي الضار بأهل الحـي. فأقدار البلد متعلقـة عنـده بالإشـارة التي تصدرهـا الإبرة آمـرة جهاز "الهيـوز" الفضائي باشـتعال المواقع الإلكترونية تباعًا.

يقـول صـوت مـدرك في أعماقـي إنّ والدي محقٌّ بعـض الشيء. لكـنّ أبي كان يراقبنـيّ حـين أذهـب في جولاتي التصويريـة وقت العصر ليجلـب أصدقاءه إلى المكتـب حتـى يتحدثوا إلى الإنترنت الجميل حين تغيـب الطائرة. فمثل هذه الإبر لا تتوفر في غير المكاتب الإعلامية أو العسـكرية.

أي شيء أفضل من أن ينشغل الكبار بهذه الذبذبات الحية بدلًا من الموت المقيت؛ كل واحد منهم يغني على ليلاه. عدت مرة من عملي، جلسـت أتفقد الحاسـوب. وعندمـا فتحت حسـابي الشـخصي ظهـرت لي صفحة باسـم "Abu abdo". اممم.. لا شـكّ في أن "عبدو" قد نسي أن يغلق حسـابه قبل أن تنكشـف خفاياه أمامـي. قـرأت آخر الرسـائل المسـجلة. ويبـدو أن "عبـدو" قد شـتّ في حديثه عـن المألـوف. كان قد راسـل مذيعة شـقراء تعمل في قناة معارضـة. كتب لها: "كيـف حالـك؟ أوصيك بنا خيرًا حين تذيعين أخبـار منطقتنا لأنها تموت جوعًا

وقصفًا".
عـلى فكرة يا أيتها السـيدة؛ أنتِ تنتمين للكنية ذاتها التـي أنتمي إليها أنا أيضًا، فأنـا كذلـك مـن عائلة فلان؛ لا شـك أنكِ ابنة عمـي، وبهذه الصدفـة الجميلة يا سيدتي ما رأيك أن نضع خبزاتكم على جبناتي إكمالًا لهذه القرابة؟!
"لابقلك الأشقر بنت العم.. أودعناكِ يا أصيلة".

كان الحسـاب الذي راسـله أبو عبده في السر حسـابًا مزيفًا باسـم المذيعة أنشأه شـخص آخر باسـمها، لكن الرجل إلى اليوم يعتقد أنها قرأت رسـالته ومازالت تفكـر في عرضـه. نظـرت إلى باقـي المواقـع التي تمـت زيارتها على حواسـيبي المتوافـرة. كانـت إحدى المسلسـلات التركية سـببًا لانتهاء باقتـي المخصصة هذا اليوم. قام الرجال بتحميل ما يستطيعون من الحلقات قبل أن تنفد ذبذبات جهازي على أجهزتهم، حتى يضمنوا أنها سـتؤنس أكبر قدر ممكن مـن لياليهم المظلمة.

٤

فتـح "أبـو خالـد" أوّل دكان لتركيـب "دِشّـات" في الشـارع قبـل خمس عشرة سـنة، وراح يعلّم المهنة لأجيال جديدة بعد أن أتقنها وحفظ تفاصيلها عن ظهر قلـب. ظـل المحل الصغير متكئًـا على درجتـين باليتين رغم أن المحـال المختصة بتركيـب الصحـون اللاقطـة قد تحولـت إلى صالات عـرض كبيرة أنيقـة، بينما كانت واجهة محله الزجاجية تتموضع فيه الأجهزة محشورة دونما ترتيب. إلاّ أنّ المحل الصغير القائم على شـارع مكتظ اشـتهر بالخـبرة الأصيلة لا بالترويج للألوان.

نجح الشـاب زاهر في اختبار سريع أقامه أبو خالد في الحي لخمسـة شبّان حتى يختـار واحـدًا منهم ليقيم معه في محله الصغـير، فيعلمه أصول الحرفة ويكون لـه عونًـا في حضـوره وغيابه. ورث زاهر المهنة عن أبو خالد بسـنّ مبكرة وهو مـا يزال في الخامسـة عشرة. كان ذكيًا بما يكفي ليصبـح فنانًا بتركيب صحون الأقمـار الصناعيـة بوقـت قصـير. تبنّـى أبو خالـد الشـابَّ لإمكانياتـه الوفيرة

وصارا يأكلان على طاولة واحدة ويشربان الشـاي والسـجائر في البيت والمقهى والدكان.

تتغـير مفاصـل الحياة في البلاد وتتغير واجهات المحـلات والأصوات التي كانت تطالـب بتركيب الصحون العادية أصبحت تدعـو إلى تركيب الأجهزة الفضائية. يـترك أبـو خالد صنعته الرئيسـية ومـا تدرّ عليه مـن أرباح ونعيم ويسـتخدم خبرتـه الطويلـة في تركيب الإبر الفضائيـة فوق صحون الأقمار لتبث إشـارات معاكسـة للسـلطة. إبَـرٌ لا تسـتطيع مخابرات النظـام أن ترصدهـا؛ فأبو خالد رجـلٌ ذو حميـة وعـزم ولديـه الآن احتفـاءٌ خـاص بموهبتـه في إيصال صوت المعارضـين إلى القنـوات الفضائيـة. ورث زاهـر مهنـة معلمه الحديثـة ميراثًا، وانضـم هـو الآخر إلى صفـوف المعارضين.

ثم فارق أبو خالد مهنة الفضائيات بعد سـنتين على بداية الثورة، ونسـفها من قاموس حياته نسـفًا ما أن رأى الآمال التي نذر نفسـه من أجلها مجرد حطام. انـبرى يعمل موظفا عند كتيبة للإشـارات الصوتية يعيّـر الموجات اللاسـلكية بينهـم وبـين النظام، ويـداوم في المكتب كأي موظف عـادي دون أدنى رغبة أو هدف سـوى كيس برغل يُطعم منه أولاده الثلاثة. زرته مرّة في أزمة الحصار. كان قد أوقف كيس البرغل عموديًا خلف الباب يسـترق النظر إليه من لحظة إلى أخـرى قائلًا: "يكفينا شـهرين كاملين إذا ما مرضـت أو توقفت عن العمل. كل شيء سـيكون عـلى ما يرام مادام هذا الكيس موجـودًا". أصبح أبو خالد مقتنعا بـكل جوارحـه أنّ عهـد الثورة والصـدق قد ولّى وجـاء عهد اللصـوص، ولكلّ زمـان رجاله.
أمـا الشـاب زاهـر، وبعـد انقضـاء خمسـة أعـوام عـلى مزاولتـه مهنـة تقويم الأجهـزة الفضائيـة، فقـد وجد نفسـه مـن خبراء هـذا الزمان الـذي تنحى فيه الخـبراء جانبًـا. ولعـلّ اليـد اليمنى التـي يمتلكها زاهـر من أمهر الأيـدي التي تصـوغ للإشـارة موجتهـا الصحيحـة. أطلـق عليـه لقـب "المعلـم" ليجـد بها مخرجًـا قويًـا من غلاء الأسـعار السـائد في حقبة الحصار. أصبـح زاهر الأعلى

أجرًا بين مهندسي أهم أعمدة المقار العسكرية والإعلامية، لأنّ أعظم مبنى فيها يبدأ من إبرته.

جاءني زاهر إلى الشقة سرًا، لكنني استطعت أن أفهمه أنّني في خطر كبير يقتضي أن يلتزم حدود الصمت عن كل ما يعرفه عني. لم أفوّت فرصة تذكيره بأنّي أعرفه منذ أولى أيام التحاقه بهذه المهنة ـ أي قبل أن يصبح "معلمًا". التقيته آنذاك في أحد مقار المعارضة السرية حين كان يصعد للتأكد من عمل الإبرة لأقدم جهاز كان بمتناول أيدينا يدعى (orbit). لقد صار اليوم أثريًا، ولّى عهده بعدما انتشرت ثقافة "الهيوزات" للأجهزة السريعة.

يتفهّم زاهر بعض الشيء إشكالية وضعي، ويسعى لكي يحول دون تردّد البوح بين لسانه وقلبه الذي لا يحفظ سرًا. لا يوجد مقر أو مبنى معارض في غوطة دمشق كلها إلا ويعرف به زاهر، ويعرف ماذا يأكل أهله وماذا يشربون، فهو الذي يفك منها الإبر ويزرعها فوق رؤوسهم.

حملتُ بطارية ثقيلة مشحونة بالكهرباء إلى السطح ليربط بها زاهر القطعة المسؤولة عن توجيه الإبرة شرقًا لتعطي المنحى الصحيح. صحيح أن زاهر قد شوي تحت شعاع الشمس ليعيّر الموجات، إلا أن الطائرة التي تحلق فوق رأسه منذ أكثر من ساعة تنذره بالموت المحتم، فهو الأكثر قربًا إلى السماء منّي. هذا الأمر طبعا يتطلع إليه زاهر بعمق كبير، فيحمّلني منّة المخاطرة بحياته لبثّ الحياة في أجهزتي، ويرى أن جهده هذا اليوم سيُقدّر غداً بثمن أغلى.

وجّه الإبرة جيدًا لمكان لا يصطدم بالمباني ومدّ "الكابلين" من السطح إلى أسفل مكتبي.
تلقى خمسة عشر ألف ليرة وباس النقود وجهًا وقفا لأنّها نعمة من كريم. كان من المفترض أن يطاول عمله هذه الساعة أكثر من مئة دولار نظرًا ليديه المصنوعتين من ذهب الخبرة. مع كل ذلك اعتبر أني من عظام الرقبة كما يقال

عندنا، وينبغي النظر في وضعي بشيء من الخصوصيّة.
علاقتي مع زاهر كانت أكبر بكثير من فك وتركيب الإبرة. ربطتني به حكايةٌ عجيبة غريبة اسمها "نداء".

يقطن زاهر بناء خطرًا ترصده الغارات. يخلد فيه عند غروب الشمس حينما أكون قد عدت من رصد الشوارع وجلست أمام حاسوبي. تنقطع عني الإشارة فجأة فلا ملجأ إلا إليك يا زاهر. تراني أقف عند باب بنايته كشحاذة أنيقة أول الليل لما تشلّ العتمة حركة الحياة؛ أصطحب أخواتي لأهمية مرافقتهنّ في الليل. الكهرباء مقطوعة فلا تسمع "هابوب ولا دابوب". نجلس القرفصاء في أسفل المبنى المغلق بباب من حديد. الأجراس محرومة هي الأخرى من شريان الكهرباء. نصرخ بأعلى حبل صوتي لدينا بوقت واحد. نضمّ بطون الأكفّ حول شفاهنا "زاهيييييييير". لا أحد يرد. نعيد النداء مرة أخرى أنا وأختاي بصوت أقوى "زاهيييييييااااااااااااار". يقول الصوت المرتد من أصواتنا إن الصوت وصل إلى السماء السابعة، ولكنّه لم يصل إلى زاهر بعد. تشوش علينا الصواريخ صراخنا وتحيل قدرات حبالنا الصوتية إلى مجرّد صدى. نواصل المحاولة من صرخة إلى صرخة هكذا حتى يطلّ علينا المارد زاهر من قمقمه ليلبّي مطالبنا. يفتح النافذة فلا يرانا. نحن أصغر من أصغر قذيفة. العتمة جعلت أشكالنا تتلون بلون الرماد. نتدارك المارد "زاهر.. هيه" تطلق أختي صفارة غير معهودة منها إنها صفارة اخترعتها عند الحاجة. صحت: "انتبه نحن من يناديك إشارة الإنترنت متوقفة منذ ليلة أمس، حاولت إصلاحها وفشلت في ذلك ساعدني أرجوك.. كل أشغالي معطلة". ثم يأتي زاهر بيده الذهبية إلى أعلى السطح ويعيد لي سحر الإنترنت الجميل.
لكن الدنيا خلال هاتين السنتين تغيرت وحالت دون بوحي بأصوات النداء جهارًا لزاهر. عاد الظنّ بأن أكمل الأصوات قوامة هي التي لا تصدر صوتًا، وغدا تعريف الخنوع صمتًا وعبادة. قيل إن الأصوات المعارضة ما كانت في شرع الله إلا من أصوات الحمير.

اتخـذت تدابـيري الأمنية رغم اسـتهتاري فالحرف الصادر من جوفي محسـوبٌ والنفـس مرصـودٌ. لا أريـد أن يشـاع الأمـر في البلد بمـا أملك مـن مجوهرات الإنترنـت، إبَرهـا وإبريزهـا وشـاحنها. ولا يجب أن يعرف أحد بمـكان إقامتي الحـالي، فأنا في غنى عن مزيد من الشـوشرة والثرثرة. هواجس تلازمني طَوال الليـل وتقفـز بـي للمغامرة والصعود إلى سـطح المنزل المكشـوف المظلم. أفتح مصبـاح الهاتـف الخلوي بأنفـاس متقطعة وأجتاز الدرج لأدخـل الظلمة حتى أتأكد أن الإبرة ما تزال موجودة حية على السـطح الأعلى. لم تُسرق ولم تختفِ. أغامـر بنفسي لأطمئن عليهـا رغم خوفي وتوقعي بأن أصادف رجلًا ما بالعتمة.

تصميـم المبنـى الذي نسـكنه غريب بعض الـشيء، فهو عبارة عن شـقتين فوق بعضهمـا، وسـطح مفتوح شـيد لاستنشـاق الهواء وصـار قبلة لاستنشـاق ما تنفثه الشـظايا. أسـكن في أخطر حجرة. شـقتي سـقفها هو السـطح المرصود في الأعلى بإبرة، تصب فوقه احتمالات الخطر. لا سـيما أنه مفتوح على سـطوح باقـي الجـيران، وتجعـل سرقـة إبرتي أمـرًا هيناً ليّنًـا. فاللص سـيقفز إليّ من سـطح مجاور، وسـيختفي بين حنايا مسـاحته الكبيرة. يشـعرني هذا السطح بأنه بيت آخر لي لا أسـمع فيه إلا هبوب الريح والأصوات المبهمة الهامسـة.

كانت الشـقة مصمّمة على شـكل مكتب مفتوح بشـبابيك كثيرة تلف الشقة لفًا. تلطشـها حرارة الشـمس من كل جانب أكثر من أي شـقة أخرى في المدينة؛ كلّما أعـددتُ نفـسي لبث مباشر على الشاشـة يتصبب وجهي لمعانًا وحرقة من سـيل العرق الغزير. كما أن بَهْوَ هذا المبنى مكشـوف من الأعلى بمعنى أنني أسـتطيع رؤية كل ما يحدث أسـفل الشـقة السـفلية من شـباكي. وهذا ما يجعل الشـقق هشـة ومسرحًا للشظايا وزجاج الغارات.

ترانـي أغلـب الوقت مصابة بصداع ودوار سـببه لي الركض المفاجئ على الدرج صعـوداً ونزولا. يشـتد القصف وقـت الظهيرة فأطفئ إشـارة الإنترنت. أحمل حاسـوبي وأركض للشـقة السفلى. يهدأ القصف فأصعد واتابع إرسال الأخبار.

تعـود الطائـرة فأعـود. حياتـي وحياتهـا طلـوع وهبـوط. وحـين يخيّـم عليّ إحباطـي ويأسي ألازم الشـقة العلويـة لا أتزحزح ولا أتحرك. أظلّ سـاكنةً على كـرسي المكتب راغبةً بالموت حتى يصرخ أبي من الاسـفل:

- هل أنت موجودة وعايشة؟

لا يسمع صوتي فيصيح مرة ثانية:

- القصف فوق رؤوسنا. إبرتُكِ سبب كلّ علّة في المدينة.. اللهم اخسفها.

ثم يسألني إن كان الإنترنت ما يزال يعمل..

فأرد: لا.. لا.. إبرتي بريئة مما تقول والإنترنت معطل منذ البارحة.

ثم أتابع الرد على بريدي الإلكتروني.

٥

المبنـى الـذي أتّخـذه الآن مقـرًا إعلامًيا على مقـاس إبرتي كان مُعدًا قبل تسـع سـنوات كـي تسـتقر به عمّتـي وزوجهـا وابنتاهـا للتخلص من عـذاب الغربة والاسـتقرار في المنـزل الأزلي. هـو نفسـه بيت الطفولـة والـزواج الأول. قضى فيه زوج عمتي مع أمّه فقره وصباه قبل أن يسـافر إلى الخليج ويعيد تشـييده مـن جديد على شـاكلة مبنـى ضخم فاره. لكلّ شـقة فيه حمـام وأدراج فاصلة تكـوّن اسـتقلال كل حجرة. لكن الشـقة التي أقمت فيها مكتبـي لم تكن معدة للسـكن بالمطلق فأكثرها غرف نوم خصصتها عمتي لبناتها وقت المسـاء. غرف عمادها التكييف الكهربائي نظرًا لتماس مسـامها مع شـعاع الشـمس اللاهب. تبـدو المكيفـات الآن مثل تراث الأجـداد، لا هي فانية ولا هـي تصدر أيّ صوت يجعلها حيّة. خصّصت عمّتي هذه الشـقة للنوم وكماليات العيش بينما اتخذتها أنـا شريانًـا للحياة رغم تجردها مـن كل المميّزات.

لقـد حرمـت عمتي وعائلتها من الاسـتقرار في البلد بعد المكابدة ثلاثين سـنة في الخليـج. اختـارت الهجران الكامل للبلد المنكوب والعـودة إلى المنفى عودة تامة في الشـهر العـاشر مـن عـام ٢٠١٢. وهـو التاريخ الذي سـقط فيه اسـم عمّي مـن شـجرة العائلة حين بلغ سـبعة وعشريـن عامًا. اعترضتـه رصاصة قناص

عـلى بـاب بيـت جدتي أمـام عينيْ أمـه وأخته. لم تكـن الأخت تكـنّ لأخيها أي مشـاعر ودّ وأخـوّة بعدما بلغا سـن الصبا. الخلاف يعترض حيـاة الأخوين في كل تقاطيـع الحيـاة. رفاقها ورفاقه. عملها وعمله. منهجهـا في الحياة ونهجه. إلى أن تـزوّج وفـارق المنزل أخيرًا وهدأت الخلافات حيث كان الاثنان يتظاهران بأخلاقيـات الأخـوة أمام الزوجة الجديـدة، لكنهما في غيابهـا ألدّ الأعداء.

فـاض نبـع عين الأخت وحنانها برهة لما رأت أخاها يتمدد في الشـارع ميتًا قرب الباب يوم الجمعة. احتفلت الأخت بعرسه قبل تسعة أشهر فقط من هذا الموت. خـرج من بيت زوجته إلى المسـجد ليؤدي صلاة الجمعة؛ جـاء يودّع أمَّه وأختَه دون إنذار مسـبق، كأنّ قلب من سيموت دليلُه.

كانـت الأخـت لا تبتغـي مـن أخيهـا سـلاماً ولا كلامًـا، إذ سرعـان مـا عـادت المشـكلات بينهمـا بمجرّد انتهاء مراسـم العرس باحترام. حتـى في تلك اللحظة الأخـيرة تناوشـت معـه على باب الدار من أجـل كوب ماء. عذّبهـا المزاج بين أن تسـكبه له أو تحرمه منه. ظلت تحاور كيدَها لتسـتقرّ على خيار تهميش طلبه. دلفـت خلفه مـن باب الـدار عندما غاب الصوت واسـتقرّت الرصاصـة. كذّبت هواجسـها وعادت تتفقد أخاها من خلف شـجرة الليمون حين شـاهدته يغتسل بدمـه في منتصـف الطريق. لا أحد يجرؤ على الدنـوّ لإنقاذه. كان القناص يتابع كل تفصيـل. ظلـت عمتـي تختلج ثلاثة أيـام وتهذي كالمجنونـة ".. مي.. ميّ.. مـا جبتلّـو" ثم فقدت عقلهـا وقدرتها على الانخـراط في أي حديث عقلاني، ولم يفهـم أحدٌ ما علاقـة كوب الماء بهذه الجريمة البشـعة.

ماذا عن شـجرة الليمون المنفردة والمشـهورة في منزل جدي؟ وماذا عن علاقتها المتينـة بـكل ذكريـات العائلة؟ أبي وحـده كان يُجملُ الإجابـة عندما كان يقول "رايـح لعنـد الليمونة" بدل أن يقول رايـح على بيت أهلي.

روَت لي جدتـي خرافـة تخيلتهـا كما تفعل الجدات في حلـول النوائب.. قالت إنّ

الأوراق يومَهـا ظلّـت تصفرّ وتتكسّر وإنّ الشـجرة اسـتنكفت لاحقاً عن الإدلاء بأكثـر مـن خمـس ليمونات في العـام. كأن الموت رجل جاء يسرق من الشـجرة ليموناتهـا ويفتت من الجوف حامضها دون أي أثر. ظلّت جدّتي تربط الليمون بابنها وتحكي استشرافها لهذه الحادثة ككل توقعات الجدات بأنها شعرت بدنوّ أجلـه من بدء اصفـرار أوراق الليمونة.

أمـا عمّتـي فقد اجتاحهـا وجعُ حنين جارف عـلى أخيها، وخيّمت عليها أشـباح جعلـت حيـاة كل من حولها جحيمًا. عقدت الأيمـان بنذر عمرها ومالها وعملها لزَوجـة أخيهـا الحبـلى وابنتـه اليتيمة تكفيرًا عـن ذنوبها مع أخيهـا طيلة هذه السـنين. لكنّها تزوّجت وغادرت البلد بعد الحادثة بثلاثة أشـهر بعدما تقدم لها أوّل عريس.

ظلّـت الابنـة الصغيرة المولودة للتو مع أمّهـا تكابد الأمرّين تحت الحصار، دون وجـود أي مـن أفـراد عائلـة زوجها في البلد سـوانا. ومع أن وجودنـا أو عدمه سـيّان بالنسـبة إليهـا، فإنّ أبـي هو الذي ظـلّ يتابع شـؤونها. ولكـنّ مرضه وفواجعـه المتواليـة بموت ابنه وأخيه جعل منه جسـدًا خربًـا لا ينفع ولا يضر. لا أراه بعـد موتهمـا إلا نائمـاً في النهـار، سـاهرًا في الليـل ولا أعـرف متى يجد الوقت لغير ذلك.

أمـا بالنسـبة إليّ فقـد كنت شُـبهةً للعائلة كلّهـا داخل الحصـار وخارجه. حتى أبـي يتجنـب الحديث مع أفـراد العائلة المغتربـين عنّي في أي سـيرة، ويعتبر أن الفتـاة التـي تخرج على التلفزيون باسـم آخر هي ليسـت ابنته. يحـدّث العائلة بتجرد تام عنّي، فابنته مازالت تحمل الاسـم نفسـه وتعيش على النمط ذاته. ثم يجيـب كل سـائل عنّـي بأنني أعيش بألـف خير. ويتحـاشى أي تفصيل له صلة بي. بالأصل أشـك إن كان يتذكرني. هنا الكل منشـغل في عالمه والكل يدافع عن سـلامة روحه وجسـده بشـكل منفصل عن الآخـر. وكما يقولـون: لن أنزل في قبره ولن ينزل في قبري.

وإن اعتقله النظام يومًا سيفصل خطيئاته عن خطيئاتي.
فحتى لو حاذى منزلًا مشبوهًا وتحدث يومًا ما بواسطة الحقن الفضائية المحرمة سيعتبر أن لا علاقة له بصاحبتها بالمطلق.

ظل أبي ككل أهل الحي يعشق حقن البث الفضائي في شرايين منزله شرط أن لا تحقن تبعات الغارات في جسده.

أدق صحفي

كانت أيامًا لا يكتظ فيها الناس، فالبلدة في نزوح كبير وأنا مطمئنّة لهذا الأمر. أشعر أن الحماقات قد خفّت وأنهم وفّروا علينا أسماء جديدة في قائمة الشهداء. منذ البدء كنت ضدّ عودة العوام إلى المدينة بعد أن خرجت عن سيطرة النظام، كي لا يأتي الناس فقط ليموتوا، وهذا ما يفعله بعضهم للأسف. لو أنهم يسهمون في شيء من القتال أو الطبابة لتضاءلت عليهم ضغينتي، لكنّهم قتلى أو مبتوري أرجل أو أيدي. أعرف أن لا خيار لديهم ولا بيتًا بديلاً، وإلاّ لما بقوا دقيقة واحدةً تحت هذا المجون القاصف. نزحوا منذ اشتداد القصف أول البارحة وتناءت مع نزوحهم وجوه كثيرة وهي تظهر على حقيقتها. من حمل السلاح عن قوة وشجاعة ثابت ومن رفعه عن جبن واسترزاق، فهو الآن مع أطفاله أول الهاربين. فرغت البلد من ناسها مرة أخرى، وسرحتُ مع الغارات بسعادة لا مثيل لها. ما أجمل مدينتنا حين يرحل منها الأنذال.

جاءني المصور وقت الظهيرة بعد نصف ساعة من اتصالي، كان "هادي" اسمًا حركيًا له. والغريب أنه لم يزوّر اسمه كالباقين وحسب، بل ابتدع بطاقةَ هويةٍ شخصية بالاسم المستعار. ولا أدري إن كان يتذكر اسمه الحقيقي إلى الآن. لم يتردد المصور في أن يكون أول الداخلين إلى المدينة المغسولة بدمائها رغم بعدنا عن منطقته في المروج البعيدة. كانت ساعة ظروفي المعيشية والمهنية قد دقّت دون الصفر. لحدّ الآن لا أفهم بأيّ جنون تخطيتها.

غدا التعامل معي شبهة لأي شاب. فتاة تصوّر مع الشبان وتجالسهم في المكاتب دون محرم. لا أحد يأخذ على عاتقه مجرّد التفكير في أسباب اختفاء هذا المحرم. سفحت دماء كثيرة واختلط الظالم بالمظلوم، وكانت سجون الفصيل الحاكم تعج بالنساء والرجال بتهم مختلفة. واحدة من التهم تقول إن رجًلا شتم قائد الجيش فسجن خمسة عشر يومًا لتخلّفه عن الرعية، ثم

ألحقه أفراد الجيش بدورة شرعية فأصبح فجأةً فردًا ذا فضيلة في المجتمع. تنصّ تهمةٌ أخرى على أن سيدة اعترضت على انتهاكات حقوق الإنسان، فلم تعد سيدة صالحة في المجتمع واختفت إلى غير رجعة. شغل العديد من الشبان مهنة رجال أمن عند أصحاب النفوذ. يراقبون، يخبرون، يعتقلون، ثم يعقدون أيمانًا مغلظة فوق كتاب الله أنهم لا يفعلون ذلك.

البعض يراني غبية فالتة، وليس من الحكمة التقرب من فتاة علاقتها غير متينة بالفصيل الحاكم. لا تحمدهم ولا يحمدونها. لا تصوّر لهم ولا يقصدونها. لكنهم جميعهم يكسرون القاعدة ويصدرون استثناءات بحسب مصالحهم. هنا يطرق الجبن قلوب رجال كثر ليجمعوا على قول واحد " الناقص منها ومن خلقتها".

اقتصر تواصلي مع شبان خارج مدينتنا. كان كلّ منا في ناحية منفصلة، المصوّر، الناس، وأنا.. مسافات غير محتملة وانعدام الوقود كان يتسبّب لي بلوثة تربكني قبل التقاط الصور لأيّ تقرير. انقطع وقود العجلة الكهربائية على طريق المصوّر أكثر من مرة. تسابق هادي مع الغارات الماطرة فلا سبقها ولا لحقته. كان وقتًا لا يقامر فيه أحد بروحه.

يظل هادي كالمكوك الدائر هبوطا وصعودًا. يظلّ يقنعني بتغيير مكان إقامتي على الدوام. فالشارع منقوش بالقذائف وصولًا إلى باب حارتي ومبناي وجلوسي كمن تنتظر تصويب هدف الغارة الدقيق نحو نفسها. بمعنى أنّ المكان مرصود تماماً، فالطائرات لا تحوم في الرقعة ذاتها ما لم تستقبل إحداثية تدل على مقر مشتبه فيه. لكن مدينتي التي أجعلها ترزح قبل غيرها تحت الأهوال كانت أكثر ما تروق لي كمراسلة أولًا وكخاملة ثانيا. أحببت العيش فيها على البركة، أسمع القصف، أرتّب أحمالي، أكالم الشظايا بأحاديثنا الخاصة، أتوجه إلى أي مكان بمفردي، أثبت الكاميرا وأضغط زرها، وإذا ما أعجزني الأمر وحدي أتوجّه لأي مارّ ليمسك لي بالعدسة، أحدد له الكادر

المراد وأسند الصورة على كتفه، فإذا ما تفوهت بملاحظة، ذكّرني رد فعله بأن أصغر طفل عندنا يمتلك خبرة التصوير والإعلام وإذاعة الأحاديث بسرعة قصوى.

وصل المصور الآن.
ركَن الدراجة في ثنايا الحارة، وها هو يحدثني وينظر للأسفل من شباكي خشية على "الموتور" من السرقة أو من قذيفة عابرة تعرقل عودته إلى زوجته. لا أخبار جديدة يعرفها عن ارتفاع حصيلة القتلى. شهود العيان في الشارع المقابل لم يخبروه سوى بموت ستة أفراد من أسرة واحدة، مع أن المشاهد التي رآها كانت توحي بشلال دم. تواصلنا مع النقط الطبية لنحصر تعداد الجثث الواصلة إلى البراد. لم تكن تتجاوز العشرين جثة، وثمة أحاديث في الشارع تدل بأسماء تجاوزت المائة دون أي حديث موثوق.

نظرت من النافذة لأطمئن على "موتور" هادي. كان العجوز الواثق بالموت يمشي على هدى باتجاه المسجد. فتح فوهة المنبر، تمتم بصوت مبحوح "الله.. الله الله" ثم قرأ قائمة بسبعين اسمًا من أهل المدينة. يذكرهم بأسمائهم الثلاثية فيتحول اسم الواحد منهم في ذاكرتنا إلى يُتم عائلة كبيرة أنجبت طفلها في المدينة وأماتته فيها. يصيغ نداءً على قياس قهرنا "يا أهالي الجيرة انتقل إلى رحمته تعالى.. الطفلة حنين.. الطفل أحمد". وفي سبعة شهداء مجهولي الهوية. ترحموا عليهم يرحمنا ويرحمكم الله".

كان ينعى شابا وراء شاب بالاسم، امرأة وراء امرأة، رضيعة تلو رضيع. ظللت أحمل انقباضًا في صدري حتى انتهى الصوت الأجش. أصابني انقباض في صدري خوفًا من أن يقرأ اسم أمي أو أبي أو أي قريب في العائلة. أنتظر كما لو أنه سيرتل اسمي بعد قليل. فأحار إن كنت إنساناً حيًا أو ميتًا يمشي في جنازة نفسه.

أعلمنـا بميعـاد المـضي بجنـازات الموتى. كان كل ذوي شـهيد يخبرون المسـجد بشـهيدهم قبل القيام بمراسـم الدفن وفي الأرض أشـلاء مجهولة الهوية تمزق بعضها عن بعضها فانتشلها العاثر واختار لها من المسجد بيتًا ومن المؤذن أهلا.

فصّل المؤذن معكوف الظهر الأرقام بحذافيرها، معلومها ومجهولها. واسـتراح مـن البـكاء على حواف المئذنة. قمنا بنسـخ الصـوت الباكي على حواسـيبنا من بـكاء المـؤذن.. من ضغطة "إرسـال"
نرفع الحصيلة من خمسـين إلى سـبعين قتيلًا على الشاشة تقتلهم أقلامنا جماعةً ويحييهـم هو بذكره لهم فردا فـردا. يطفئ إذاعته ويمضي.

ويبقى شيخ الجامع أدقّ مصدر صحفي في البلد.

سلاح الباذنجانة

السـنة فصـلان. مطـرٌ يشـوش عـلى جناحـي الطائـرة، وصيـف يطلـق عنان "الميـغ" و"السـوخوي". أمـشي في السـوق لأتابـع طقـوس الصيـف الغريبـة. يخـرج الأطفـال من البيـوت والمـدارس. يتجمهرون ويصدحـون بهتاف واحد كأنما هو نشـيد مدرسيّ، يسـتقبلون إطلالة الطائرة كيوم من أيام العيد. مواليد عـام ألفـين وأحد عشر قد ناهزوا هذا اليوم عمر خمس سـنين. جاؤوا إلى الدنيا وهـم يشـاهدون آباءهـم يتجمهرون ويتحلقـون لرؤية دخان الغـارة. هم الآن يقتفـون أثر آبائهـم. مفهوم الجنّة بالنسـبة إليهم محدّدٌ منـذ أن ولدوا. الكثير مـن الكهربـاء والمـاء والخبز الطـازج مـن الدقيق الأبيـض، الكثير مـن التفاح والتـين والموز، وهي أسـماء لا يعرف الأطفال شـكلها وألوانهـا إلا حين يردّدها الرجـال في الصـلاة فيدلّهم وحي المعاني إلى ثمـار لذيذة صالحة للأكل.

يمسـك الأطفـال بأيـدي أمهاتهـم وهم ينظـرون إلى الأعـلى ويـردّدون: "اجت اجـت" ثم يتوجسـون.
دقيقـة صمـت مـدوٍّ. ثم سـتة صواريـخ ترمى عـلى كل الأطفـال الذيـن قالوا "اجـت"، ليدركـوا فيمـا بعـد أن ذاك هـو المعنى الحقيقـي لهـذه الكلمة. حدث هذا ظهر اليوم في سـاحة شـعبية كبيرة تدعى سـاحة الغنم، وهي رديفة لسوق المدينة الأشهر والأكثر اكتظاظًا وفقرًا ودمارًا. كان وما يزال رغم فقره مقصدًا لكل الناس في ريف دمشـق. تفوح رائحة لحم البشر في السـاحة أكثر من روائح الخـضرة النـادرة. كانت تبـاع يومها بالقطعـة، الخس الملفـوف يُعرض ورقةً ورقـة، الثـومُ فصّـا فصّا، البصـل المفقـود يصنع منه بـودرة ويبـاع بالذرات أمـا لحـم البشر بالقطعـة. فلم يكن لـه رواج، فهو لا يُشـبع الجائعين ولا يفيد الطامحين بتجارة الأعضاء البشرية في مدنٍ لا قيمة للإنسـان فيها ولا لأي شـلوٍ فيـه.

اللحـم المنثـور عـلى الأرض مـا كان يزيـد الجوعـى سـوى تضـورًا، ويزيدني

تخيـلات عن مصير أشـلاء جسـدي لـو بقينا وقتًـا أطول. أتأمل السـاحة بعين جدّ يحتضر بعد أن عاش سـبعين سـنة في السـاحة ذاتها والحارة عينها. قالت لي جدتي عن الزمن الغابر إن من أطلق على السـاحة اسـمها كان يتنبأ بالغيب. جاءهـا يـومٌ سـاح دم أهلهـا فيهـا أكثر بكثير مما سـاحت دمـاء الغنم.

أغلِـق السـوق وفـرغ. لا أحد يجـرؤ على الوقـوف أو المرور إلا مـن يهتم لشيء مـن أثـر القصـف.. بقايا جثث.. ذهب بيـد ميت.. أو حطب منـزل مغمور مات صاحبـه وجـاء إلى الحيّ يلملم فتـات رزقه.

نتشـاور عـن أقرب مـكان للتصوير. نخترق أجـواء السـوق الضبابية قاصدين السـوق البعيـدة. كان المـكان ينـم عن آثـار جرائـم اقترفتها طائـرات النظام. تجوّلنـا بحريـة مطلقـة. لـم يعترضنا أحـد. ثلاثة أربـاع المدينة فـرغ لتعيش جحيـم النـزوح وتهرب من حصيلة غارتـين كل دقيقة سـتقتلهم واحدة منها. رغـم هـذا الرعب بدت لنا السـاحة آمنة. في الظـروف العاديـة لا يصمت الجند إذا مـا رأونـا نلتقـط صـورًا لا تحمل فخـر إنجازاتهـم، خصوصـا أنّ المدنيين سـيظهرون غضبهـم منّـا لحديث سـابق عـن علاقـة الكاميرا بالقصـف. وهنا سـيتدخل الجند كي يعرقلوا تقريري لصالح جهة غير راضية عن ممشـاي. هم بالـكاد يتحملـون صوتي على مضـض، يكرهون خلقتي دون سـبب فيطوّقون مـكان التصويـر ويخـبر بعضهم بعضـا على الإشـارات اللاسـلكية إذا ما جئتُ أرصـد مكانًـا، محاولين إثـارة رهبتي بسـلاح المجهول. كان المجهول بالنسـبة إليّ أكثر الاسـلحة تأثيرًا في نفسي.. وأكثر تدميرًا للقادم من سـنيني وسـمعتي، حتـى لو بعـد موتي.

لكننـي قبـل أي وقـوف أمام أي عدسـة، كائنًا من اعترضني أتذكـر فورًا درس الباذنجانـة. حتـى تتعلـم كيـف تحقـن إبـرة دون خـوف عليك أن تجلـب أولًا باذنجانـة، تخططهـا لأربعة أرباع وتغرس فيها إبرتك وتتخيلها إلية الإنسـان. عندما تغرس الإبرة في فخذ حقيقي عليك أن تتخيل أن العضلة الوحشية للإنسان

باذنجانـة. تعلمـت هـذا الـدرس في كل شيء، كلّما تحدثت للكامـيرا وكلما قصد أحـد إزعاجـي أتقوّى بدرس الباذنجانة، فهي ترافقني في كل مشـوار. السـلاح باذنجانـة، الأشـلاء باذنجانـة، الأشرار المحملقـين بي هم مجـرد باذنجانة، كل الهواجـس والبواريـد بالنسـبة إليّ باذنجانة. لكنّني لا أريـد أن أظلم هذه النبتة اللذيـذة في مفارقة كهذه. لقـد رافقتني في فصل الصيف رغم الحصار، ويشرف أبي على يباسـها في الشـتاء لنفاد الخضار والأطعمة.
مـا زلـت أحبهـا لأنهـا حيويـة معطـاءة.. تمدنـي بالطاقـة دون أن ترهقنـي بالسـعرات الحراريـة.. عـدا عـن أنهـا نـذرت نفسـها يومًـا لتجاربي.

**

دعوة اجتماع لرقائق السيليكون

أول مـا أفكـر بـه في الغربة هو جهازي المحمول وحاسـوبي. كيـف يمكنني أن أمدّهما بالشحن وقتًا أطول إذا ما انقطع التيار هنا؛ فأدواتي الحديثة لا يمكنها أن تتخيّـل كيـف كان كلّ شيء عـلى مـا يـرام قبـل أن يحـلّ الخـراب وتسـقط الشـمس فوق أرض المدينة.

منـذ غـادرت أرض المعركة وأنا أعامل كلّ مدينة أحلّ بهـا كأنّها مدينتي؛ أقطع الكهربـاء عـن أي مـكان أحـلّ فيـه: التلفـاز، التكييـف، التدفئـة، الغسـالة، والمكـواة والمـاء السـاخن. أُزيل مـن المدينة غازهـا وأبقيها عـلى الحطب، أنزع من الشـاي سـكّره وأصنع القهوة من حبوب الشـعير، أخرّب أي مدينة بنصف دقيقـة. مدينتي تلـك الكبيرة تحوّلت إلى ركام يشي بي كلّما حان المسـتقبل.

أين هو الوقت الذي تنتظره مراهقة في عمري؟ اعتقدت أنه الوقت الذي سـأطير فيه بالأحلام. فعيشـتي الرتيبة كانت مـلأى رقصات وألوانا. رفيقات يحدثنني عـن خيـار بـين الذهب الأصفـر والأبيض، عـن شرارات متّقدة حـين يدرك أحد أفـراد العائلة تاريـخ ميلاده. شـمعدانات تنطلق تأججًا عنـد الزفاف؛ حلوى.. أحذيـة سـحريّة.. فسـاتين باللـون ذاتـه.. شـجون وأحـلام بليلة حـب. في كل مناسـبة نعلن مناسـبة اليوم التالي؛ بشـغف نصـل فيه كوكب زمرّدة. وشـفاه تواقـة لكـوب "كراويـة" نمزجها مع جـوز الهند لنبارك لابنـة خالتي مولودها الأول ومدائـح ننشـدها أمـام صرر "الملبّـس" الملفوف بورق برّاق. تسـمع ابنة خالتـي ومولودهـا أهازيجنـا وهـي جالسـة في سريرهـا. تطل علينـا من إطار زهـريّ يحيـط بالـ"تخـت". تُلاقينا بثوب أبيض شـفاف وشـال من الشـيفون تمارس بـه طقوس ما بعد الولادة.

غيـم فاتـح، اوشـحة بيضـاء صـارت سـودًا رماديـة بفرمـان تصـدره الفرقة الرابعـة لإطـلاق أول قذيفـة مدفعية. كأنّهـا كانت موجهة باتّجـاه السرير؛ كل

الألـوان بلـون الـركام. هاجـرت صاحبـات الأسرّة الزاهيـة وبقي مـن الغرف أخشـاب ألتقطُها باللون الرمادي والأسـود.

أبهـى عدسـة أملكها لا تعطـي إلا صورًا رصاصيـة باهتة رغم أنّنـا ما نزال في المـكان عينـه. لذا لا أسـتبعد أخيلـة الخراب في أي مـكان عامر؛ أفكّـر كيف أمدّ أشـيائي بالكهربـاء إذا ما اشـتعلت حرب هنـا، كيف أوقف صـورًا تفي بالقبح والجمـال في وقت واحد، كيـف ألصق بمحمولي ميكروفونًا عتيـدًا يهَبني صوتًا خاصًـا لكل صورة. أسـتحضر يوم المجزرة، أرتّب قطَـع الميكروفون وأكون في قمّـة الارتباك بل بقمّة الهسـتيريا. في مثل هـذه اللحظات عادة ما أكون في ذروة الجنـون. قبـل أي جولـة صحفية أدعو مُعدّاتـي الصغيرة لاجتمـاع عاجل. كلّ منهـا في ناحيـة. لا أحد من معدّاتي يلبّي النداء؛ حتـى القِطع التي يفترض أنّني مسـؤولة عنهـا ترفـض وصايتي. أصيـح بصوت فـج: أين الكامـيرا؟ فيصدر شـاحنها صوتًا كأنّمـا يُعلمني أنّها قربه. أزجّها في الحقيبة، أبحث عن العدسـة المكبرة لأصفّها قرب الكاميرا، أضع فوقهما ثلاث بطاريات سـمان أنتشلهما من الشـاحن المخصص لهمـا والموصول ببطارية كبيرة، أنـادي بطاقات الذاكرة، لا أحـد يردّ. أصرخ مـرة أخرى أين بطاقـات الذاكرة!!
أتذكر الحاسوب لعلّ بطاقة الذاكرة في بطنه.
أفرّغ محتوى البطاقات على الحاسوب وأضعهنّ في الجيب العلوي للحقيبة.
معظـم البطاقـات معطلة ولا أميز منهـنّ الصالحة من الطالحـة؛ ملعون كلّ ما يتعلق بالذاكرة!
لـم أنـهِ اجتماع قطعاتـي بعد.. وحتى الآن لـم تجتمع المعـدّات اللازمة للجولة ضمـن الحقيبـة. هنـاك حقيبة مسـتطيلة أخـرى خصّصتها لمهام ثانيـة، وتلك أحملها عادة باليد الأخرى وبشـكل مائل. أضع فيها قطعتيْ نِـك مايك؛ قطعة لتكون في حوزة المصوّر مسـتقبلةً وأخرى معي. أما الميكروفون اللماع فيأتيني طائعًـا كأنّـه يقول "أنا هنـا". أجلب بطاريـات صغيرات بحجم عيـدان ملفوفة تتموضـع عـلى الميكروفـون من تلقاء نفسـها. تربّى هذا الميكروفـون في الغربة وخضـع لمـدارس خاصة تهتمّ بمسـتقبله العملي. أدخلَ هذا اللاقـطَ الواعد آخرُ

مراسـل رسـميّ للقنـاة دخـل من أحد منافذ دمشـق قبـل الحصار، واسـتحال عليه أن يُخرج هذه القطعة لصعوبة إبرازها على الطريق. تُركَت برسـم الأمانة من شـخص لآخر حتى وصلتنـي. كانت هذه أوّل مرة أشـاهد فيها ميكروفونًا بـلا أسـلاك. رحت أبحث لقطعاته عن شـاحن ذكـيّ. وكان الأمر شـاقًا للغاية خصوصًـا أن المهـام بكاملها ملقاة على عاتقي وحـدي. قطعاتي لا يفهمهنّ أحد سـواي؛ أضعهن على شـاحن كهربائي حتى يصبحن ملآنات بالطاقة وأستدعي لاقطًـا احتياطًا باليًا في جعبة المصور.

البطاريـة في حقيقـة الأمر هـي المديرة الفعلية لـكلّ أملاكي، ولـو أنها تكاتفت معـي كما ينبغي طوال الوقـت لرصدنا أصوات جثث تهذي بأفكار غير متوقعة قبـل أن تسـلم وجهها للموت. هذه البطارية التـي ترتكز عليها محور تغطياتي صنعـت من قالب سـيليكونيّ ذكـيّ، لكن قدرات السـيليكون الذكية تصير غبيّة بعد انقطاع الكهرباء ونفاد الطاقة. لو أن من ابتكر هذه القوالب السـيليكونيّة عـاش تجربـة الحـرب والمجاعة لكان ابتكر بطارية يشـحنها نفس الإنسـان أو شـهقته الأخيرة مثلًا قبل أن يموت. هكذا فقط لن ينقطع أي ميكروفون أو أي كاميرا عن الشـحن حين أواصل تغطياتي بين الموتى.

نزلت من السـيارة. كانت أمي تمتلك في سـيارتها لتريْن من الوقود؛ تركتنا عند أول التقاطـع وذهبـت تجلس في أحد الأماكـن الغائرة التـي لا تراها عيناي. لم يكـن المصـوّر قد أومض للكاميرا بعد. لاقط الصوت تحـت ذقني ما يزال جيّدًا، لكنّ خطوط الطاقة تشـارف على النفاد في أوّل المسـير، رغم أني حاولت شـحن البطاريـات بأقصى طاقـة كهربائية متوفـرة. اللون الأحمر الصـادر من إحدى قطعاتـي يعطينا إنذارًا طيلة التصوير وينذرنا بانقطاع الصوت عن الصورة في أي لحظة.

كان المصـور قـد اسـتعار كاميرا من أقرب مقرّ عسـكري بعد عطـل في كاميرته وإعدادات مربكة في كاميراتي لا يسـعفنا إعداد ألوانها اليدوية في ساحة خصص

لهـا النظام أسـبوعا كامًلا للموت. ظهرت المشـاهد المؤثرة عـلى حقيقتها ونظر الجميع فقط لهول الفاجعة بكاميرا حقيرة رديئة تقفز دون أن تركن ثقلها على أكتافنـا؛ كامـيرا تصوّر الميت ميتـا والحيّ حيّا، دون أن تسـتغرق وقتًا في إعداد التركيز والتفصيل لتصوغ من الميت ميتًا بالدقة العالية والألوان المناسبة لجلال المـوت مثلما تفعل الكاميرات المثلى حين تصـوغ متواليةً لتعكس حدثًا جللا.
أي جـودة تضفـى عـلى صـوَر لا تتباين فيهـا الحيـاة والموت؟ أي جهـاز ذكيّ سـيحفظ اللحظـة؟ قنوات إعلام غربية وعربية طمعـت طويلا في أن تدرك هذه اللحظة. ترغب هذه المؤسسات في جعل مراسليها الحربيّين شاهدين دائمين على شاشـاتها، ونحن لا نكترث كثيرا بسـلامتنا ربّما لأننا لا نفكر كثيرا في تقديرات الأمـور. نعيـش اللحظـة ونصوّرها على أي حـال؛ من دافعنا الوجـودي، هكذا بالفطـرة. هنـا أن تكون يعنـي ألاّ تكون.

طـال مطالنا.. واختلف الـشرط والمشروط. الغني يشـاطر الفقير على حصيرة؛ من كان يرغب أن يجعلنا منبرًا صوتيًا أصبح اليوم لا ينظر إلينا إلا آلة التقاط. إحـدى الـوكالات تطلـب عـرض الصـور التـي ألتقطها جـرداء هكذا.. لا اسـم لصاحبتها ولا هوية.. لتُـــعرض باسم أشـخاص آخرين دون أن تمدّ بطارياتي بحفنـة كهرباء أو تمدنـي ببطاقة ذاكرة.

أزعـم منـذ الصبـاح تقديـر معدّاتـي ثـم أتخـلى عـن جهدهـا بسـهولة. أوزع التسـجيلات التـي صورتهـا هبـةً وتكرمًـا، عـلى أرواح أمواتـي.
أذعن الرأس استسلامًا..
هـا أنـا أرسـل الفيديوهـات عـلى أي حـال، منسـوبة إليّ أو إلى غـيري. وكلّمـا فقـدت الأمل أواسي بعـضي.. ماذا لو توقّفتُ عن إذاعة المجازر أسـبوعا واحدا؟ سـأموت والدمـاء في جيبـي. أقتـل وأقتل دون صـوت؛ دون أن يزعـج الصّوت أحدًا.
ما زلت أسعى لكي أشارك العالم يومي القاسي، لتحيا ذكرياتي بعد موتي.
عندما أجثو في حجرتي مشلولة أرى حلم القيامة خلف العدسة يمشي كريشة فنان.

**

مايك أبو عكفة

مـن دواعـي سروري أنني أمتلك أول قطعة لاسـلكية في ريف دمشـق، لكن كل قطعة تحتاج إلى بطارية والبطاريات تطلب الشـحن والشـحن زوج الكهرباء.
لا أحـد يكفـل لي قيمة الأثمـان الباهظة التي أشـتري بها بطاريـة صغيرة، ولو كانت لا تحرّك إلاّ عقارب السـاعة في بيت عجوز فقير. سـوف يراها هذا العجوز ثروة كبرى ويبيعني البطارية بثلاثين دولاراً، بعشرة أضعاف سـعرها أو أكثر حسب استثماره لحاجتي.

مـا زلـت أجـري تجارب خـاسرة في البيـع والتجـارة دون أن أتعلم من فشـلي. تخلّيت مرة عن بطاقة ذاكرة قدمتها لشاب يعمل في التصوير الفوتوغرافي لصالح صحيفة أجنبية. يتفنن الشـابّ برسـم صور جميلة للضحايا حتى تنال إعجاب الصحيفـة. يصـور طفلًا مركونًـا على الأرض ومازال يحـدّق بعينيه عن اليمين والشـمال، أو سـيدة تصرخ فيرصـد فمها لحظة انطـلاق الآه.. أو لحظة دخول نوافـذ الضوء على رجـل مغمور بدمه.. كلّها صور جميلة وجذابة! كان الشـاب يرجـو أن ينقـل اهتمامه من التقاط الصور إلى تصويـر الفيديو، فاقترح عليّ أن أتخـلى عـن بطاقة ذاكرة حجمها كبير مقابل أن أحظى بميكروفون معكوف من الأمـام يثبَـت على حجرة الكاميرا؛ فأنا كنت حريصة على رصد شـجون ضيفتي أثنـاء المقابلـة، وأرغب في اقتنـاص صوتها دون تشـويش المولّـد الكهربائي أو صراخ بائع الثلج حتى لا أصطدم بوجه الضيفة عندما أصوّر شهادتها، وليبدو الصوت واضحًا مفهومًا على الشاشـة لا يختلط بأصـوات الخلفية. مرّ الزمان.. ومـا عـاد معقـولًا منّي أن أقاطـع دمـوع أمّ تبكي للكامـيرا فقد ابنهـا لأقول: "حجِّـة.. حجِّـة قوّي صوتك وأنـت عم تبكي عالكاميرا مو مسـموع لعندي..".

نجـح الميكروفـون "أبـو عكفة" أخـيرًا في التقاط صوت ضيفتـي أول مرة دون أن أطلـب منها رفـع صوتها في أثناء الشـكوى. لكن هـذا الميكروفون المعكوف ماكـر ومعـوجّ في كل شيء؛ خدعني بعدمـا أغراني بالتقاط الصـوت في البداية،

وظل يعمل أسـبوعًا كاملًا بأحسـن صورة. أعرض الميكروفون فجأة عن الأخذ والـردّ. رحـتُ مـرة أجـري مقابلة مع رجـل يعمل على شـاحنة تصـدر صوتًا مزعجًـا. تفاءلت بأنّني أمتلك ميكروفونًا جيدًا لا تهمّني معه الأصوات المحيطة. لكنّـه توقـف عن العمـل كليًا دون انتباه منّي. حالما عدتُ كان كلّ ما يسـمع من المقابلة همس غير واضح مع صوت الشـاحنة!

عـدت للعنـاء من جديد لأجري مقابـلات جديدة أقترب فيها مـن وجوه ضيوفي بخـزي وبشـكل مبالغ فيه كلّمـا باشرت بتسـجيل أصواتهم. خـسرتُ الصفقة التـي آثرت فيهـا مقايضة بطاقتي الفتيّـة على الميكروفـون المعكوف، وخسرتُ بطاقة الذاكرة. وصرتُ أحمل الحاسـوب الثقيل معي في كل جولة لأفرغ ذاكرة الكامـيرا المليئة بالصور، فـأزداد ثقلًا بدل أن أتخفّف وأرتـاح، وتزداد لقاءاتي الرديئة غبشًـا في الصوت مثل كما في الصورة.
في الليل اعتراني الندم.. ألسُـت التي تعـترف بأن كل قطعة من معدّات التصوير إنسـانة هـي مثلي مـن لحم ودم؟ كيف بعت واشـتريت ببطاقـة الذاكرة؟ ها أنا لا أسـتطيع اسـتعادة بطاقتي مهما حدث. المشـتري غادر البلاد إلى غير رجعة، كيـف يكفـل الزمـن عنها بديـلاً؟ أراني تعلمتُ منـذ ذلك الحـين أن أحافظ على مـا في حوزتـي بـدل أن أبحـث عـلى أدوات مـن فـلان وفـلان. بخلـتُ على كل الشبان الذين لا يولون أدواتي اهتمامًا ولا يعطونها قدرها وقيمتها ولا يعتبرون الحفـاظ عليهـا أهمية كبرى. ففي أوسـاط الفتيان يسـود العرف بـأن الجميع يعملـون لصالح هدف واحد، حتى لـو اختلفت الوكالات والجهات التي يعملون لصالحهـا. يعزى دومًا سـبب عدم الاهتمام بالمعدات النـادرة على أنها أتلفت في سـبيل هـدف واحد! فيكـسرون الأدوات تـارة ويغرقونهـا بالماء تـارة أخرى. يضيعونهـا ثـم يطلبون قطعة بديلة من خارج مناطق الحصار لا تصل إلا بثمن باهـظ جدًا وقد لا تصل أبدًا.

مـا عـدت أتخيل قطعة أكثر جـودة وجمالاً ممّـا في حوزتي؛ آمنت بـأن أدواتي كقطـع الحـليّ النـادرة. فعـليّ أن أكـون مخمليـة في ارتدائهـا وأقتنِي البسـيط

الخفيـف. عـليّ أن أحافـظ عـلى أدواتـي الصحفية كمـا قدمي وذراعـي فثقافة الحصـار تقول إن القطعة التي تباع لا تسـتبدل ولا تسـترد.

تراجيكوميديا ميكروفون

بعد تفكير طويل حصلتُ على أول ميكروفون حملته أمام الكاميرا.
في فصـل الشـتاء نلعب لعبة الإذاعـة في أحد المقار بالمدنيّة. كان أحد المشـاركين قد حظي بلاقط خارجي يسـجل الصوت على الحاسوب.

اللعبـة أننـي أذيـع برنامـج صبـاح الخـير مـن شـام الخـير باللهجـة العامية، والحـاضرون هـم ضيـوف حلقتي. أطـرح في البرنامـج أخبار البلـد والحصار ثـم أسـجلها على اللاب تـوب بطريقة سـاخرة. وحينما ينتهـي البرنامج نعاود سـماعها لنصغـي إلى أيّ درجـة تُعتـبر أصواتنا راكـزةً ونقـارن أيّ الأصوات هـو الأجمـل. يصيـح كلّ واحـد منا: صوتـي هو الأجمـل وأنا وجـدت صوتي أيضًـا هـو الأجمل، وشـعرت أن اللاقط الموصول على الحاسـوب يظهر أوتاري الصوتيـة بطريقة أحلى.

صارحـتُ الموجودين برغبتـي في أن أمتلك ميكروفون لتسـجيل اللقطة الأخيرة أثنـاء حديثي مـع الكاميرا، فاللاقـط الموصول على الحاسـوب بشريط لا يصلح لوصلـه عـلى كاميرا كانون 600 دي. ولهذا أحتاج إلى سـلك دائرته بقدر حجم الدائـرة المتمركـزة في الكامـيرا. اقـترح أحد المسـاهمين في البرنامـج الوهمي أن نذهـب إلى السـيد "أبـو عمر" الـذي كان ذات يوم يعمل عازفـا ومتعهّد حفلات في الأعـراس. كان أبـو عمر يتصرّفُ في كثير مـن الأشرطة والميكروفونات، لعلنا نجد بـين كراكيبه القديمة واحدًا تتركب قاعدته على كاميرتي.

تبـدّل عمـل الرجـل في أيـام الحرب وأصبـح يقضي وقتـه في طاحونة للشـعير وصناعـة خبـز الحصار. انتظرته في السـابعة صباحًا وطرحـت عليه رغبتي في أن أمتلـك ميكروفونا. اسـتجاب الرجلُ وذهب بي إلى قبـوه القديم حتى أجرب ميكروفونًـا صالحًا للكاميرا وأضعه بين معدّاتـي. جربت الميكروفون يومًا بعد يـوم وتدربت كثـيرًا لأجعل صوتـي في الميكروفون مطابقًا للصـوت في التقرير

المسـجل إلى أن جـاء وقـت التطبيق. رحتُ أسـجل بهـذا الميكروفـون تقريرًا في مظاهـرة تجمهـر فيها آلاف النـاس. منحني الإمسـاك بالميكروفـون ثقة أكبر؛ بسـطتُ كتفـيّ وارتحـتُ بوقفتـي. لـم تـدم سـعادتي طويـلاً، فقد اكتشـفت أثنـاء المونتـاج أنّ صوتـي قد اختفـى وأنّ الميكروفـون عزلني وعـزل أصوات خلفية الحدث بالكامل.

ذهبت أسـجل جملتـي أثناء التحرير على هاتفي المحمـول لأطابقها مع صورتي في الشاشة.
كانـت الصورة رديئة جدًا والمونتاج يظهر فيه عدم تطابق مخارج الحروف مع كلامـي. صوتي يسـبق ظهـوري ويقول لي المنتج عـبر سـكايب إنّ المقطع فيه "lip sync"، فأهـز بـرأسي وأقـول: "تمام تمـام فهمتُ أين الخلـل".. دون أن أفهم شـيئًا مما يقصد بالمصطلح.
أفهم دومًا أن التجارب تزيدني إخفاقًا.
وأضحـك مـن نفـسي لأنّني اكتسـبت شرف التجريـب في مكان غـير صالح لمبدأ التجربة والخطأ.

بلاد الهونولولو

نتنقـل ضمـن أطراف المدن المحـاصرة، الطريـق مقطوع لا يدخل منه إنسـان. هناك كشـكٌ صغير في حي جوبر بدمشـق ما يزال يقف على قدميه ويحمل فوق أكتافـه قطع بسـكوت نحيلـة، دوّرها صاحـب المحل وأضاف عليها السـكرين. رآنـي أرتـدي خوذة ودرعًـا أزرق من بعيـد. عندما اقتربنا منه بـدا كأنّه يقول في نفسـه: المصـور هنـا بالـكاد يقتنـي عدسـة، ولكـن مـاذا عـن بنـت ترتدي الصولجـان..؟ بنـتٌ مشـوية متفحمـة تحـت أشـعة تمـوز اللاهبة، لا بـدّ أنّها إفريقية.
كان وجـهُ المصـوّر لا يقلّ تفحمًـا عن وجهي، ولا يقلل في عقل صاحب الكشـك الفرح بأنّنا نتحدث لغته.

يرفـض الرجـل أن يأخذ ليرة واحدة من ثمن الحلـوى، لظنه أننا فريق صحفي جـاء مـن قارة أخـرى، ربّما من بـلاد الهونولولـو! يتوجب عليـه إذاً أن يُظهر صـورة جميلـة لأهل جوبر أمام أهل الهونولولـو حتى لو أكله الفقرُ والجوع.

موهبة جديدة للمشايخ

أمشي مواطنة عادية حتى أصل المكان. أبحث بعينيّ عن أقرب ظلّ متوار عن الأنظار، وأحرص أن تتم العملية بسرعة. أدخل فتحة الدرع فورًا في رأسي، أحسّ أنّه سيخلع رأسي من بدني. يناديني المصور: السرعة مطلوبة. أمضي دون أن تتاح لي فرصة الاطلاع على وجهي وتدوير الحجاب حول رأسي مرة أخرى. يفسد الدرع منظر شعيرات حاجبيّ ويخرجني منه كالدجاجة.

يتوجب في أيّ مكان أدخله أن أغادر بسرعة. لم يعد بمقدور الناس احتمالي وهُم يرون أن كاميراتي تسبّب لهم كل أذى. الكاميرا بلغة العوام تعني الطريق إلى المال ويعرّف حاملها مرتزقًا يعمل بلا مبدأ ليتلقى أجرًا ثمينًا، كمَا يتعرّض لضربات ولكمات قوية بعد كل مجزرة. نفوس الناس محتقنة بشأن كل شيء. يكسرون كاميرا أي صبي مار لسوء تعامل الصبيان مع المجازر كأنها مادة إعلامية للعرض فحسب.

أكملت الثورة عامها الرابع. هناك جيل نشأ على الدنيا مع نشوء المكاتب الإعلامية، وبدا التعامل بالكاميرا كمهنة تجلب المال. يأخذ الصبي كاميرا من أحد المكاتب الإعلامية، يصور فيها أربعة فيديوهات على الجبهة لصالح فصيل بعينه: لقطة للجنود وهم يمشون ويطلقون الرصاص، مقابلة للقائد يوزع الطعام على أفراد الكتيبة، صورة عامة للشوارع، يحصّل ثمن الصور آخر الشهر وتُقبَّل النقود وجهًا وقَفاً لأنّها نعمة من كريم، دون أن يخالج المصوِّر تفكير آخر النهار ما إن كان قد صوّر حاجزًا للنظام أم آخر للمعارضة.

تجمعت التشكيلات العسكرية صباح يوم الجمعة. قرّروا في آخر اجتماع لهم حصر العدسات الكثيرة التي تشكل ثقلًا وضررًا على البلد، واختاروا لهم أعواناً في الشوارع يرصدون لهم من الصور ما شاؤوا، ليكون في ذلك غنى عن كل من لا يعمل وفق جداولهم. يُطلق في هذه الحالة اسمُ مصوِّر فقط على من

منحوه العدسة، واسمُ مراسل فقط على من يرسل أخبارهم.

اضطررت مرّة لأن أقطع وعدًا لفصيل منَحنا فرصة الوصول إلى الخطوط الأمامية للجبهة مقابل أن أذكر اسمه في تقرير عن المعارك قرب دمشق. كانت المحطة تتفهم في هذا الإطار ما نمر به من صعوبات ميدانيّة، لكنّ الفصائل التي لم نذكر أسماءها تفسّر صنيعنا بالتحيّز لصالح فصيل دون آخر ضمن إيديولوجيا معينة. راجت على صفحات الفيسبوك كل تلك الأفكار بتحليلات لا تنتهي عمّا تمليه المحطة على مراسليها، علمًا أنها إكراهات نادرة من صنع الميدان. كان يصعب أن أقنع رجلًا بعمر جدي أنّ المراسل في النهاية إنسان عادي يحتاج إلى إقامة علاقات متعددة تمهد له الطريق لالتقاط صورة الحدث، ولتقليص النيران والمشقة من حوله.

لا تقف الأمور هنا، فقد حدث أن اقترح عليّ فصيل عسكريّ ذات مرة -دون ذكر أسماء- أن يتركني عساكرُه وشأني دون معوقات ومذكرات اعتقال، ودون تضييق دائرة عملي، شرط أن يدققوا لي جمل التقرير ويعيدوا ترتيب مونتاجه حسب منتوجاتهم التي يريدون إبرازها، وحسب شيخهم الذي يريدون إشهاره-حفظه الله-. من يدري ربما يمتلك مشايخهم أيضًا موهبة التحرير الصحفي! فكل المواهب متاحة للفرد مادام السلاح ملك يمينه. مادام لا يمضي لتحقيق أحلام الحالمين من بعده.
هم كانوا ينظرون إلى الكاميرا بتعال وعنجهيّة يوهِم بهما السلاح الناري أصحابه. ويعتبرون أصحابها مجرد صبيان!
أنا كنت أعتبر سلاحي أمضى من أسلحتهم. أنا وكاميرتي من يحدّد الصورة دون إملاءات من أحد.

أخبار "الكلاسيكو" وأخبار الغوطة

لا أعـرف كيـف أفكر بمعالجة شـؤوني، ولا أفهم كيف أدير حياتي وسـط هذا الجنـون. اخـترت أن أقف أمـام بقايا خمسـين قتيلًا ممّن كانـوا يصرخون على الملفـوف والسـبانخ وثمار متوفرة قبل رحيل فصل الخـير "الصيف"، لما انطلق ضغـط ضخم جدًا بمحاذاة قدمـيّ. لا أدري إن دفعني للحركة أو حملني بعنف إلى الجانـب الاخـر، إلى ضفة الرصيف ثم قفزًا إلى أحـد الحوانيت المنكوبة. رأت أمّـي الدخان مـن الجانب الآخر، وقـرأت الفاتحة لأجلي من بعيـد. غادرت أمي المكان وتركت التكفين لعابر آخر.

وجـدت نفسي عـلى حافة رصيـف دكان. توقعـت أن يطردني صاحبهـا لتذمّر الباعـة من أيّ كاميرا توثّق تفاصيل رزقهم. لكنّ الرجل تقبّل رعشـتنا المفاجئة في الفـراغ المهيـب. عندما بدأ لهاثـي.. بدأت الصورة مع الدخـان المتصاعد، مع أحاديثنـا العشـوائية، لم تمر أي سـيارة بعـد. ولم يقف أحد بعتـاده ليربكني. المـوت دفع الأحقاد للهروب من السـاحة وتأجيل الكيد إلى سـاحة أخرى، حتى يكـون للإرهاب قليل من الهيبة. أمام البراميـل الحارقة تضيع هيبة الرصاص. يخـرج رجـل بين حنايا السـوق يحمل الحطب عـلى ظهره وما جمـع من بقايا حانـوت مقفـر في الخلـف. ألقـى التحيـة علينـا وكأنّ مجـزرةً لم تكـن. وكأنّ الغـارة لا ترهب أحدًا عندما لا تمهّد لإطلاق القنابل بتحطيم جدار الصوت أمام جمهورها على الجانبين.

قبـل أن أبـدأ النطق للكاميرا تفقـدت نفسي لأعرف إن كانت الدمـاء منّي أو من مـكان آخر. قمت بصعوبة سـجلت الفقرة مرتـين بارتعاد وقلق.
ضحـك المصـوّر طويـلاً وهو يقول لي لاحقـاً إنّه كان يراني مجرّد جزء بسـيط من العدسة.
عذابات تصوير السـبع سـنين بـين الجثث والجرحـى والهياكل انقضـت كلّها، وهنـاك من النـاس من لا يذكر منها ومنّي إلا جملـة تعريفية وحيدة: "يلّي نزل

عليها صـاروخ عالهوا".
وافاني جهاز الإرسال بالصوت حتى اللحظة التي سبقني بها المصور إلى الجانب الآخر. نسـيت أن المايكروفون في حالة التشـغيل مركون تحت فمي ويرصد عليَّ أنفـاسي. لـم أكـن في وعـي كامـل لأتفقّد الأجهـزة أمام أشـلاء البـشر. لم يكن المصوّر وقتها قد أطلق زر التشـغيل بعد.
بُثّ التقرير دون أن أراه.

ذهبنـا نبحـث عن أقـرب مولّد كهربـاء في الحيّ لأعيـد شـحن البطارية وأضخ الحيـاة في بطاريـة الكاميرا. أريد أن أصوّر تقريرًا جديدًا عن حدث جديد. نكمل طريقنـا في الحـرّ بـلا دليل سـوى تحليـق الطائرة. نسـمعها تقـترب فنركض لأقرب حفـرة، نخرج حين يبتعـد التحليق عن الحفرة.
في هـذه الأثنـاء كان المذيع قـد عرض الفيديو في نهاية النـشرة وانتقل إلى أخبار الدوري الإسباني في نافذة الرياضة!

الأشلاء مفيدة جدًا

كغيري، أبحث عن مِيتة بلون آخر حتى لا تكون حياتي وموتي مثل خراب. لم يحذف المصور لقطات صراخنا في البداية وظننت أن على المحطة أن تحذفها أيضًا قبل العرض حتى لا أظهر مشاعر انفعالي أكثر من مشاعر الحياد. فليس جيدًا في الإعلام إزعاج سموّ المُشاهد ونحن لسنا أجانب أو غرباء عن ساحة المجازر حتى نضطرب.

عاود أبي الندم عن كل جرعة إصرار ومبادئ غرسها في بناته عندما شاهدني أرتعد. لقد وصل بنا المصير إلى هذه العيشة المرهونة بغارة وذرار طحين. ربما جاءه الحدس على هيئة إنسان أنذره بأنه سيدفع ثمن عملي كامل عمره في السجن ما دمنا على هذا الحال.
يلفه الصداع لكنّه يقرّ بحق الأعصاب على صاحبها في أن يترك لها حريّة أن تتلف وتنهار.
تعلم أمّي آخر النهار أنّني بقيت على قيد الحياة. تشاهد الفيديو أول مرّة على الصفحة الرئيسية. أتصوّرها وهي تضمّ يديها على وجهها وتقول: "الله يسوّد وِشّك يا بنتي".
كيف تقابل الناس وتحكي معهم بقوّة وابنتها كانت اليوم على العلن خائفة؟ وهي من عائلة نصفُها جرحى وموتى.
ما نفع هلعي من غارة حارقة بعد خمس سنين؟ سوى أن أخبر من لا يزال يهتم بالأخبار بأنّ الفتيات ما زلن يقابلن الصوت المدمِّر بالاختلاج والزحف، وأنّ الأطفال يقابلون الصوت نفسه بالبكاء والحملقة والصدمة، وأنّنا لسنا أبدًا على ما يرام وإن كان يحلو للجميع بعد مرور الغارة استنباط الأمل والقوّة من الألم.
لا أملكُ أيّ أمل.

أبتعد عن جنون الشارع هذا الليل. أبتعد أيضًا عن جنوني الخاص. في المساء

تهمس رسالة على الفايبر يبلغني فيها مدير المكتب بزيادة راتبي ويشيد بي وبتعاطيّ مع الموقف بشفافية وعفوية.
هناك دومًا "نصفُ موت" يتربّص بي والنصف الآخر ينتظرني بدمٍ بارد.
وأنا منذ زمن أتجاهل عواصفي المتجمدة، الفاجرة بتلك البرهة.

يا ليت أحدا لا يتحدث إليّ. ليت من هم خارج النطاق لا يُسمعوني آراءهم، فانا لا أموت من أجل المال ولا أبيع قطرات دمي بالقِطع النقدية. آخذ النقود كحفنة طحين. ما عساي أفعل بالورق وأنا في هذه الحالة؟ سأظل المنتوفة التي تتصدق عليها خالتها بنصف رغيف خبز وملعقة جبن كلّ يومين، لمجرد أن زوج خالتي يعمل إغاثيًا وأنا فضلت محاكاة الموت بالكاميرا.
ما الذي تغير؟ أموت يوميًا منذ خمس سنوات ولا يحدث شيء في العالم.
استسلمت لوسادتي فارغة المعدة. جسدي لا يحملني من شدة الجوع حتى لكي أطفئ زر الطاقة التي تغذي جهازي المحمول.
الحمد لله ازداد راتبي لكنّي سأنام جائعة!

السكّر غير متوفّر في السوق، ولا أملك لنفسي سمسارً أمينًا يوفّر لي رقائق خبز. سأختبر صدقي من كذبي، هل سآكل وحدي دون أبي الذي أراه بنفس تواقة للطعام؟ وهل سأقبل بالشبع على جوع أختي الرضيعة المقفرة من الحليب؟ ماذا عن البقية؟ أرامل العائلة اللواتي أزورهنّ كلّ يوم. بماذا أتميّز عن هؤلاء جميعاً؟ وكيف أقابلهم بمعدة مثقلة؟ أخاطب نفسي بسرّ عميق، لو كانوا مجرّد أصدقاء لا يربطني بهم عرق الدم لأكلت وشبعت وتناسيت الأمر كلّه.

أتطلع الليلة بما تبقى معي من شحنة إلى اجتماع عاجل للأمم المتحدة يدعو لوقف فوريّ للمجازر في دوما. سيعقدون مجمعهم باسم النكبة على شبع.
تفكيري محصور بسؤال.. كيف سيتسارعون بلهفة على منكوب نفد قوته منذ سنتين؟ تذكرت كل لحظات موتنا فرادى. أسترق السمع لصوت معدتي

المخـزي. أمـرّ عليـه بكبريـاء لكنّـه أخـيرًا يخضعني. أجهـش بالبكاء وأمسـح دموعـي بلحـافي. لا أملـك ترف المناديـل. ليس بوسـع أحد حتى أنـا أن يترجم قهـري وجوعي وإنصاتي لدجاجـة الغارات وحيدة.

العتمـة مخيفـة جدًا حين يرافقها صـوت القصف كالشـبح "ووووووووو.." ويسـحب الصـوت مـارًا ضوءه من فوقي فتسـتفيق مسـاماتي وأنا على وشـك النـوم وفجـأة "دجججججج".
أسـحب مـن نقطة انطلاق الغـارة، من ثكنتها، شـهيقًا طويلًا، وعنـد الانفجار يكون زفيري. جيّد أنّني أسـمعها طبعًا لأنّني إذا لم أسـمعها تكون قد سـقطت عـليّ، وبعـد ذلـك لن تسـقط عليّ سـوى دمعة وكلمتـا رثاء على التلفـاز وفيس بـوك، ويحكي الجيران بقصتي أسـبوعًا ثم ينشـغلون بقصة ميتة أخرى.

دومًا أفكر.. لماذا أمضي في هذا العناء، في مشروع الموت هذا؟
لا أريد أن أكون ببغاء افتراضيًا يهين نفسـه بتكرار نشـيد من سـبقوا. يعشـق السياسـيون التسـليّ بصوت كلّ ببّغاء حزين ليختبروا بنا إنسـانيتهم. من باب العادة أدمنوا سـماع مناشـداتنا ضمن عملهم اليومي. يزدادون ثقةً بأنفسـهم حـين يعرفـون أنّنا مـا زلنا بحاجة إلى اللـوذ تحت جنـاح اجتماعاتهم المتكسرة وبذلاتهم الرسـمية المطوية في الخزانة طَوال السـنة دون محافل رسـمية تتيح لهم ارتداءها.

وهكـذا نحـن مفيدون جدًا رغـم نكبتنا. ما يزال المدافعون عن حقوق الإنسـان ينقـذون بابتهالاتنا عواطفهم المنسـلخة قبـل أن يبلغ تجاهلهم لنـا حدّ الإدمان على الدم.

انتهـى اجتماعهـم. رُفعـت جلسـتهم. تتفـوّق حواراتهـم وتصريحاتهـم عـلى تقاريـري.. يضاهوننـي شـهرة دون أن تحـاول الغـارات قتلهـم عـلى الهـواء مبـاشرة. دون أن يمشـوا خمسـة أيام تحـت التحليق والحـر، دون أن يتربّص

بهـم أحـد أو يفكر باغتيال جثمانهم. دون أن يخسروا فردًا من العائلة أو قطعةً من الجسـد.
يطلّون كالمشـاهير على الشاشـة في اليوم التالي. يأخذون عنّي السـاحة الإعلامية كلهـا. يباشر الطيّارُ عمله فوق سـقفي.
لابد أن أفتح ختم عينيْ.. لترشمها شظايا الصباح.

**

فيلم
"دوما جرح لا يندمل"

يتواتـر حديـث على صفحـات النظام مفـادُه نيّة جنـوده في زراعـة البطاطا في شـوارعنا لتنبـت "البطاطات" مخلوقـات مؤيدة للرئيس بدلًا مـن أهل الغوطة.

مـا تـزال المنطقة في نزوح مضحك؛ أهلهـا ينتقلون من مدينـة منكوبة إلى أخت لهـا مـن أسرة النكبة ذاتها. محلاّتهـا مغلقة، المنصات تـزج بصواريخ "الفيل" في مـكان واحـد كل خمـس دقائـق، تردفها غـارات حادة. بين كل ذلـك يبلغني الزمـلاء في مكتـب تركيا عـن حاجتهم لإجراء مقابلة مصـوّرة مع رجل ثار منذ بدايـة الثـورة دون أن يتلقفـه المـوت، ليدمجـوا أقوالـه في فيلم يعرض مأسـاة المدينة ومجازرها منذ البدء.

إجـراء المقابلـة أمـر سـهل ولكن مع مـن؟ وجود ضيـف من النـاس حولي أمر شـبه منعـدم، وقد زادني اشـتداد القصف أخـيرا حضورا أكبر عـلى التلفزيون، وجعلنـي أكثر وضوحًـا أمام من يلتقيني وأصبحت أخـشى أن تعرَف خطواتي قبل أن أمشيها.

ليـس لـدي وقت. سـيعرض الفيلم يوم غـد في برنامج حواري، مـا يعني أنّني يجـب أن أنهـي التصوير اليوم لأرفعـه ليلًا وتتاح للزملاء إعـادة مونتاجه قبل موعـد الحلقـة. كيف سـأمرّ أمام مخالـب الصواريخ المجنونـة دون أن تراني؟ وإلى أيـن الوجهة والمدينة شـبه خالية؟

لمـع اسـم أبو هشـام في رأسي من بين مـن ذكرتهم أمّي في قائمة من شـاركوا في الثورة وبقوا على قيد الحياة. فكرت بأنّي لن أحتاج سـوى لعبور حارة واحدة، ولـن أواجـه سـوى موجة صاروخيـة وحيدة. قلـت أيضاً إنّني سأسـتغني عن حامل الكاميرا واسـتدعاء مصور. ابن أبي هشـام سيسـاعدني في ذلك. لا أفضل

عـادة تصويـر جيرانـي، فمزمار الحـي لا يطـرب. لكنني لا أنكر عـلى أي حال جهـود أبي هشـام بعد مـا خرجت المدينة عن طاعة النظام، وسـعيه الدؤوب في ترتيب شـؤون المباني ومسـاعدة المحتاجين ممّن عادوا بعد المعارك وقد دمّرت بيوتهم ونفد قوتهم.

عندما كان أبو هشـام يراني أمشي عائدة من عملي وعلى ظهري معدات الكاميرا ذابلـةً منهكـةً كالمتسـولة، كان ينظـر إليّ كمـن يريد ان يقول شـيئًا مـن بعيد، كأنمـا يـودّ معرفة التفاصيل عمّن صورت اليـوم، وكأنّما يريد أن يدلي برأيه في مـدى أحقيّته بتسـليط الضوء عليـه أم لا. وكان إذا ما أراد منّي شـيئًا يناديني بكل احترام " آنسة يا آنسة" ويتوسع في طرح رأيه في ما يجب أن أسلّط الضوء عليـه أثناء حديثـي للقناة.

عندمـا اسـتمع إلى كلمـة "آنسـة" سرعان مـا أزدان بمشـيتي وأعتـدل بوقفتي وأندم انّني لم أرتد ثيابًا لائقة تدل بالفعل على أنّني آنسـة. أرفع رأسي دون أن يرف لي جفن كأنني آنسـة معتبرة فتزيدني ألقابه ثقة بنفسي وأشـعر أن رأسي كـبر وصـار أثقل مـن أثقل برميـل، خصوصًا أنّنـي معتادة على لقـب المعتوهة أو "بنـت القوتـلي ي ي" الـذي كان يناديـني به البعض سـخريةً نسـبةً لاسـم اخترعتـه لنفـسي، بمعنى أن الرجل المنادي عرفني وعـرف أنّني تلك التي تظهر على الشاشـة، فيهزأ بي ليسـتثير جنوني ويعود ليسـمّيني معتوهة. ولكنّي بعد التحاقي بقناة معتبرة صرت أعض على شـفتيّ وأمضي في طريقي دون أن أردّ.

قطعـت الشـارع بسرعة إلى أبو هشـام وأنا ألهث مخافة أن يسـبقني الصاروخ إليـه. تعثـر مفصـل قدمي ببلاطـة الرصيـف. وقعت عـلى ركبتيّ عنـد مدخل البيـت وانسـلخ الجلـد مـن باطن يـدي. تحول معطفـي من كحـليّ إلى رمادي أبيـض. بدأت أنفض الغبار عني بعدما ذهبـت هيبتي التي كنت أودّ التبلور بها رغـم جنـون القصف، فأنا لن أحظى بهذا الاحترام كل سـاعة وأخرى. نظر أبو هشـام إليّ: "اللـه يجيرك على مهلك مالي هربان يا آنسـة".

بما أن أبو هشام يناديني "آنسة" فلن أقول له "حجي". تداركت قولي باعتدال وأناقة وقلت له "عمو" وبدأت أضخم الفكرة في رأسه وأنّنا نحتاج رمزًا ثوريًا مقدامًا مباركًا ضخمًا جليلًا يعبّر عن مأساتنا وما لنا سواك.. وإحقاقاً للحق كان أبو هشام كذلك.

تحمس جاري لفكرة أنه سيعرض مجده الأزلي ضمن فيلم على شبكة الجزيرة. تعاون معي لأبعد حدّ، لكنه يريد أن يتجهز أولًا ويرتدي ثياباً نظيفة. رجوته أشد رجاء وشرحت له أنه لا ينبغي أن يرتدي ثياباً أنيقة، بل على العكس يجب أن يبقى على تعاسته لنصوّر عين الواقع.

أشرت عليه بحاجتي لمكان مضيء نظرا لغياب الكهرباء وسواد الغم الذي يحيط البيت. ذهبنا إلى المنزل المفتوح على مصراعيه لنسهل على الغارات أن تفتك بنا، وبدأت ألتقط صورًا للردهة قبل أن يجلب لنا ابنه فنجانا من القهوة بللتُ به ريقي، لا سيما أنني أتباهى في إطار الآنسة العزيزة. بين الأطباق التي ترتكز عليها فناجين القهوة كان طبق صغير مختبئ وعليه ثلاث تمرات يابسات وقعت عليها عيني.
لم ألمح التمر منذ زمن، تحليت بواحدة بدأت أصورها مع فناجين القهوة. انتفض أبو هشام ليبعد عني صحن التمر من أمام العدسة: "الله يسترك دنيا وآخرة، بلا ما يقولوا عم يجيني دعم من السعودية علب تمر. كلّها هالعلبة من تلات سنين".

طلب مني حذف اللقطة مباشرة، ثم استرسل في أحاديث جميلة عن ذكرياته أول الثورة حين كان الناس يحب أحدهم الآخر. وكان الرجال رجالًا عند كلامهم يغيثون الضعيف والملهوف وينتفضون لقول الحق، ومواجهة سلطان جائر بالحناجر والصدور العارية.

ألحّ عليّ جاري قبل أن أرحل ليعرف موعد عرض الفيلم حتى يخبر ابنته

المتزوجة في السعودية فترى صور أبيها وتطمئن عليه. كنت متأكدة أن الفيلم سيعرض يوم الأربعاء المقبل أي يوم غد.
وبالفعل استأجر الرجل مولّد كهرباء صغيرا وظفر بأربعة لترات من وقود بلاستيكي ليجهز سهرة مع فناجين القهوة والبذور اليابسة على فيلم هو فيه البطل. طاف على رجال الحيّ واحدًا واحدًا ودعاهم ليحضروا هذا المساء سهرة على شرف ظهوره التلفزيوني الأول. تباهى كثيراً أمام الأصدقاء بأن الفيلم سيعرض قصة حياته. اتصل بكل الأقارب والعائلة خارج البلد وداخلها. ظل يلتقط شبكة هاتف محمول طيلة الليلة ليخبر من لم يروه منذ زمن أن فرصتهم تحين هذا الأربعاء.
أخيرًا عرِض الفيلم.
دوما جرح لا يندمل.
جلس الجميع بشغف أمام التلفزيون ومولّد الكهرباء ينتظرون إطلالة أبو هشام. انتهى لتر الوقود الأول ولم يظهر. قال لأصحابه إنّه سيمدّ المولّد بلتر آخر فبالتأكيد هو موجود في هذه الحلقة. جاوزت الساعة التاسعة وشارف اللتر الثالث من الوقود على النهاية وأخذ النعاس من أهل الحي مأخذاً وأبو هشام لم يظهر بأية لقطة!

كنتُ في اليوم السابق قد رفعتُ المقاطع على عجلة من أمري وأبلغت كل الزملاء رجائي بعدم قطع أي جزء من المقابلة في الفيلم لأن الرجل في المقابلة يكون جاري، أي أنّ بابه مقابل بابي وجدرانه مقابل جدراني، بمعنى أن عيشتي ستنقلب جحيمًا إن أخلفت موعدي. رجوت مكتبنا ألا يمرّر الفيلم دون جاري مهما كلّف الأمر.

لكن الفيلم أنتج على عجل وأرسِل إلى غرفة الأخبار للبث ولم يعد بوسع أحد التصرف. توقع الزملاء أن الوقت والإنترنت لن يسعفاني لأنجز المادة بالوقت المطلوب. لم أخبر جاري، وقلت في نفسي: "أقول له تأجل البث ريثما أتدبّر أمره وأزجّ به على الشاشة في مادة ثانية".

كان أبـو هشـام وصحبته قد أنهـوا لتر الوقـود الرابع وأحضروا لـتراً إضافياً. ظلوا يراقبون الشاشـة حتى نشرة الحصاد الأخيرة، ويا لأسـفهم شاهدوا طبيباً من مدينتنا يتحدث عن المجزرة بدل أن يشـاهدوا تعليق ممثلهم أبي هشـام.

غادروا الحارة بعد ما أشـعروا أبا هشـام بخزيه أمامهم ــلم ينم ليلتها بعد كل ما فعلتِه به يا آنسة-
لكـن امتعاض أبي هشـام حرمه مـن النوم. دقت يده على بـاب مبناي في الليل. كـدت أهـرب مـن خلف البـاب، ولكنّي سـمعت صوت ابن أبي هشـام "بيسـلم عليكـي أبي وبيقلك شـو صـار بالفيلـم؟" بيّنت لـه اللبس الحاصـل، وطمأنته بـضرورة اسـتدراك الأمر في اليـوم التالي. قد يعرض غـدًا او بعد غد.

في صبيحة اليوم التالي عدلتُ على سـيناريو التقرير الذي أعدّه عن وضع المدينة المنكوبـة، وبـدأت مادتـي بقصـة أبي هشـام منذ بدايـة الثـورة إلى يومنا هذا. أرسـلت المقترح إلى المحطة على الفور لأضمن أنّ أبا هشـام ضمن الخطة وأنهي هذه المعضلة الوشيكة.

ذهبـتُ لتصويـر إعـلان الدفاع المدنـي نفاد مخزونهـم الطبـي بالكامل وهناك اعترضني أبو هشـام.
- يا آنسـة الله يسـامحك بس شو صار بالفيلم اسـتأجرت مولّد كهرباء وظلينا سهرانين لآخر الليل.
بالغت له بأشـد الأعذار وبقيت عشر دقائق أبرر موقفي أمام حضرته ثم وعدته بالعـرض خلال يومـين آتيين. حالما رجعت كان ابنه ينتظرني ويعاود السـؤال عن الفيلم ناقلًا لي سـؤال أبيه وسلامه مرة أخرى.

شـباك أبـو هشـام يطل عـلى شـباكي، وباب بيتـه يقابـل بيتي، ويسـتطيع أن يرانـي كلّما ذهبت وأتيت. بات يطرق بابي كل سـاعة ليعـرف ماذا أنجزت من التقرير ومتى سـيعرض ليبلغ كل حاشـيته قبل الموعد المحدد. آه يا أمي، حالتي

تصعـب عـلى الكافر. أخفض رأسي من خلف السـيارات أثنـاء رجوعي، وأختار وقـت خروجـي من المنزل قبل أن يسـتيقظ جاري، ولا أعـود إلا عندما يخلد في بيتـه. أركـض كاللصوص في أوقات الغروب حتى لا يراني ويسـألني من جديد عمّـا لا أملـك جوابه. وهكذا صار أبو هشـام يعمل مع الصواريـخ في إرعابي، وجعلنـي أنـدم على كل فرحـة فرحتها احتفاءً بلقب الآنسـة.

ظـل يـدق في اليوم كل سـاعتين ليتأكد، بل صار يقول "شـو صـار معك عمي" وخـسرت لقـب الآنسـة بقية عمري. آخـر مـرة رأى أمّي في الحـارة، وكنت قد أبلغتهـا عـن موعد العرض يوم غد، لكنّها خشـيت أن يحدث كما المرة الماضية فحـدّدت له موعـدًا من تلقاء عقلها وأخبرته أن البث يـوم الأربعاء وأنّ عليه أن ينتظر فالموضوع ليس سهلًا.

نتيجـة الأحـداث المتلاحقـة تأجل بث التقريـر يوماً آخر. وضـع في خطة اليوم الـذي أبلغـتْ بـه أمّـي الرجل بالموعـد. وبمـا أنّني أخلفـتُ معه الموعـد مرتين وصدقته أمي في موعد وحيد فقد أصبح يشـيع بين أهل الحارة إنني بالأصل لا أفقـه في عمـلي وأنّ أمّي تعـرف التفاصيل أكثـر منّي. بل إنّها هـي من وظّفني ودعمنـي في قنـاة الجزيـرة، وأنّ القناة تخـبر والدتي بمواعيـد عرض النشرات والأقسـام التي ستعرض فيها.

حالمـا عُـرض وجه أبي هشـام على نـشرة الثانية عـشرة ظهراً ألقيـت معطفي فـوق ثيـاب النـوم وهرعت من الفـراش لأخبره بذلـك. لكن الصاروخ سـبقني إليه.. وقتلت شـظاياه مولّد الكهرباء وخسـفتها مئة قطعة. راح يخمد الحريق المنبعث من الوقود ويفكر ماذا سـيبيع من داره ليسـد لصاحبها ثمنها الباهظ.

بعد أكثر من شـهرين عبر جاري بنفسـه على اليوتيوب عبوراً سريعاً، وخسرتُ أنـا ما تبقـى من هيبتي في الحارة، رغم أني وفيت بوعدي ولو بعد حين.

**

2015/8/30

واتس آب

هـلّ هـلال ليلة أخـرى. ذهبت من جديـد إلى المـوت برجليّ في الظلمـة، لأحظى بحـق الثرثـرة على وسـائل التواصل. يجـب أن يتفعّل عندي الواتـس آب مهما كان الثمـن. لـم أكن وحدي من اسـتنتجت نظرية تسـاوي المـوت والحياة على كفـة طرف واحـد والمخاطرة على أكثر من محور لسـبب تافـه. لقد توصل لها عشرات لما كانت أجهزتهم الخلوية تتوقف عن الإرسـال، فيقرّروا الخروج مثلي في منتصـف الليـل إلى أعـلى الجسر الوحيـد في المدينة. كانت الطائـرات قد بدأت جولتهـا الليليـة، وصـارت توجّـه قنابلها إلى أيّ ضـوء تراه.

اتخـذ كلّ واحـد من المغامريـن درَجة في الجسر المهدوم عـلى مرمى الصواريخ، ليتمّـوا عليهـا مكالماتهـم دون أن يأبهوا للأضـواء المنبعثة مـن الهواتف النقالة وقـدرة الطائـرات على رصدها. اسـتوت الأمـور وأصبح الكل من شـدّة اليأس يقـول: "اللـه لا يفـرج، اللـه لا يرحم حـدا". وصلَني الكود.. عندمـا وصلت إلى حـدّ تقمّصـت معه شـخصية أبـو "عامر" الواقـف في الطرف المقابـل على بعد فرسخين مني لا يراني ولا أراه، ولكن تغريني القصص الخاصة التي لا تُعرف إلا مـن فـوق الجسـور وفي العتمـة، وكأنّ قصـصي لا تكفينـي. أُسـدِل الظلام تمامـاً، لا تُـرى إلا نجمـة واحدة في السـماء والطريق هادئ ومرعب فلا يسـمع النـاس سـوى أزيـز الطائرة. أنا أسـتمع إلى "ريمـا" التي يتحـدث إليها الرجل بكلمات الهوى. كلمات لا تشـبه التي تسـمعها مـن الرجال في النهار:

- عـودي إليّ.. أخبرتـكِ أن مـن يخـرج مـن الحصـار لن يعـود أبداً إليـه. ماذا أفعل هنا وحدي؟
- تعال إلينا، الكون عندي مختلف جداً نحن في كوكب آخر.
- برا متل جوّا بس جوا ملمومين.

يتجلى صمت وأغنية حميميّة تتهادى بينهما..

- هون أمان خلي الولاد يرتاحو وانت بس الله يسرلك طريق بتطلع.

انقطعـت المكالمة وظلت الأغنية الحميميّـة تتحدث عنه. لم تجبه ريما بالغصَص ذاتهـا التـي كان يحكيهـا ولا باللهفة نفسـها. أخبرتـه أنّها سترسـل الطفل إلى المدرسـة غـداً، وأنّ عليهـا أن تسـتيقظ باكـراً، وبـلا اسـتحياء أنهـت المكالمـة. لتخـترق الأغنيـة الأجواء بصوت أعلى، شيء من القشـعريرة والذكريات القديمة يتسـلل. أبـو عامـر الآن وحيـداً يعيش كل التفاصيـل بمفـرده. زوجته وطفله يـسردان قصّتهمـا في عالـم آخر وشـؤون أخـرى، ولن يشـعرا به أبـداً. ها هو يخاطر بحياته من أجل كلمتين منها. فكّرت أن أسـأله عن القصة ببساطة وعمّا إذا كان يجلـس هنـا يوميـاً ليلتقط شـبكة تخوله التحدث إلى التـي يحبها، لكنه سـيرتبك جـداً لو عرف بوجود فتاة عـلى مقربة منه.. "المرتفعـات والليل عندَنا للذكور، حتّـى وهم يرجون عودة نسـائهم اللاجئات".

تـدقّ يـد خالـد فـوق كتفـي مواربـة كل الأخيلـة "حنمـوت، ومـا كان يتفعّل الواتـس معـك، خلّينا نمشي مـن هون".
مـن غـير المنطقـيّ أن أقول لخالـد إنّ أبا عامر لا يـزال واقفاً يسـتمع إلى أغنية حميميّة فلماذا نخاف؟..
غادرت المكان والمكالمة تدغدغ فيّ شباك الذكرى.

كيـف صـار أبو عامر وعامر خطّين متوازيَيْن؟.. كيفَ صرنا السـجناء في الهواء الطلـق؟ كيـف صـار الحصار أسـطورة بعيدة عمّـن لا يعيشـها؟ كيف صارت مسـاراتنا وأشواقنا في هذه الغوطة المتعوسة حكراً علينا وحدنا كبضائع قديمة لا أحـد يحتاجهـا فلا نبـاع أبدا، ولا أحد يقبل أن يشـترينا ولا وقـت لديه حتّى لكي يسمع قصصنا؟

وضعـتُ الكـود في مفـترق الطريـق قبـل أن تغيـب التغطيـة الآتية مـن ناحية الجـسر.. عـاد الواتـس آب إليّ كمـا العطـر اليـوم، محمّـلاً بقصـص الهجران، بغمّـات الفـراق، بالذاكـرة ومولّداتهـا التـي لا تنضب.

**

2015/9/17

الوميض الثاني

فلاش باك

يصرخ خالي من أسـفل المنزل، فأحمل حقيبة سـكرية اللون وأنزل إلى السـيارة. يمتنع عن إخباري إلى أين تقودنا الجولة عادة. "سـتعرفين عندما تصلين" كان يقـول. التقيـت هنـاك لأول مـرة رجلا يدعـى "أبو رفيـق". حينما أتـى بي إلى بيت فقير في التقاطعات الأخيرة التي لا نحسبها جزءًا من مدينتنا. كان اسم أبو رفيق مشهورًا كثوري يحب البلد وأهله يحبونه.

لم أكن مراسـلة بعد. كنت نحيلة من شـدة الحركة مع قليل من اللحم يكسـوني . أحمـل عـلى ظهـري حقيبـة وبداخلهـا كل الأدوات الطبية اللازمة للإسـعاف الـسري السريـع. يؤوي "أبو رفيق" شـابًا في بيت بعيد عن أعـين النظام مصاباً في فخـذه ولا يسـتطيع رجـل بمفرده أن يسـلك الطريق حيث هـم، فلا يجد أبو رفيق من يسـاعده في تلك اللحظة.

نزلـت من السـيارة وهرولت إلى البيت حتى لا يغـدر بنا الظلام، فخطوات خالي الـذي يتجـاوز من الطول مئة وثلاثة وتسـعين سـنتيمتراً تصـل إلى الباب قبلي دون ركض.
يفتح أبو رفيق الباب ويدخلني فورًا.
- فوتي أختي فوتي الله يحميكي بجاه النبي.

يئـن الفتـى المصاب برصاص القناصة أمامي. سـدت القسـطرة المعلقة بعروق يـده وحالـت دون قدرة "أبو رفيق" عـلى حقن الإبر اللازمة فيهـا. أغير له على مـا اسـتطعت من الجرح وأعـاود فتح وريده بالقسـطرة. أقرأ في عينيه شـكرًا وإكبـارًا لمجيئـي. نشرب القهوة وننـصرف، وأعود إلى المنـزل محملة بأحاديثي عـن صمود الناس أمام الرصاص.
لقاء فات أوانه وصار ذكرى، بعد أن تملكت الكاميرا وتجرأت على إظهارها.

ظلّ "أبو رفيق" يراني من وقت لآخر أثناء جولاتي في الإسعاف ثم التصوير. وظلّ يبدي استعداده لمساعدتي ولم أنتبه مرة واحدةً إليه. حينما كنت لاعبة أساسية في ميدان إسعاف الجرحى قيل لي إنّ دوري في ذلك مهم، خصوصا أنني فتاة يصعب على أيّ رجل أمن أن يتخيل احتواء حقيبتها على مخزن إسعاف كبير. وأني ابنة مدينة تبدي حرصاً كبيرًا في موضوع المرأة. كان هذا في الفترة التي بدأت أتنصل فيها من عمل الإسعاف جزئيًا بسبب حادثة مؤلمة دمّرتني من الداخل، وحتمت عليّ أن أهجر الجرحى حفاظًا على ما تبقى منّي ومن إنسانيتي المذبوحة.

قلتُ لنفسي: لا بدّ أن أنتبه حتى لا أرى في كل إنسان "باذنجانة!".
في ذلك اليوم التقيت شابّا يدعى فداء، جاء إلى منزلنا عن طريق أبو عامر، وهو قائد مجموعة في الجيش الحر. كان يريد أن يكسب ودّ هذا الشاب ليدعم الكتيبة إعلاميًا ويظهر قوّة أفرادها ومطاردتهم لقوات الأمن. فوجدني أقرب الناس إليه من العارفين بالأمور التقنية، حتى لا يُحرج الرجل المسنّ أمام الشاب لعدم قدرته على مواكبة التكنولوجيا. أنا ابنة الجيل الصاعد وأدندن على الآلة ذاتها حينما أنهي إسعاف جريح. أحمل في الحقيبة كاميرا أو هاتفا في جيبي لأوثّق اسم الميّت أو المصاب والطريقة البشعة التي قضى فيها.. بهذا الشكل..
"الشهيدة ندى المشعود.. الله أكبر. قتلت برصاص قناصة عصابات الأسد المجرم أمام منزلها، وهي جالسة في محاذاة الشباك".

كانت حميتي ودمي الفائر ضد المهانة يقوداننني لأعمالي حسب تدرجها في الموت على مبدأ أيهما أهم؟ أسعف من سيموت أولًا حتى لو كان الثاني يتضور بالصراخ والنزف. لذلك تركت التظاهر والتصوير اللذين استحوذا عقلي منذ البداية، ولم أعد أجد عملًا أهم من إنقاذ إنسان.

فداء، الشاب الوافد من مدينة أخرى. كأي شاب من جيلي في أول طلعته:

كث الشعر، حليق الذقن والشاربين. يبلل شعره بالـ"جيل" ويرتدي بنطال "مارينز" طويلاً وكنزة ضيقة ويتعطر بأغلى العطور. يلبس خفًا رياضيًا يجسم نهاية قدمه والكاميرا لا تفارق يده.

ذهبتُ معه مرّة إلى إحدى الحارات القديمة ليصوّر مشاهد رمي المارّة بالرصاص. استوقفنا رجل بدينٌ من أهلها عندما لمح وجهًا غريبًا عن الوجوه المنخرطة باللثام والنيران. وقفتُ لأشرح للرجل أنّ هذا الشاب هو ابن البلد، ولكنّه إعلامي جاء من مدينة أخرى ثائرة أيضًا. وقبل أن أنهي كلامي تشتعل المناكفة والمشادة الكلامية وتتحول إلى "هوشة" فأيّ رجل غريب قد يكون جاسوسًا. تجمهرت مجموعة من الرجال، ثمّ بدأوا في ركله تمهيدًا لسحله. زحف أبو رفيق إلينا فعرفني وتذكّر معروفي في إسعاف شريكه ففضّ التجمع على الفور وصرف كلّا إلى سبيله.
زحفت أنا وفداء في أكثر الجولات الصحفية جنوناً على طريق مجنون خارج دمشق.
في هذه الجولة لم يكن "أبو رفيق" المنقذ، ولا نحن كنّا نعرف كيف ستنتهي.

تجار الجرود

وصلنا إلى نقطة مسدودة. نحن أمام موت محدق برصاص مباغت.
- لا أريد أن أسمع منكِ حرفًا واحدًا حين ندخل مقرّ الرجل.
يدخل فداء هذا الجرد لأول مرة. ومن الطبيعيّ أن يخاف على فتاة بين الجبال. ثمّ إنّه لحدّ الآن لم يسترشد بعلامة تدلّه على المكان.
يهمس بأذني بصوت خفيض:
- تفضلي لنلق على هؤلاء التحية ولنجلس عندهم قليلًا ريثما نهتدي لطريق.
ويستدير إلى رجل خمسيني:
- أبا عبد الله أتيت من دمشق قاطعًا أكثر من أربعين حاجزًا، والحمد لله وصلت. ساعدني من فضلك لأجد هذا الرجل وأخرج ورقة من جيبه كُتب فيها العنوان.
يأخذ أبو عبد الله الورقة من يده.
- ما اسم رجلك؟
- عمران.
- يسأله من جديد إن كان متأكدًا من حروف الاسم في الورقة، ثم اتجه إليّ بعد ما أكد له الشاب ذلك.
- وأنتِ يا آنسة أتعرفين عمران؟
- لا.
- إذًا لم أنتِ هنا؟
يجيبه الشاب مقاطعًا:
- إنها قريبتي جاءت تجري لقاءً صحفيًا مع عمران ولا تعرف أحداً في الجرود، أرجوك وجّه أسئلتك لي فقط.
غضب أبو عبد الله من الشاب بطريقة غريبة رغم توقعي بمعرفة متينة تربطهما، لكن الأمر لم يكن بينهما على ما يرام. بدأ يتضح ذلك في ملامح أبو عبد الله حين قاطعه فبدأت ملامحه تتغير.
- أنا من أحدد أسئلتي ولولا أنك في ضيافتنا لوضعتك في "طبّون" السيارة واعتقلتك على الفور.

بدت الصدمة واضحة على وجه الشاب.
- لِمَ تحدثني بهذه الطريقة؟ يبدو أنّك لا تعرفني جيداً.
- هه.. من أنت؟ لم يحصل لنا شرف معرفتك.
- أنا من يأتيكم كل أسبوع لنقل البضائع الخاصة، وأعرف كل تجار فليطة ويعرفونني إن كان في قلبك ريبة تجاهي، فاسأل عنّي وسترى. أنت تعرف أنني لست غريبًا عنكم وأنّه لا يمكن لغريب أن يدخل أرضكم حيًا. أنا حلقة الوصل التي ترتكزون عليها من وإلى دمشق. ولا أريد المبيت هنا. أسأل عن عمران ليعبر بي إلى الرستن، فالفتاة لها عمل هناك.
- لا أحد يعمل على هذه الخطوط ما لم آذن له.. فهمتني؟
أقاطع فداء على أنني إعلامية ذات خبرة: عفواً حجي أريد أن أعرفك، أؤكّد لك أنّ هذا الشاب يعمل معنا لأكثر من قناة تلفزيونيّة، وقد أجرى لقاءات وأنجز تسجيلات حساسة في رنكوس عند قائد فصيلكم في اليوم الذي نصبت لكم الفرقة الرابعة كميناً كاد يودي بكم وإليك الفيديوهات إن كنت لا تصدّقنا.
يسمعني فداء وكله خشية أن أعاند كلام أبي عبد الله بحرف فأذهب بنا إلى الهاوية.
لكن أبو عبد الله سألني بعد أن اتضح أنه مقتنع بكلامي.
- وكيف أتأكد أن هذه المقاطع قد نشرت فعلاً على التلفزيون وأن النقيب راض عنها؟
طلبت منه أن يدقق بشعار القناة على الفيديو ويتأكد من الأمر بنفسه. لكنه لا يزال يسأل.
- إذًا لِمَ تسألون عن عمران؟ أم أنتم دسائس إعلامية علينا وعلى قائدنا؟ انظري للبارودة عمّي. آخر رصاصة أطلقت منها كانت نحو رأس عمران ليلة أمس.. قتلناه ودفناه في "الحوش". من يدري ربما تكون الرصاصة التالية برأسك أو برأس هذا الأبله. عمران خائن، وإن سمعكم أحد تسألون عنه في قريتنا سيلحقكم بقبره. خذوا كاميراتكم وانصرفوا.

لم يكن الشاب واعيًا كفاية ليرتب الجولة مع جميع المهربين قبل اصطحابي،

ولـم يعتـد أن يدخل هـذه المدن من قبل على طرقات إن مـرت خلايا النحل فيها دفعت ضريبة العسـل من جيبها.
مـا كان لفـداء أن يمـر قبـل الحـرب عبرهـا لـولا الحاجـة. أطمئنه عـليّ في أي طريـق مشـتبه نخطوه، أطلـب منه ألاّ يفكر بتعبـي، ألاّ يضع حياتـي في قائمة حسـاباته، ألا يخـاف علي، وهـو لا يقول شـيئاً. في الحقيقة أظنه مـا كان يهتم كثـيرا بموتـي، إن حصل.

لفداء رفاق شـبان لا يدخلون مواطن فالتة مـن يد القانون. لم يعودوا يلازمونه كمـا كانـوا يفعلون لأنهم لا يجيـدون ارتياد عالم المهربين مثلـه. ثمة خوف كان يلازمهم أينما حلّوا عندما كانوا يرافقونه. أصبحوا يتحاشـون الشـبهة بسـببه. كان الوحيـد بينهم الـذي يظهر على التلفزيون بصورته من قلب "دمشـق".

فكّـر ملياً قبـل أن يأخذنـي. لـم يكـن هنالـك فيّ شيء يمنعـه. أحمـل قميصًـا احتياطيًـا في الحقيبـة التـي تلف خصري. أبـدل قميصًا وأغسـل الآخر مرّة كل أسـبوع. دوماً في قمّة الجهوزية لتجربة التسـكع. أخفي استغرابي من السجائر الملفوفـة كأنّما أشـمّها من بلاد أخرى. أنظـر إلى البندقية كطفلة ترغب أن تفهم كيـف يطلـق منها الرصـاص. كانـت أول قطعة هممـت أن أحاورهـا، إلا أنني اضطـررت لتجاوزهـا لئلا يفهم التصرف ملهاة واسـتراحة من وعثاء السـفر. أدلـف خلف فـداء بالكاميرا أينما شـاء، فأكثر ما يحتاج إليه هـو المصور، وهذا أهـم بند أملاه عـليّ قبل الانطلاق.

لـم يكـن أبو عبد اللـه الذي اعترض طريقنـا على وئام مع فـداء كما كنت أظن، ويبـدو أن فـداء لـم يتلعثم من فـراغ. الأمر لم يكن محسـوبًا.

تدخلت بنية تبدو حسـنة عندما بدأ يسـتفيض باسـتخدام حرف الراء يلثغ كلما فعل. رحت أحادث أبا عبد الله بأحاديث غير مترابطة عن توظيف إمكانياتنا بما ينفعهـم، وبأنه لن يسـتفيد منـا إلا إذا قرّر لنا النجاة من المـوت. تراوحت عينا

أبي عبد الله بين الشـارع والحوش ليختار لنا أحد المصيرين.
يتدخل فداء بجملة أثارت جنوني. قال له:
- إن كنّا موتى فستكون ميتاً.. لا يليق برجل بمقامك أن يندم.
هنا تنفسـت بعمق ورفعت إصبعي لأنطق بالشـهادة. عندما بـدأ الحديث يأخذ مجرى آخر لم أعد أفهمه وكأنه بلغة أخرى. أذن لنا أبو عبد الله بالانصراف في ظـروف غامضـة، وهنا قررت الرجـوع. فالمكتوب بين مـن عنوانه، لكن طريق العودة لا يلوح في الأفق.

أجـبرت عـلى المـضي عـلى أنّ أبـا عبد اللـه رجـلٌ التقينـاه وانتهى مـن قاموس حياتنـا. كان مجـرد سـوء تفاهم وها هو يتركنا نمـضي في طريقنا رغم التهديد اللاذع.
تابعـت الطريـق رغـم أن عمـران صديق فـداء مقتـول وخائـن. سرتُ وأكملت اللعنات والمفاجآت التي جاءت كلها من وراء اسـمه. ألومه وأحكمُ على الأشـياء دون الإصغـاء لرأيـه. أفضـل جملـة يقولهـا: "لـم تتفهمـي عقلية هـؤلاء منذ البدايـة". كمـا أن أفضـل حديـث عنـده يفضي أنـه سـيكون شـهيداً في القريب العاجـل. وعندمـا يخبرني بشـعوره بالموت عمّـا قريب. أرفع يدي إلى السـماء مباشرة لأقـول آمين.
ثم أستدرك التأمينة:
- سيموت الجميع إلاّ أنت. الموت يختار الأنقياء وأنت من سلالة إبليس.

في البـدء اعتقـدت أن فـداء يشـد عضـده برجل قوي مسـموع الكلمـة، أما الآن فأنـا أتهكم عليه على طول الطريق:
- مـا الـذي أكد لك أصلاً أن عمران ليس مندسًـا بالفعـل؟ وأننا لو ذهبنا إليه ما كان ليجرّنـا إلى حبل المشـنقة. أنت تثق برجال ذوي وجهين.
لقـد أفسـد عليّ خريطة طريقـي الجميل. لو أنّني ذهبت دونـه لفرش لي طريقًا من الورد ولأوقفوا حملات التهريب هذا اليوم على شرف قدومي.
لـم يجـد فداء مـن إيقافي عن الثرثرة بدًا إلا ليخيرني، إما أن نعود إلى دمشـق أو

نكمل الطريق إلى الرستن بلا أي اعتراض.
قلت: "توكل على الله، لكني ما أزال أعترض".

استدعى أقرب شاحنة مارّة تحملنا لأي مكان كي نغيب عن أعين أبي عبد الله. صعدنا على الفور كمن أهدي لهما مليون ليرة، ومضينا في طريقنا بإمرة سائق في المساحات المزروعة، لا نعتمد على فلان أو عمران.

على طرقات خطرة موحلة كان الأجداد القدامى رغم جهلهم يهتدون إلى المدن بنور الشمس، باستدلال ببركة ماء، بسرب عصافير، مواء قطة، مخطوط، تعويذة، أي شيء حتى لا يموتون تيهًا بين الأدغال.

أستنكر أن أموت على هذا الطريق. ماذا لو خيّم الظلام ولاحت الذئاب فجأة؟ ماذا لو اعترضنا حاجز للأمن وطلبوا منّي الهويّة. لنفترض جدلاً أنّ الحاجز العسكري لم يطلب هويتي وأنّ قائمة المطلوبين بيده لم تتضمن اسم فداء. ماذا سأقول لهم عن الكاميرا والحاسوب؟
لا يساورني أدنى شك في أنّني سأكون مكبّلة مجلودة عند النظام. أو كبش فداء عند الجيش الحر باسم رجل لا نعرف عنه شيئًا ولا يزال فداء يقنعني بأنّه رجل نبيل.

من أين يعرف هذا المجنون عمران؟ وكيف سنقطع الجبال بهذه الشاحنة وحدنا؟ السائق رجل نصف أبكم، يقفز بالشاحنة كأنما زج بغنمتين في الخلف، ويستدل عن الشوارع من وحي مخه. مضت أربع ساعات ولمّا نصل إلى أيّ مكان. أفقت من شرود ذهني، خبطت من الخلف إلى الأمام على شباك الشاحنة، يكاد يخرج حلقي من بلعومي ولا يسمعني السائق من ضوضاء الشاحنة.
ثم نزل السائق أخيرا. قلت له: "بالله عليك يا رجل اسأل أي شخص عن الوجهة الصحيحة. إلى أين تأخذنا؟ أأنت متأكد من أنك تعرف الطريق؟"

يصيح فداء: "خلص لا ترد عليها.. كمّل أخي.. كمّل".
حملقت به: "سنموت دون أن يسمع بموتنا أحد، أيكون دليلك هذا أفضل من عمران؟ هذا السائق سيجلب آخرتي وآخرتك، وأنت ما تزال تضحك".

كان عمران من خيرة رجال حمص على ذمة أقوال فداء، يخدم في الجيش برتبة ملازم أوّل. قدم للجيش الحر معلومات خاصة عن موجة اعتقال كاسحة للثوار في حي القابون، كان يريد النظام اعتقالهم أحياء.
يسألني فداء: أتذكرين نزار وغياث وأبا الوفا.. لولاه لكانوا جميعًا في سجون تدمر وصيدنايا. قبل أسبوعين فقط حتى أتيحت لعمران فرصة الانشقاق. لقد قصد القلمون ليؤمّن نفسه. لو عرفت نيّتهم في قتله لأرسلناه من ثكنته إلى القابون بزي امرأة لا من رأى ولا من درى، آه لو تعلمين. اعتقال عمران على حواجز الشام كان أزكى له من الموت في القلمون باسم خائن.. الله يحسن ختامنا.

كانت الدنيا أواخر شهر أيار من عام ٢٠١٢.
نحن فوق شاحنة أتذكرها من نوع هوندا مليئة بالخدوش. يوضع فيها الغنم في العادة. رمانا السائق في الخلف، وألقى على وجوهنا "بطانية" كي لا نتلظى بحر الشمس فوق المعدن.
ما زلنا بين الجبال تائهين حتى الآن، لا يلوح أمامنا خيال رجل واحد يدلنا على مداخل حمص. وأنا منذ يومين لم أنم، ولستُ معتادة على مواصلة يومين كاملين هكذا. الطرقات دامسة خطيرة تشد أعصابي وتشوشني. عندما أستسلم لفكرة عدم الوصول قبل مغيب الشمس ستتحول الجبال إلى ساحات قطّاع طرق. وسيستحيل عليّ أن أنام في شاحنة. فداء متيقّنٌ من الوصول قبل الغروب، لكنّني غير مطمئنة ليقينه.

لمحنا عصا راعي غنم من بعيد. ناداه السائق ليسأله عن أقرب مولج، لكنه لا يوصينا بالدخول خيرا، خصوصا أن الشمس إلى زوال.
كانت الراجمات في ضيافة المدينة. ضوء السيارة قد يثير شهوة إطلاق

الصواريخ باتجاهنا. القناصة يحتلّون أعالي البنايات، ينصبون أسلحتهم ويتخفّون بلون الطبيعة المحيط. على السائق أن يأخذ حذره، لكنه لا يمتلك الشجاعة الكافية ليعبر، ولا الدقة اللازمة لتحديد مواقع إطلاق الرصاص.

نصحنا الراعي أن ننضوي إلى صباح غد، وقال السائق لفداء: "الوضع خطير على أختك". عندها توجه فداء إلى السائق بغيظ: "الوضع خطر على أختي أم عليك؟".. أخذ السائق يتمتم. ثم طلب منه أن يدلّنا عن دوار مناسب للاجتياز. ثمّ أخرج من جيبه حزمة نقود وعرضها على السائق ليبيعنا الشاحنة ووعده بإرجاعها له سليمة حينما نعود.

رفض السائق الدخول بشدة، ورفض بيع السيارة. أومأ فداء لي فاقترحتُ بصوت عال أن نسلك الطريق ركضًا كي نختبر إصرار السائق ونستفز أخلاقه فيدخلنا محرجًا.
قلت لهما: "إن العتمة بدأت للتو، والطريق مناسب لتجوّل الغرباء"، لعل السائق يعجب بالفكرة. وبالفعل، يدوّر السائق مفتاح الشاحنة، يعاكس وجوهنا بضوئها. هنا حملنا حقائبنا بسرعة وتجهزنا للركوب كالأغنام بسعادة. قطع السائق الدوّار ومشى بأقصى سرعة إلى شاحنته بدوننا ليعود من حيث أتى، بعدما عرف مكان الوجهة والعنوان المقصود.

المجنون صدّقنا، وفسر استفزازنا لرجولته رغبة في عبور الدوار راكضين.
ذهب وتركنا نستقبل الليل على طريق مقطوع.
نحن على حدود أحد مداخل حمص. لا مُشاة، لا إنارة، لا بيوت. نلف بهواتفنا بين الشجر بحثًا عن إشارات تغطية. لم نغامر بالدخول ركضًا لأننا لا نعرف طبيعة الطرقات هناك، ولا نملك أدنى فكرة عن نوع الأسلحة المحيطة بنا، إلى أن جادت خطوط التغطية بالفرج. ووعدٌ هاتفي يفضي بإرسال شاحنة تنقذنا من العراء.

كان فداء قد أمعن النظر بإمكانية إشهار الكاميرا في وجه السائق الجديد إذا ما أتى. كيف سنوثق القنص بكاميرا رديئة على الحواف بلا أضواء، عدستنا بالكاد حتى تكشف لقطة نهارية، وما هذا التقرير الرهيب الذي سنصوره ليلا بهذه العدسة السخيفة. تابع فداء تسطير مواقع تصوير الجولة. ونسي أني لم أنم منذ عودتنا من وادي بردى قبل يومين. إن كان هو يعامل نفسه كالملائكة لا يأكل ولا يعطش ولا ينام وينذر وقته للعمل، فأنا لا مشكلة عندي في أن أكون الشيطان الذي لا يرغب في الموت جوعا ونعاسًا في العتمة. متعبة جدًا. لم أعد أنبس بكلمة.. أتلاشى بين الحشائش ريثما يلتقط شبكة ليستعجل الواعدين. ويجد حلاً لانقطاعنا.

كانت الاشتباكات على أوجها قرب مطار الضبعة. القوات النظامية أنهت معركتها في باب عمرو قبل أيام في أشرس حملة قتالية لا يخوضها النظام لأهميتها أو لموقعها، بقدر ما يخوضها لكسر التحدي الإعلامي الذي يقوم به النشطاء، فيجبرهم على العدول عن إذاعة أخبار المذابح.
فرشت حقيبتي على الأرض اتقاء رصاصات تطيش قربنا، وجعلت من حقيبة حاسوبي وسادة متينة ونمتُ في العراء.
ظلّ فداء ينتظر ضوء سيارة ستحقق لنا حلم العبور.

**

شاهدة عيان

لـم أكـن أجامـل ولم أكن أتجمّـل. كانت الأشـياء تبدو لي سـهلة للغاية. تمددت أرضًـا، لا يغريـنـي التعامـل برفعة بنات المـدن، ولا أحـب أن أحبس نفسي وفق منطق ريفيات دمشـقيات قدامى من الموشوشات بقصص السياسة وفق منطق "العيـب" و"الجـدران لهـا آذان". أحببـت العكـوس، أتشـارك مـع الجـدران صمتها فأسـمعها وتسـمعني ونتبـادل تعاليم الجوسسـة. تحاصرني الجدران كلّمـا راق لي الكـذب، وتجعلنـي أتصـارح مع نفـسي ومع الآخريـن. أبناء جيلي رغم طعن الخناجرفي أكباد أحبتهم لا يرون شـيئًا أهمّ في الحياة من كلمة حرية يكتبهـا عـلى الحائـط، أو خبر صادق يذيع فيـه انتهاكات الطغاة. جيل مسـتعد للإتيـان بالنيازك من السـماء، ولمواجهـة القتل بالرصاص الحـي، مقابل ماذا؟ مقابل القيام برسـم أي شـكل أو كتابة أي كلمة على الحائط. كنت منهم ولكن قبـل أن أبـخّ على الجـدار أو أشرع في كتابـة أيّ كلمة.

لحظة..
هل يصح أن يسـتحضر الإنسـان ذكرياته قبل أن تحدث؟ أم إنني بالفعل أعود إلى تلك اللحظة نفسها وأنا أكتب الآن عنها لأنها تتجذر فيّ.

أول مـرة أدليـت فيها بحديث لمحطة كانت بصفة "شـاهدة عيـان"، كنت مجرّد شـاهدة أتحدث عما أراه بعيني، بشجوني لا أكثر. اعتمدت على شارعي اللصيق بمسـجد رئيسي تحدث فيه المجازر. هناك حيث يموت شـباب الشارع حتى دون أن يصلّـوا أو يتظاهـروا. أسـتفيض بالكلام على الشاشـة من هـول ما أراه بلا تحضير ولا كتابة.

تضحكنـي إحـدى تسـجيلاتي الصوتيـة المبـاشرة على الهـواء عندما أسـمعها اليـوم. تضحكنـي وتبكيني في الوقت نفسـه. كنـتُ أقول للمذيـع "أتحدث إليك الآن وأنا أقطع الشـارع. نزلت خصيصًا لأسـمِعك طلقات الرشاش باتجاه بيتي

وبيـت الجيران تمهيدًا للمداهمات اسـمعني.. قد لا أسـتطيع أن أواصل الحديث معـك" يـردّ المذيـع: "سـنحاول التواصل معك مـن جديد، نرجو لك السـلامة".

كنـت أظـن أن أي إنسـان يتخـذ قلبـه موقفًا جديًـا اتجـاه الإهانة، وإحساسًـا إنسـانًيا وشـغفًا اتجاه تبليغ شـهادة ذلّ رآها. لا بد أنه سيصبح صحفيًا بحق، لا يهـرب عنـد أول اختبـار، ضميره لن يتركه يصمت وهو يـرى بأم عينه رجلًا يسـحل من قدميه، وينعته رجال الأمن بأقذع الألفاظ أيًا كان السـبب. سـيثور في داخله بركان يحركه نحو أي شيء. ألذلك صار كثير من السـوريين يشـتغلون في قطاع الإعلام؟

بعد سـنة.. تعاظمت المجازر ورغب الشـبان في إسدال شهاداتهم الملأى بالرعب والأهوال ليتخذوا موقفًا حياتيًا ينهي شبح الموت المحدق.
يذكـرون أرقـام الموتى لأنهم يرغبون أن يقولوا عـن الحياة أي شيء لا ليتخذوا مواقف تفرق بين الميتة والميتة.

راقبـت بصمـت، ما الذي سـيحدث؟ وكيف سـيتعامل الجيش السـوري والأمن مـع الحشـود، وعن الكيفيـة التي سـيحل بها رئيـس البلاد الموقـف الحاصل. أنتظـر الجـواب فعـلاً دون أي تصـور مسـبق ويتهيـأ لي انتهـاء الموضـوع بالإصـلاح والتروي.

جاءنـي الـرد دمويًـا للغايـة. تمثل أمـام عيني بدهس جاري الشـاب الوسـيم بالأحذية. أحدث إذلالُه في قلبي حقدًا تجاه من كانوا يحملون هراوات الكهرباء. كانـوا يدمونـه وهـم يهتفون من فوق جثمانه: "شـبيحة للأبد لأجـل عيونك يا أسـد". يقززنـي اسـم "القائد" فوق الـدم من إطلالـة بيتي، يجعلنـي أنفر من أعز صديقاتي اللواتي لا يردن أن يكن شـاهدات عيان على أبشـع حادثة امتهان تقع أسـفل شـباكي بالضبط. شـاهدت ولا بد أن أبلغ شهادتي.

بلغت.. والعالم لا يشهد.

تبدلت أحوال مشاهداتي إلى أخرى بالخنق والذبح والفزع، وصارت الصفة الأنسب لي. ناشطة ميدانية، بمعنى أني لا أنقل الأخبار وحدها، أرفقها بأعمال ميدانية شتى. إغاثة مدمى.. نقل جريح.. تكفين ميت.. تصوير الجثة. أحكي أخيرًا الحوادث التي تمرّ بي.

حالما خلصت إلى ترك كل أدواري، ذهبت إلى التفرد بلعبة نقل الأخبار وإذاعتها. بلقب مراسلة، "حاولت" أن أضع تقاريري في نصابها، لأقنع الناس برواية شهادتي، فهي الصفة الوحيدة التي أستحقها والتي لازمت قلبي ودربي وساقتني إلى تبدل أطواري وأدواري.

يتنصل كثير ممن كانوا شهود عيان آنذاك، ويصيرون اليوم نشطاء سياسة. هاجروا إلى ما لا نهاية وصرنا نرى صوَرهم كالغرباء.
أصبح البعض الآخر منهم متحدثا باسم تشكيلات عسكرية، وقد جرت العادة أن يُختار لهذه المهمة شابٌّ تعرض لإصابة أعاقت قدميه وجعلته غير قادر على التنقل والحركة، لتكون المهمة متسقة مع إصابته. فيجلس المتحدث العسكري المصاب في مكتبه يتلقى الأخبار ويتابع تداعياتها ويطلق عليه لقب عسكري اصطلاحًا، وهو منذ البدء ضحية كونه شاهد عيان.

**

تسبقني الصور وأنا أستلقي بين خبايا الشجر بنصف تمدد. ألمح ضوءًا بنيًا يعبر بين شجر الكستناء. لست أدري لماذا تخيّلتها شاحنة انتحارية أرسل بها من العتمة كي تدخلنا في العتمة. السائق محكوم بمفردات جديدة. قبل السلام قال: "منذ ثلاثة أيام وأنا أؤجل إدخال السكر والطحين، لا أريد المرور من هنا. لقد هدّني التعب وتعطلُ السيارة، لا تشغلوا بالكم بعد

قليل ستفهمون كلامي. اسمعوني الآن أيها الإخوة: التحرك ممنوع، التنفس ممنوع، الوميض والإنارة ممنوعان أيضًا. هل جهزتم أنفسكم لعبور دوّار عزرائيل؟ هذا تقاطع محكوم بأكثر من قناص. سوف نتخطاه بسرعة تفوق سرعة ملك الموت".
هز فداء رأسه، وتلفظ بالشهادة.
كنت أمتلك في مخي عصبونًا لا يتفهم الموت بتلك اللحظة. عصبوني هذا ثنائي القطب يمتلك نتوءين متعاكسين، واحد يشعرني بالتذمر والآخر بالرعشة، عصبون يكره فداء والسائق والجماعة التي أرسلت الشاحنة إلينا. لعصبوني محور متصل بخلية في رأسي إلى الكاميرا مباشرة، لا يفكر ولا يتحرك طول الوقت يهذي ويهذي.

ترنحت السيارة، صاح السائق اخفضوا رؤوسكم، انحنى إلى أقصى اليمين. حشرَنا فوق بعضنا بلا إنذار مسبق، رأسي يحفر في باب السيارة الأيمن ورأس فداء يحفر في كتفي. السائق يدوس بالسرعة القصوى. طأطأ رأسه على المقود دون أن يبسط ناظريه إلى الأمام. قطع الشارع عرضًا مع تراشق الرصاص، النيران المضيئة تسبقنا وتكاد تلحقنا. ثقبت إحدى الرصاصات إطار الشاحنة الخلفي فانزلقت بسرعة إضافية عن تلك التي يمضي السائق بها حتى كادت تتوقف توقفًا نهائيًا في القسم المكشوف. تدارك السائق الموقف وظل يدوس حتى وصلنا منعطفًا آمنا، تقطع لهاثنا تمتمة فداء في أذني.
"يا الله لماذا لم تصوري الدهسة؟ سيبدو الصوت مثيرًا جدًا لو ابتدأنا به التقرير لماذا لم تخرجي الكاميرا؟ أين عصبونك الثنائي المتصل بالكاميرا عند ممر الموت، ألم تقولي كذلك؟ أجزم أنك لا تفكرين بل تثرثرين فقط".

منذ البداية يحمّلني مسؤولية فشل التغطية. أكان يتوجب أن افتح زرّ الكاميرا من قلب الحقيبة لأوثق الأصوات الغريبة في الليل؟
كان الصمت في تلك البرهة أجود الطرق إلى الإجابة، لكن تخللت صمتي جملة:
- عصبوناتي لا تفكر بالعدسة عندما تسير السيّارة بمثل هذه السرعة، كما

أنّهـا لا تفكّر حين تجوع.
وشوشني على الفور:
- "جرصتينـا" وطّـي صوتـك. لا نعرف إن كان السـائق على علـم بحقيقة أننا إعلاميـين. طلبـت منكِ أن تصوري لأنكِ تجلسـين على الطـرف والأنظار بعيدة عنك.
تعجبت وقلت:
- وعلى عصبوني الجائع أن يفهم كل هذا الإرباك من تلقاء نفسه؟
بصوت ظننته منخفضاً، سألت من جديد:
- مـا الـذي سـنصوّره إذا عدنـا إلى ممـر عزرائيل؟ ومـاذا ستسـتفيد من هذه اللقطـات؟ ثـم أين عـليّ أن أبـرز الكامـيرا بالضبط؟
جـنّ فـداء فجـأة: "سـتصورين موتـي! مـا رأيـكِ أن تصرخـي أكثـر حتـى تعـرف الجبـال أخبارنـا؟ بالطبـع سـنصل، إما القصـير أو إلى اللـه، وربما إلى مستشـفى المجانين. وفي جميع الحالات سـيطمئن عصبونكِ وينـام ويأكل لكنّه حتى لو شـبع سـيظل يهذي ويندب".

"فوكَس" لعزل المشاعر

يتصـل بي شـقيقي عندما يتـلألأ هاتفي بإشـارة تغطية تضيء اسـوداد الليل. يطمئـن قلبـي لأنه مازال على قيـد الحياة. كان أخي أهمّ فـرد عندي في العائلة. أعلمنـي باعتقـال "أبـو رفيق" أحد أشـهر الرموز الشـعبية في المدينة، وأخبرني أن الأمن تعدى على أهل بيته. عصّب عينيه وكرّر صفعه على وجهه أسفل المبنى ليهينـه أمـام أطفالـه وجيرانه. كثيرًا مـا لاقيت هذا الرجل في جولات الإسـعاف يطمئن على الجرحى.

حزنـتُ كثـيرًا لخـبر اعتقالـه وفكّرت طويلاً مـاذا يمكنني أن أفعـل لأجله؟ هل يمكننـي أن أتحـدث على وسـائل الإعـلام بقصته؟ لماذا لا نصـدر حملة إعلامية تحمـل اسـمه؟ آنـذاك كانـت المنظمـات الحقوقية تطالـب النظـام بالإفراج عن الأسرى من الحقوقيين أو الأطباء، وتنجح أحيانًا في اسـتخراجهم من السـجون. كان سـهلًا أن نقيم حملة بأسـمائهم لكي تتفاعل المؤسسات مع الحادثة. فكرت مليًـا. ولكن على أي قائمة سـيدرج هـذا الرجل؟ لم لا يكـترث الإعلام بالعوام؟ سـأبدو جاهلـة أمـام المحطـة إن اتصلت لأتحدث بقصة شـخصية تبـدو عادية بالنسـبة إليهـم. هـل يتوجب أن ينتسـب كل مواطن إلى حـزب أو منظمة عالمية حتـى يبدو شـخصية بارزة؟ لماذا لا نطالب بإطـلاق سراح الرجل ونفضح هذه الممارسـة الدنيئة؟ ألسـنا صوت الشـارع؟ ألم ينقذك أبو رفيق يومًا ما يا فداء؟ هل نسـيت من لـه فضل عليك؟

يَجِـفُ قلـب فـداء بمـا أسرد مـن مواقف مثاليـة وروايـات يتناقلهـا الناس في شـارعنا. يـدق هاتفـي النوكيا القديـم وينقطع، ثـم يعود الرنين حتى ترسـو المكالمـة أخـيرًا عند صعودي على درج مبنى. يحدثنـي موظف في إحدى القنوات المهتمة بالشأن السوري. كنا ندفع السيارة معًـا لحثها على السير قبل الخوض بمزيـد مـن التقاطعات القاتلة. يسـألني المتصل عن تفاصيـل اقتحام منطقتنا. أسرد تقريـرًا شـفويًا مـن الأخبـار التي أعلمنـي بها أخي، فكرت، هـل أذكر له

قصة أبو رفيق وكيف كان يساعدني ويساعد أهل المدينة، أم أتجاهل هذه القصة الشعبيّة؟ هذا غير متاح في قناة تعطي الشأن السوري خمس دقائق في النشرة وقد يغلقون الاتصال في وجهي. أممم.. إذًا يجب التحدث عن وضع البلد الأمني بشكل عام وعن أهم المجريات، ومن ثم أحكي لمحة عن اقتحام البلدة وقت الفجر ولا بدّ لي أن أجد المدخل لأضمّن القصة.

أفتح الهاتف، تجيء موسيقى النشرة فيذيع المذيع خبره ثم يتوجه إليّ بسؤال عمومي بليد. أكاد أقول له: "أنت تحدثني على مهل ونحن مقطوعون وسط الطريق من إحاطة القناصة. أنت تعطيني ثلاث دقائق ونحن نسير يومين كاملين لنصل إلى محافظة لا يستغرق الوصول إليها أكثر من ساعتين".

تداركت السؤال وأجبت جوابًا محترقًا يغتال هدوء الأستديو. علت نبرتي حين تكلمت عن حملة اعتقالات مجنونة شملت الأطفال والرجال من فراشهم، ثم انتقلت إلى وضع المدينة المحاطة بالقناصة. جئت على ذكر الأسماء التي اعتقل أصحابها بآخر حملة هزت كيان البلد. وعندما مررت باسم "أبو رفيق" مرورًا على الشاشة أحسّ المذيع أنني اخوض بتفاصيل غير مهمة فقاطعني شاكرًا لأنهي المداخلة.
كان للأخبار حدودها وكان ينبغي أن نعزل مشاعرنا وهواجسنا، كي لا ندع الكره أو الحب يتملكان المحادثة، كي لا نلقي بأنفسنا في مواقف حرجة تفضي لقطع الخط في منتصف المكالمة.
كان علينا أن نشوش شجوننا وأسرارنا ومشاعرنا لنركز في الخبر. مثلما نفعل في "الفوكَس" الذي يتيح لنا تشويش محيط العدسة لنركز في جمال الوردة.
لا وقت لمزيد من القصص، نقترب الآن من مدينة تنزف على أكثر من محور لصالح قاتل واحد.

**

التقيته في دوما ربيع ألفين واثني عشر.
كنت أرتدي معطفا بنّيا "محروقا" يناسب طلاّت الربيع الأولى ما بين قفزة زخّات المطر والشتاء المنصرف على مهل. بعد لقاءات عديدة بيننا سألني عن اسمي، ففوجئ أنه مذ عرفني أوكلت معرفة اسمي الحقيقي لذمته. في البدء لم يصدقني وأعتقد أنّني أتحايل عليه خشية أن أخبره باسمي. ظن أن اسمي الحقيقي هو الاسم المستعار.

سألني بجدية حين كنت قاب قوسين أو أدنى من بلوغ دوري في أول مداخلة على قناة معارضة: "هل أعطيهم اسمك؟".. انتابه في البداية شك بأنّني مختلَة عقليًا ولكنه اليوم تأكد، على رغم من أنّ سبعة فروع أمنية تنتظر طلّته وتعمّم صورته على الحواجز لتجلبه إلى المعتقل، فهو مازال يخفي اسمه الحقيقيّ.
فكرت، دورت شفتيّ بإصبعي، رفعت حاجبيّ، إنه يعرف عنوان بيتي وبيت جدتي وبيت جدة جدتي فهل توقفت الحكاية على الاسم؟
- على العموم ما هي الصفة التي ستظهرين بها؟ كدتُ أعطيهم اسمك الحقيقي يا مجنونة. ماذا تريدين اسمًا على الشاشة؟ أي الأسماء تحبّين؟
- أحب سمرا.
- أستغفر الله العظيم، قولي اسمًا معتبرًا سيحين وقت المداخلة.

ثم أضاف عليه حرفين ليكمل جنوني وكانت الكنية جاهزة. أريد أن أنتسب لعائلة جاهزة في ذهني بلا تخطيط. ومنذ ذلك الحين صرت أنتمي إلى عائلة الشارع حيث أسكن. الشارع الأحب إلى قلبي من كل أنحاء المدينة. منذ ذلك اليوم باتت تربطني به رمزية كبيرة، منحتني نافذة مطبخنا إطلالة باهرة على المجازر والمتاريس التي اتخذها الأمن معتقلات سرية على رأس حارتنا. كان اسمًا لا يشبه اسمًا آخر، ولقبًا يطبع في الذهن حين ينعكس ضوء حروفه في العين.

لو كنت أعلم أنه سيظل يلتصق بي حتى هذا اليوم لكنت فكرت قبل أن أنتسب

إليه أكثر، لتمعنت في المعاني وربما كنت سأستغرق أسبوعين قبل أن أظهر على الشاشة لأختار لقبًا مناسبًا. تقول أمّي إنّها اختارت اسماءنا بالصدفة، وأنا اخترت اسمي بالصدفة أيضا، والأجدر بي الانتماء لما اخترت. قيل كثيرا إنه اسم لا يليق بما يعمل لأجله. قد ساد العرف عندنا أن اسم سمارة يتصل بالغناء أو بالرقص فأراني أحيانًا أبغضه ، لكنّ البعض أشاد به لأنهم يرون أني أضفيت عليه نكهة ثورية.

انقطع ذكر اسم فداء الحركي على ألسنة الناس وعادوا ينادونه باسمه الحقيقي بعد نبأ وفاته. أنا ما أزال على الاسم نفسه الذي قدّرناه على عجل وأعطيناه للمُخرج قبل المداخلة الأولى.
ثم جاءت أيام صيفية جديدة بالاسم نفسه وذاك اللون "البني الداكن" نفسه أيضا. كان ذلك مع أول مبيت لنا في القصير/ الرابع من آب أغسطس 2012.

كان يفترض أن تكون وجهتنا إلى الرستن الواقعة تحت سيطرة كتائب الفاروق. لكن المعارك المحتدمة ألقت بنا على تخوم منطقة حدودية هي القصير، ابنة ثالثة كبرى المحافظات السورية "حمص" التي استحوذت المعارضة على مدينتها وريفها في وقت مبكر من عمر الثورة.

أتخذ الآن من شرشف مرمي على حبل غسيل في البهو ستارًا لأخلع الثوب المبلول من حر السفر، وأظهر من خلف الحبل بطلة بنية جديدة، بسترة أقصر ولون بني أفتح من ذي قبل. أزحت الشرشف السماوي الذي جعلته باب غرفة وهو مجرد قماشة مرخاة، تفصل بيننا وبين الشارع، وبيني وبين الشبّان في الغرفة المجاورة. فعلٌ كان بإمكاني أن أقوم به على أي رصيف قبل أن نحط في القصير. لكن عيشة الشرود بدأت تنسل في دمي من لحظات الوصول الأولى. الجِدّ قد بدأ للتو وثرثرة الطيش قد انتهت. ولزام علينا أن نتصرف أمام الناس كإعلاميين عقلاء ممّن يحملون الكاميرا في يمينهم والحواسيب الصغيرة في حقائبهم، ويظهِرون أن لديهم أعمالاً كثيرة لا تستدعي التفكير بمجريات

الحياة التافهة.

وضعت يدًا فوق يد لأفتح صنبور المياه بكلتا أثقال يدي، فخرج الماء نقطة نقطة. أنا أعض على شفتي وفداء يضحك من بعيد دون أن أراه.

جمعت من الصنبور نقطتين أو ثلاث، ومسحت على المسَاحة التي تظهرها قطعتي الحجاب من وجهي. أنفض غبار الليل عن عيوني بقدر النقاط الموجودة. وأرفع روث الناموس عتبًا لأسكتَ ملاحظات النهار وبسرعة جنّية. كأنما لا أحد يراني، مسحت بأكمام القميص وجهي وخدّيْ. ثم رتبتها على حواف البنطال والجيوب الخلفية، وتقدمت نحو غرفة الحاضرين دون أن أعرف أنهم كانوا بمحاذاتي بالضبط. كانت أغصان الشجر في آخر باحة الدار تلقي بظلالها على نصف الوجوه ولم تعد رؤية أيّ منهم واضحة لي. لكنهم أبصروا صباحي.

شعر فداء كأنني المولودة في خيمة منذ تكون أظفاري. أغسل الثياب بيدي، أجعل من حقيبة الكاميرا وسادة ومنشفة وربما منصة للكتابة، وأعيش الأيام على قميص وحجاب واحد، دون أن أحسب لإقامتنا الجبرية مدى الحياة حسابًا، وربما اعتبرتُ وجودنا في هذا المكان مزحة ثقيلة من أفراد الجيش الحر، وأنّنا سنبدأ التصوير عندما يصفق أحدهم في لحظة مجهولة من خلف الشجرة ليقول لنا: "كانت معكم الكاميرا الخفية".

**

الشيطان في التفاصيل

دخلنا أحد مقارّ حمص ليلة البارحة بعد عناء طريق طويل. فاجأني إحساس بأنّنا وافدون أجانب، لا نعرف عن المدينة ولا عن أهلها أي معلومة، ولا نعيش التوليفة العنيفة التي يعيشونها بعيدًا عن قبضة الجيش. نحن ما زلنا نلعن الوقت الذي سنعبر فيه قرب أجهزة المخابرات في طريق العودة.

قبل أن نتهادى لهذه الخربة، جيء بنا إلى مكتب إعلامي كبير، في كل غرفة أيقونة جدارية ممدودة على صدر الغرفة بألوان رايات الاستقلال. ما زلت لا أستوعب إلصاقها في البيت بهذه الأريحية. في ذاك الوقت كان النظام يستوطن أسفل كل بناية في مدينتنا، ويسد منافذ الشوارع بالكتل الإسمنتية، ويفتش بيوتنا وحقائبنا ذهابًا وإياباً.

حان أذان العشاء، واضطررنا للالتحاق بركب الصلاة مع الجماعة حرجًا. صلينا على التوكل بلا تمهيد ولا وضوء. لا ندرك تحديد سلوكنا، إن كنا نصلي حبّا لله أو حرجًا من الجماعة التي لا تُبرز لنا وجوه من فيها بعد. حاولنا أن نعيش حالة الخشوع استعدادًا لمصير مختلف. منذ يومين لم نسمع صوتاً لأذان. كان في اعتقادنا أن الله سيحمينا على مد السفر حتى لو لم نصلّ. نظن أن الحماية تقتضي الحماية، وحسن الظن سيبعد الضرر عنا لأننا لم نؤذ أحدًا. تفرقنا بعد الصلاة في صالة كبيرة، على يمينها شرفة ضيقة تتيمنها طاولة متوسطة الحجم. حواسيب وهواتف فوقها تتراص. موجات منبعثة من أجهزة لاسلكية تتعالى. أشرطة بث تتهاوى. من هنا يخرج واحدٌ من أشهر نشطاء حمص ممّن أصبحنا نسمع مناشداتهم في التلفاز.

كل الأشياء بهرتني ولفتني تأقلمهم مع التجربة الجديدة كما لو أنهم يعيشونها منذ سنين. تسارعت الأحداث فتسارع الحمصيون معها بالجهد وإيصال الخبر. صاح هاتفي "النوكيا" برسالة عادت بي إلى الطريقة الرجعية التي ننقل بها

أخبار دمشق وما حولها. كنت أستخدم الاتصالات بحالة من الخوف، أبدل شريحة الهاتف بخط آخر غير الذي يحمل اسمي. ذاك الذي اشتريته باسم رجل ميت كي لا تنكشف هويتي وأطلقت عليه اسم "خطّي المضروب". هكذا سمعت الشبان يقولون فردّدت مثل قولهم.

وكانوا يقولون أيضًا إن على مداخلتي الصوتية ألاّ تتجاوز ثلاث دقائق، وإلا فإن أبراج الاتصال سوف تحدد مواقعي. ولا يزال القلم المشبوه في جيبي يبرز لي كل حين من الجيب ليسرد لي حكاية صديقه الذي آخاه افتخارًا بصنعه حينما منحت لي كاميرا على شاكلة قلم كي أصور بها انتهاكات الأمن خفية.

ألتقط صورة راجفة مهتزة أخفي خلالها من الشباك رأسي، حتى لا تمتد لي أعين أفراد الأمن. أقول بصوت رفيع متزعزع:
"خمسة.. سبعة.. ألفين واطنعش.. مجزرة لعناصر حفظ النظام في دوما الله أكبر"..
وفي أحسن حالاتي ألتقط مشاهد لإضراب الشوارع وحشود المتظاهرين وركضهم الذي لا ينتهي.
مشى ناشط حمصي معروف باسم "هادي" باتجاهنا. صافح فداء بحرارة وتمتم معه على انفراد. سأله عمّا إذا كانت الصحفيّة بجانبه ترغب في إجراء مقابلة معه أو مع الباقين ليسهل لنا ذلك. لكن فداء قال لي آنذاك إن هادي أعرب عن سروره برؤيته ليس إلا.

يتزاحم في الغرفة وافدون من قنوات أجنبية ومصورون فوتوغرافيون لصحف عالمية ومراسلون لقناة الجزيرة، كنّا نعرفهم من خلال أسمائهم عبر سكايب. كان وجودي كبنت تحت هذه الأسقف يجعل عدسات المصورين تتوجه أكثر نحونا. الجيد أن الكاميرا بيدي فسرت كل ما يجب على فداء أن يقوله.

انبطح رجل ثقيل الوزن أمامي، يريد أن يلتقط صورة وهو شبه نائم. ظننت

أنـه يريـد أن يلفـت الانتبـاه حولـه بأنه "مصـور زمانـه ""، لكننـي في التفاتة أخرى رأيت مصورًا آخر يبدل عدسته ويركب أخرى طويلة جدًا تكاد تصل إلى بؤبؤ عيني. آه، مازلت لا أسـتوعب تصرفات صحفي بوسـني الجنسـية، كأنما جـاء مـن بعيد ليتمكن من انتقاء تفاحة معضوضـة على الطاولة، ويحشرها مع القطة الكسـلى والسلاح المحتشد في لقطة واحدة.

عـلى جانـب آخـر من المقـر الإعلامـي يفتح أبـو حنين غطـاء قلم "فلوماسـتر" ويكتـب على السـبورة بخط جميل مهمـة كل فرد قبل حلـول الصباح. كان أبو حنـين قد ترك تجارته بين مصر وسـوريا وجاء يرسـم الجـداول في مدينته على سبورة بيضاء.

السـبورة هـذه كانـت أوّل شيء يحمله أبو الحنـين قبل النزوح مـن بابا عمرو. حفظـت مجموعتـه مهمتها من جديد وجاءت تلقـن التجربة لرفاقهم في المناطق المجـاورة. أحدهـم يوطد علاقاته مـع القنوات العربية المعروفـة، والآخر يكتب الأخبـار وآخر يرفع المقاطع المسـجلة. جلبوا خبرتهـم المتواضعة من بابا عمرو قبل أن تسـقط ويسقطوا تحت مسـمّى نازحين. كانوا يصورون مذابحهم بكل تفاصيلهـا ويوثقـون كل شيء. الجمـاد والنبـات والإنسـان حتـى إذا ما عطس عسكري في باب عمرو تسارعت الكاميرات والهواتف لالتقاط عطسته. يهمسون سرًا: "لا رحمك الله" ثم يحاولون إدراج فضيحة عطسـته في الخطة المرسـومة على الجدول.

كانـوا يفوقـون المنبطحـين جنونًـا في سـبيل لقطـة فوتوغرافية تكسـر وحدة الرصـاص. أعجبنـي تمـرس واحد من المنبطحـين. وكأيّ امـرأة عربية يبهرها صنـع الغرب، أخذتُ أشـيد باحتراف مصـور أجنبي يعمـل فوتوغرافيًا لصالح وكالـة عالميـة أتذكرهـم ينادونه "بورتـر". قاطعنـي أحد الشـبان: "لا تتعجلي بالحكـم على أحـد حتى موعد القصـف". ثم أقبلت لحظـة ماجنة..

هـزّ انفجـار لغـم أحـد المبانـي المقابلـة، وهـبّ الجميـع إلى مـكان الواقعـة. قـرب المبنـى المسـتهدف تجمّع أكثر من سـتين رجـلاً ليرصدوا الدخـان الطالع مـع الانفجـار. رآهم المصـور الأجنبـي وهو في طريـق العودة إلى المقـر، فوثق شـهادات الناجـين وسـأل فلانًا وفلانـا، وتثبت من مقتل أكثر من خمسـة عشر شـخصًا شـاهد جثثهم مرمية. ضم مشـاهدته لما قاله الحكماء وشـهود العيان الذيـن أخبروه بمقتـل أكثر من عشرين رجـلاً تلك اللحظة.

وقـف أحـد النشـطاء بقرب حكيـم الحـيّ. اعتمده "بورتـر" مصـدرًا صحافيًا في رسـائله الإلكترونية. كان نشـطاء الحي يعرفون الناس واحـدًا واحدًا، ولهم تجارب مسـبقة مع المنقذين والمسـعفين بـإدلاء المعلومات وفقًا للأجسـاد التي حملوها والمشـاعر الهادرة التي يسـمع نشيجها عندما يشاهد الواحد منهم أخاه وهو ينغمس بدمه. من عادة النشـطاء أيضًا أنهم يضحون بأنفسـهم من شـدة انهماكهـم المشـوب بفضولهـم لرؤية الحدث، ومـن العادي أن تراهم ينسـبون لأنفسـهم القيام بأعمال الإطفاء والإسـعاف والإنقاذ دفعـة واحدة. وهكذا فإن كل واحد سيحكي سيلًا من الأرقام والقصص التي حدثت لحظة وجوده هناك.

لـم يـدرك المصـوّر الأجنبـي بعـدُ أنّ السـوريين يُلمّـون بـكل الحقائـق قبـل وقوعها، ولا يعرف أن الوحي يأتي إلى السـوري كل ليلة في المنام ليقر له بآخر المسـتجدات. كمـا أن المصـور لـم يسـمع بحكاية "الملاءة" بعـد. الحكاية التي تقـول إن "أوبامـا" رئيـس الولايـات المتحـدة السـابق، رغِـب أن يعـرف كيف يتناقـل السـوريون أخبار البيـت الأبيض وينشرونها في الشـارع بسرعة عجيبة حتـى قبـل وقوعهـا. ارتـدى أوبامـا "الملايـة" الشـامية وغطى وجهـه بخمار أسـود كي لا يكتشفه أحد. سار في شـوارع دمشق واللثام على وجهه و"الملاية" تعيـق خطى قدميه. عندما وصل إلى سـوق الحميديـة وجد كل الباعة والأطفال والنسـاء يركضون، بالكاد اسـتطاع إيقاف رجل واحد ليسأله عما يحدث ولماذا كل النـاس يركضـون؟ أجابه الرجـل: "لا شيء يا أختي سـمعنا أن أوباما دخل إلى البلـد متنكـرًا بزيّ امرأة وها نحن نهب جميعًـا للبحث عنه". يقال إن أوباما

أقلع عن التفوه بأسراره في غرفة نومه خشـية أن تصل إلى سـوق الحميدية.

**

خمـدت النـيران وهدأت الرشاشـات باتجاه من يحاول إنقاذ الجرحى. سُـحبت الأشـلاء مـن مـكان التفجـير عنـد الغـروب. وكشـف الليـل عـن مقتل سـبعة أشـخاص. بُـترت أعضاء عشرات الأشـخاص وأصيب آخرون بحـروق دائمة. بفضـل ركـض بسرعة البرق نجا. أرسـل النشـطاء للإعلام أرقامًـا متفاوتة لم يحـتر معهـا "بورتـر" كثيرا.

بلحظة صاخبة انقلبت كل الرصانة إلى رعونة صبيان. قال أحد سـكّان القصير شـامتًا: "قلـت لا تنبهـري بصنيـع الغـرب.. إنّهـم يفوقوننـا خبرة دون شـك، لكنهـم وقت الشـدة يتعاملون باندفاع وهـوس. إنهم يرتكبـون أخطاءنا ذاتها بـل يندفعـون أكثـر. كيف لأحـد أن يحصي رقمًـا قطعياً ضمن ظـروف تتنوع فيها قدرات السـلاح ويؤخَّر فيها انتشـال الجريح".
كـم مـن مجازر جماعية لم يعـترف التاريخ بها، لأن الإعـلام تحاشى الوقوع في فخ أرقام ضحاياها!
لـم أكـن أتخيـل أن يومًـا كهذا يزحـف نحو مدينتنـا. بعد مضي سـنة أكون قد فهمت معنى القطة والتفاحة المقضومة في الصورة لأتعرف إلى جنون التفاصيل التـي تضفي على متن الصور عمقًا وروحًـا بعدما تكون قد انتزعت روحها من جسد الإنسان.

**

شـباكٌ إطـارُه مـن معـدن الألمنيوم، غـار منه معـدن الطائـرة فامتهـنَ كرامة زجاجـه أمـام أولاد الحـارة وحوّلـه إلى مجرد إطـار. يصمت النـاس في القاعة فيسـمعني الشـباك مسـيرة حياته. يقـول.. كنتُ يومًـا درعًا يـرد الحر والبرد

عن هذا المكان. كنت عاكسـاً جميلا للضوء. كنت نور البيت وحافـظ الأسرار..

يجثو تحت الشـباك طبيب بزيّ أزرق. هـو أحد الوجوه المألوفة التي تظهر على أهـم القنـوات العربية ليوجه نداءاته بصـوت متلعثم إلى المجتمع الدولي من أجل وقف شلال الدم في مدينة القصير.

بـدت الصالـة محـشراً لكلّ مطلقـي المناشـدات الإنسـانية على التلفـزة. يندرج اسـم الطبيب محمـد على اللوح الذي نزح به أبو حنـين، منذ البداية حين وزعت المهام منذ بدء الليلة. عليه أن يجري توثيقًا لكل إصابة بعد أن ينهي إسـعافها، وهكـذا تصبـح عمليـات جراحيـة كثـيرة تحت عهـدة طبيب آخر حتى يتسـنى للدكتور محمد التحـدث للكاميرا دون ارتباك.

اسـتدعى فداء الطبيب محمد في مقابلة على كاميرتي. أول ما سـألناه عن دوره المكتوب في اللوح. سـمعته يقول: "نحن ننشـط في البهو نشـاط المحارة. نتحلق لننتـج سلسـلة متراسـلة، أتعرفين المحارة؟ مـا إذا دخلت حبة رمـل في أجوافها وجـدت نفسـها أمـام تهديد. سرعان مـا تفرز مـواداً لتدرأ عنهـا الخطر. وبذا تتحـول المحارة إلى لؤلؤة مشرقة الجبين. تبدي حين تشـطرينها تكدسًـا لتقزح لونـيّ لا مثيل لألقه".

أشـعرني كلامـه بشيء من الخيبـة. ما الذي أتى بنـا إليهم ما دامـوا هم اللؤلؤ والمحـار؟ وما الجديد عندنا في حضور صحف جاءت من أنحاء الدنيا لتكتشـف حقيقـة المحارة والطفيليات التي أرادت النيل منها؟

مـرّت بنـا وجـوه الحمصيين أجمعهم عنـد أول محطة لنـا في القصير. كنا كمن يشـاهد رجـالا كثرًا في حلـم. نتماهى معهم، ومازال ينهكنا السـفر. هُدّت قوانا من طول الطريق، وأقصى أحلامنا وسـادة ومترٌ من الأرض نلقي عليه الجسـد المتعب مـن وَعثاء الترحال.

انـدس في البهـو رجـلٌ غريـب لا أذكر من ملامحه الآن شـيئا لكنه دخل يسـأل عـن ضيـوف دمشـقيين. قـال فـداء لي: "هيا لقـد جاء الفـرج" سـيقلّنا الرجل بسيارته".

فعـلا أفلـح الرجـل في اصطحابنـا دون أن نفكـر من يكون وأي طريق سـوف يسـلك بنـا. مـا كان يهمّنا هـو أننا قطعنا جـزءًا كبيرًا من الرحلـة. ووصلنا إلى إحـدى مناطـق حمص المنكوبة التـي تظهر كدماتُها على الشاشـات كل دقيقة.

مذهولـين بنشـوة الوصـول، كأنمـا نجلـس في مـكان تنطلق منـه محطات بث الإعـلام العربـي حقًـا، لا من غـرف أخبار بـدول الخليج.

نحُـل يومنـا الشـاق. وضمر تفسـير عقلنا للأشـياء المارة. غـرق في نومه كل منّا أمام أقرب وسادة. دون أن يدرك كلانا من الذي سيكون أمانة في عنق الآخر، أو إن كنّـا مجرّد وديعتين بعهدة أهل الدار.

كان فـداء مسـتعجلا طول الوقت بالعمـل والتخطيط والتواصـل. رمى أدواته الثمينـة جانبًـا بعهدتي كأنها ليسـت له. احتفظت بها قليلًا ومـن ثم رميتها أنا الأخرى حتى ميعاد نور آخر.

**

فكّـر فـداء أن ينتقل بفكـرة المحارة إلى مكتبنـا ليلفت إلينا الأنظـار، لكنه يلفي دمشـق شـهمة بالسر فقط. لم يـلاق أحدًا من الرفاق سـواه يتحـدث بالصوت والصورة. ولا يحتشد الدمشقيون في المكاتب الإعلامية بذاك الوضوح والجرأة. الأهل مازالوا يعيشـون بين ثكنات الجيش ويحاولون إبداء أنفسـهم أمام رجال الأمـن على أنهم يمشـون "الحائط الحائط ويقولون يا رب سـترك". يعارضون بسرّيـة. طريـق تهريبهـم الوحيـد يمرّ عبر تفتيش خمسـة وثلاثـين حاجزًا. لا

شيء سـيدفع صحفيـاً أجنبيـاً للمجازفـة بحريته حتـى يعيش مخاطر التسـلل والمراقبة.

قال فداء: "سوف يدوسوننا ما دمنا بهذا الصمت والعجز، لا بد أن نتحرك".
عـرف فـداء عن شـاب حمـصي متحدث باسـم اتحاد تنسـيقيات الثـورة يدعى سليم أنّ بمقدوره أن يدخِل جهاز بث فضائي إلى دمشق حتى نتخلص من عناء الخطـوط "المضروبـة". صحا سـليم منذ الفجـر، ومن لبنان حتى دمشـق قطع الحواجز على عهدة ضابط مخابرات يثق به. بعد سـاعتين من بدء المسـير، بدت اللوحـة أخـيرًا كأقحوانـة برّية.. "دمشـق ترحـب بكم" وقبـل أن تتضح معالم الجملـة، كان رجلان بدينان بانتظار سـليم ليقوما بواجـب الترحيب الملقى على عاتق المدينة، حملوا عن سـليم حقائبه. اسـتقبلوه بقماشـة طرية لفَّت كعصابة فـوق عينيـه. صاح الاثنـان: "لا تخـف نحن نقـوم بالواجب تجـاه أي حمصي زائـر.. ميـة هـلا". جُرَّ سـليم إلى قـاع الحافلة وانهـال أفراد الجيـش بالبنادق ركلًا على رأسـه وبطنه. وقع في كمين محكم، وعاش القمع شـهورًا سـتة بتهمة حيازة أجهزة محرمة.

ذات مسـاء ظهر سـليم على القناة الرسـمية للنظام محقرًا كل الوفاء الذي جاء من أجله إلى دمشـق. قال إنه كان يتقاضى أجرًا مقابل كل مشـاركة تلفزيونية. كاد يتبرأ من اسـمه وقلبه وثيابـه أثناء المقابلة.

لحظتهـا ضاقـت الأرض بفـداء ذرعًـا. لـن تغنيه أجهـزة الدنيا عن هـوان هذا الشـاب، فهو السـبب الرئيسي في اعتقاله. اعتراه الندم برغم أن الحظ كان حليفه حينمـا أخضعـه لمكان بعيد عن موقع اسـتلام الأجهزة. منحه فـداء النجاة مرة أخـرى، ونجـا سـليم قباني بقدرة عجيبـة. رأفت به شـمس الحرية وخرج من الزنزانـة في ظـروف غامضة. والمؤكد أنه عاف حيـازة الأجهزة إلى ما لا نهاية.

لا بدّ أن نبحث عن وافد آخرَ يمنحنا فرصة إدخال جهاز بث فضائي ثانية.

**

يحكون عن مجزرة مروعة لم يمت فيها أحد،
وعن رصاص كاتم يفتك بضحيته دون ضجيج.

سرعة الغالق بين نارين

لا أعـرف لِـمَ نحن الآن هنا بين جدران الخرابة؟ ولا أفهم لِمَ نُـــعامل كالمشـتبه فيهـم، وربما يجري التكتّم على وجودنـا.. من نحن في ضيافتهم أو بالأحرى في -خرابتهـم- وجوه لا تشـبه وجوه النسـاء، ورجالٌ كأنّهم مـن البدو القدامى لا يعيشـون الحيـاة التي جازفنـا لتغطيتها. تُرى ما الذي يحـاك لنا؟ لم نعد نرى واحدًا من الإعلاميين الذين التقيناهم البارحة.

ليلـة أمـس نـام فـداء نومًـا هادئًـا في الغرفـة المحاذيـة، لكنني قضيـت ليلة لا مثيـل لهـا. بيني وبينه أمتار لا بأس بها، فلا يسـمع مـن صوتي إذا ما صرخت إلا التمتمـة. ركنـت في غرفـة فارغـة تمامـاً لا وسـادة ولا قماش عـلى أرضها. سـتارة واحدة هـي كل ما يفصلني عن البهو المكشـوف على الشـارع.
بنصف غفوة أسـندت رأسي تحت شـباك بالأسـفل. خشـيت أن أغـرق في النوم عـلى مسـند الجـدار، لاختزال مؤشر سـوء قد يتربص بـي. اعتقـدت للحظةٍ أن الخوف بقلبي شـبه منعدم فأنا ما زلت صغيرة وأسـتطيع الذهاب إلى الموت بلا خطايا.

انقطعـت الإنـارة فجـأة، ثـم عادت، مـع هبوب أصـواتٍ غريبة كرّسـت الرعب في أذنـي وعينـي؛ العتمة مـن جهة والأصـوات من جهةٍ أخـرى. لا ضوء نجمة يلـوح في السـماء ليعرض عدسـة عيني للضوء، ولا "سرعـة الغالق" في كاميرتي الصغـيرة تنفـع في رصد كمية من الضوء لتصل إلى حسـاس أي صورة أفكر في التقاطهـا. أنهيت خدمة الكامـيرا هذه الليلة، فصاحبتها لأول مرة تعيش تجربة بـين نارين. وظفتُ تلك العدسـة الرفيعـة بمهمة مختلفة.

وضعتهـا في الحقيبـة ثم اتخـذت من حقيبة الكاميرا قماشـاً تحت فخـذي. فكلّما تحرّكت أو تحرك النور تواترت طلقات النار باتجاه الغرفة. وظلت الطلقات تقترب حتـى صـارت تصوب باتجاهي، وأنا جاهلة بهذه الطقوس التي تحدث في الغرفة.

هـل تخفـي وضعية جلوسي سرًا ما؟ أميـل إلى اليمين فيـزداد الرصاص. أنزاح إلى الخلف وأثني الركبة فيذهب الصوت إلى الخلف. جربت أن أعدم الحركة وأن أقطـع النفـس دقيقـة فصمـت كل شيء وهـدأ. ماذا تـراه يكون؟ لـص؟ رجل يراقبنـي خلف الباب؟ قنـص يتحدد باتجاهي؟ من الـذي يراني أصلًا والغرفة مغلقـة؟ أم أن عـين قنـاص من هنا تلوح مـن خلف سـتارة؟ أكاد أجن وأخشى أن أبلع ريقي فيُسـمع صوت بلعه. أشـعر أن رجلا يتمركز خلف الجدار تمامًا. هـل يـرى ظلي أم تُـراه خلفي تمامًا. سـاعدني يا رب.. كيف أقعـد للصباح بلا نفـس ولا حركـة؟ فكرت برهة هل يمكن أن يدخل أحد عليّ من الشـباك؟ لِمَ لا؟ علوّ الشـباك عن الأرض لا يتجاوز ثلاثة أمتار فقط، لا تغلقه إلا قطعة قماشـة وضعـت بطريقـة عبيطـة، تطير مـع الهواء كاشـفة كل ما يقابلها وتكشـفني. أرسـو بشـهيقي وزفيري كأنني ميتة. أتحاور مع شـيطاني بحديث لا يقاطعه أحـد.

فأسـمعَني صـوتَ الـروح بداخـل كل قذيفـة. فالقذيفـة لا تتمايـل بتطويحـة معصـم إنسـان. القذيفـة مدربة على العمل بظروف اسـتثنائية محـيّرة. تختار الأنفـاس الأكثـر لهاثًـا وخوفا وحركـة. أمرها حيرنـي، ولكني أسـتزيد خبرة بخصائـص الأسـلحة. وأقول إذا عشـت أكثر سـأخبر الآخرين حينمـا أعود إلى مدينتـي قصصًا مثيرة عن الذخائر والطلقات المتراشـقة، وسـأتباهى أمام رواد الأسـلحة بكل هذه الخبرات.

بـدأت اتفهّم فروق صوت النيران حينما توضـع بفوهات مختلفة. ثنيت ركبتيّ بـلا خـوف ولا رعشـة. حافظـت على انسـيابيتي، ففعـل الراجمـات أدق بكثير مـن القذيفـة. تعرف العدوّ وتقصده وتشـتم رائحتي عن بعد. ترسـم أشـباحًا مـن الإنس حولهـا لتخترق خصوصياتهـم. صوتها في الليل يقشـعِرّ له جلدي. كلما أسـمعها أفكر أنه صوت لصبيّة تزعق بولاويل المصيبة: "يو يووو ووه" صـوت لهاثـي ما يزال يصل إلى السـماء وأخفيه. لا أريـد أن يصل صوب غرفة فـداء طبعًـا، حتى لا يقـول إن القصف أخافني. تسـمرت وتجمـدت يداي رغم

أننـا في أوائـل الصيـف. قلبي يـدق بسرعة أربعـة قلوب في الدقيقة. هل تسـمع القاصفـات دقات قلبي؟ أم أنّ قنّاصـا يراقبني من مكان قريب؟

عبـتُ عـلى نفـسي قوّتهـا في الجماعة لا أكثر. منـذ اليوم عليَّ أن أتعلّم الشـجاعة حين أكون وحدي في الظلام الدامس، كائنا من كان ذاك الذي يفكّر في اقتحامي. سـأحاوره وأصـل معـه إلى نقطـة تفاهم حتى لو جـاء خصيصًا لقتـلي. وربما أسـتطيع أن أضربـه بـأي شيء في الغرفة؟ ماذا؟.. هل أنا غبيـة؟ الغرفة فارغة لا يوجـد فيهـا أي شيء!، لا بأس، معي كاميرا وجهازَي حاسـوب، سـينفعانني جـدًا إنهمـا صلبان بمـا يكفي لكي أصفـع بهما من يقصد إيذائـي. مهما حدث يجـب ألا أصرخ باتجاه الغرفة المجاورة وألا أحرج نفسي بمناداة فداء.. ما الذي سـيفعله لي أصلًا إن التقى بمسـلح؟ سأتدبر كل أمري، من دون أن أحرج نفسي وأحثـه عـلى أن يهـزأ بي مـرة أخرى. قبيـل الرحلة أصـدرت له تعميمـاً: مثلي مثلـه في كل شيء. ومثـل كل الشـبان الذين يرافقونه في العـادة، لن أدعه يحمل همّـي في شيء. لـن أستسـلم أو أشـعره بـأنّ مرافقته فتـاة. بقي عـليّ أن أقوى أكثـر وأزداد صلابـةً في العتمة وقصف الليل والأصوات الغريبة، رغم شـهقاتي وتأكدي أن ثمة شـيئا غير طبيعي يُحاك.

**

خـاض فـداء في أحلامـه حـين كنـت أسرّ لامـرأة غريبة جاءت تسـألني وسـط الليل عن سـبب مجيئي وعمّن أتى بي إلى مدينة القصير. شـعرت أن جوابي لم يعجبها.

حملقـتُ بمـا حـولي، وإذا بشـخص مـا أتخيلـه خـارج الغرفـة. كأنمـا وجّهها لتطـرح عـليّ أسـئلة اسـتقصائية لعـلّ معلومةً مفيـدةً تبلغـه عنّي. أوقـع الله في عينـيّ ارتسـام رجل يتطاير ظله خلف السـتارة. حدث كمـا تخيلت بالفعل. أرسـل الرجل بهذه الفتاة إلى خواء غرفتي. لتسـألني عن اسـمي واسـم الشاب

الـذي أتى بي إلى هنا.

أجبتهـا بأسـمائنا الحركيـة التي نظهـر بها على وسـائل الإعـلام دون أن أعير السـؤال اهتمامًـا. ثـم رُميت لنا من خلف السـتار وسـادة ومدّت للفتـاة يدٌ من الخلف لتسـتقبل فرشًـا وشراشـف لا يظهر لي من الذي يقدمها. بسـطناها على أرض الغرفـة الرماديـة. وأرخيت أنا فخذيّ على النجاد أخيرًا. ثم سـألت الفتاة عـن اسـمها فقالـت "منى" وصمتت. وقـد لا يكون هذا اسـمها أيضًا، على الأقل هـذا مـا أعرفها به حتـى اليوم. عادت منـى من عملها للتو في المستشـفى، فهي تعمـل ممرضـة في القصـير منذ شـهر. لقـد هاجـرت بمعطفها من مستشـفى ميداني في بابا عمرو.. مدينتها العزيزة التي كانت تغيثُ فيها الجرحى مسـبقًا.

لـم يبـدُ لي وجـهُ منـى جريئًا بمـا يكفـي ليغيـث مصابي النـزوف الشـنيعة. لا تراهـا مفكوكـة مـن وثـاق التقاليـد. أول ما اسـتنكرته وجـودي في الغرفة كمسـافرة وحدي. حسـبتها للوهلة الأولى لا تفكر بقضية أبعد من بيت زوجها، لكنهـا ليسـت متزوجة. متزمتة ومتسـيبة في الوقـت ذاته. تـارة أظنها ملتزمة محافظـة، وتارة أخاف مـن تصرفاتها العبثية التي لا تراعي حرمتي في الغرفة.

فكـرت قليـلاً.. لم لا أكسـب غموضها وتجاربها لصالحي؟ هل سـيقبل فداء أن أحـشر غموضهـا في تقرير كله ضوضـاء وخبط، وهل سـتفيدني فتاة لا تتفوه سـوى كلمتين في السـاعة؟.. قـررت على الأقلّ أن أكسـب ودّهـا كصديقة. لعلي أفهـم منها دائرة السـوء التي تحيـط بي وبفداء، لأني أؤمـن أن وراء كل امرأة خاضت بين الرصاص لغزًا خطيرا.

اقترحـت عليهـا ليـلاً أن ألتقط لقـاءًا لها في الصبـاح فاسـتغربت، وطلبت مني خفـض صوتـي عـلى الفـور. أشـياء كثيرة تشـدد خـوفي في بلـدة ملامحها غير مفهومـة. ومحاذيرهـا عـلى أكثـر من محـور. ممّ تخـاف "منى" عـلى صوتها في جـوف الليل؟ من الذي يسـمعنا؟ أما يـزال الرجل مانح الوسـادات موجودًا

خلفنـا؟ كيف سـأنام إذًا وفي حـضرة نومي رجل لصيق بالسـتارة؟ وكيف آمن نفـسي مع فتاة لم أرها إلا في ليلة مشـبوهة كهذه؟

هـدأت أصوات القصـف قليلًا مع اقتراب الفجر، وبدأ الخوف يتبرأ من جسـدي رويدًا رويدًا حين نامت منى..
ولم أجد أنا من عدم النوم بدًا في حضرة الخشوع الرهيب.

**

في الثانيـة بعـد منتصـف الليل سـمع فـداء صوت فتـاة غريبة تتمتـم وتجيبها أخرى.
لكنـه نحـى الصـوت جانبًا ليسـتمتع في أحـلام اليقظة بصوت فتاته. اسـتنجد بأشـباح جدائلهـا الفاحمـة. لـن تحاوره ولـن يحاورها. هذا أول يـوم انقطاع مـذ تعارفا. يقول في نفسـه: "حرام لو تلقي بـي العتمة معها في ذات الحجرة"، كنـت أشـعلت مـن شـعرها منـارة تحـرق دروب تيهي. فكـر مليًا: هـل يرمي شـجونه وينـام دون أن يسـعى لتطمـين قلبهـا؟ لم يفعلهـا مرّة واحـدة. اتكأ بيديـن متعاكسـتين عـلى الوسـادة. توسـدها كمعطف مطـري. تخيلهـا وأخذ يعتصرهـا عصرًا، تسـاءل حائـرًا "كيف تنام بـلا صوتي الذي يبـث في غرفتها معانـي السـكينة؟ أينفطر الآن قلبها على غيابي؟ أم أنها تنسـاني في حضرة أي صديقـة مارة. سـأكون ممتنًا للغيـاب لو فعل وحنّن قلبها عـلي، ماذا فعلت بي رسـائل "سـكايب"؟ وضعتني أمام مفترق طرق صعب يجعلني معاق التصرف في غيـاب خطوط التغطية".
نـادى وحيـدًا في الظلمـات. أينـكِ أيّتهـا الحمامـة الزاجلـة لتحطي بـين يديها رسـالة أكتبها لها مـن لحمي وريشي؟
كأنّ من اخترع المراسـلات الإلكترونية أدرك مسـبقًا فقر القلوب للنشـوة حينما تتبين خطوط السـواد. الجميع غارقون بحزن لا تعكسـه خيوط الشـمس مهما أضاءت ما حولها. فإذا ما انقطع الاتصال عنّا توغلت الأشـباح في أنفسـنا عدوًا

وحرجًا لتمنعنا من النوم وتصيب بالعقم أرواحنا. أما هيَ.. "ذات الجدائل الفاحمة"، فكانت تموت بالشوق والقلق. على مهل ومهل ظلت وحدها، متروكة أمام إطلالة على وادي البزات العسكرية ينظر أهل دمشق لها نظرة الأجنبي لحمّام السوق.

**

الزمان: عام ألفين واثني عشر.
المكان: سطح في أعلى مشروع دمّر، دمشق
التوقيت: الثانية بعد منتصف الليل.

سِرًّا، تتفقد فتاها باسم وهمي سجلته بين جهات الاتصال. تفتح ألبوم الصور على ضوء الشمعة. تقبّل الصور وتضعها على جبينها فخرًا بما يقدمه فداء. تعيدها إلى المجلد المخفي بحذر. أحست أن صوره تزيدها جمالًا ورفعة.

تنتقل إلى مجلد المظاهرة الأولى في يوم ما من شهر آب أغسطس عام 2012 -حي القيمرية- دمشق، اليوم الذي أرّخت به أول خفقان قلب والتماعة عينين. ذهبت إلى المظاهرة وصورت صرخات الهاتفين بعدسة صغيرة، تماهت بين روائح حلويّات البرازق والبذور الطازجة، ألقت نظرة سريعة على كل شيء، حفظت وجوه الهاربين واحدًا واحدًا. لكنها وجدت نفسها تقص خطى فداء عند العودة دون أن تنوي إجلال أثره. سلكا مدخلاً واحدًا يؤدي إلى حيّ القابون. سارت إلى بيت صديقتها لتموّه عن مكان بيتها الحقيقي، لعلها تبث الصور التي التقطتها في المظاهرة. اقترب فداء ببطء نحوها، عرفها من بين البنات اللواتي كنّ في تلك المظاهرة. أزاح اللثام عن وجهه وسألها إن كانت تحتاج شيئًا لترخي الحمل على كتفه. قالت إن بين يدها صورًا "رشز" قد تفيده. التقط بطاقة الذاكرة ثم شكرها. ومذ ذاك اليوم عاد يلاقيها برسائل مشتاقة عبر المجموعات الإلكترونية التي تجري ضمنها ترتيبات التجمع.

تارة تستميلها ترنيمة الصوت لتعمل في الدبلجة، وتارة تعود إلى أهوائها الأولى لتواصل العمل في الدعم النفسي واكتشاف المنفى داخل قلب الإنسان. عندما كانت طفلة صارحت أباها عن حلم مثير. "أرغب في أن أصبح مراسلة في المستقبل يا أبي. ألف حول عنقي ميكروفونًا، أسافر إلى فلسطين وأفغانستان وأجوب المناطق الخطرة". أجابها مثل كل مرّة بأن القرار ملء يديها في أي أمر يخص حياتها، وأنّ لها الحرية المطلقة في أن تفتح الكون على مصراعيه حتى لو وصلت إلى سنغافورة وحدها. لكن عليها إذا ذهبت إلى سنغافورة أن تعود في اليوم نفسه قبل حلول الحادية عشرة قبل منتصف الليل، فهو القانون الذي يمليه عليها في العادة، معرقلًا عليها زهو أي حلم.

صلّت حسب مزاجها. ودعت الله ككل مرة أن يمنحها القوة والشجاعة لتفهم الكون الذي درسته في الكتب، لتغيره مثل ما تغير الصفحات مجرى حياة عمر الرجل الذي لفت انتباهها منذ الطفولة حين لم يكن إلا شخصية فقيرة ترعى الغنم لبني مخزوم، قبل أن يصبح تاجرًا حاذقًا من أغنياء مكة. وما كانت بسالته إلا شأنًا جاهليًا غليظ القلب قبل أن يصبح الفاروق، ويخلد التاريخ مناقبه ورحمته وعدله وحفظه حقوق البشر سواسية.

كان فداء ينجذب إليها وإلى ذوقها وترفّعها وهدوء خصالها. مليئة القامة طلول، ولثغرها ابتسامة تشع في وجه أي شاب يلتقيها، ونمش ناعم يغطّي تجاويف مقلتها. تأكل بأناقة وتتحدث بلباقة. تلفّ شعر رأسها بقماشة سماوية فتزداد جاذبية. ارتدت مرة معطفًا أسود يلف جسدَها، لكنها لاحت وكأنّها هي من يلفّ الفراء. تهدل الشال على كتفيها فبانت جدائلها من تحته. ينتفض فداء ويعيد كل شعرة إلى مكانها، ويرفع الحجاب لها لكي لا يشعر أحدًا أنها كانت غير محجبة.

فاديا.. التي تغبطني لطيشي وأغبطها لهدوء محياها فتاة من عمري ابنة إحدى أقلّيات سوريا. تدرس علم الاجتماع، لكنها إلى يومها هذا لم تجتمع

إلا بالجدران. تغطي شعرها وتضع النظارة حيطة في أثناء دخولها المناطق الخارجة عن سيطرة النظام كي لا يميزها أحد من رجال الأمن لها أثناء عودتها.

تغبطني لطيشي وأنا أغبطها لهدوئها. كانت الوحيدة التي شاركتني لوعة تحرقني وتحرقها. دفعت معي أثمانًا باهظة. تَكرم علينا فداء ببعضها وجرّنا بأكثرها إلى الهاوية.
وهذه الليلة الأولى التي ستقضيها فاديا حائرة قلقة تسأل النجوم عن مصير فدائها.

**

صباح حمصي بامتياز.
قلت لفداء: "إن قلبي يغلي جوعًا وخوفًا على إخوتي".
- مريح أن تنسجي المطالب كلها بجملة، كيف أفهم هذين الضدين، اللهم صبرني يا الله. كما الأطفال تحبين أن تطلبي الأشياء لتشبعي ثرثرة. أشك في أنكِ تفكرين بما عدا بطنك. أخبريني كيف قضيت ليلة أمس؟
- جيدة. ليلة ككل الليالي.. عليّ ألا أفوّت يوماً آخر، لا نمتلك هنا شبكة إنترنت تمكنني من طمأنة العائلة وإكمال محادثاتي المرئية.

منذ يومين ونحن خارج نطاق التغطية، لا نعرف ما الذي يجري في القابون ودوما والحاسوب متروك في ركن الدين وحده. كيف نعرف إن كان أهلنا وأصحابنا بخير؟
هل تعرف كيف نمت البارحة؟ صحيح قلت إنني جيدة لكن ليس بالمطلق.
- لا والله لا أعرف.
- طبعًا ماذا يهمك أنت سارد في أحلامك وتأكل فيها على كل ضرس لونا. بصراخ أجبت كأني أحكي تقريرًا في مداخلة تلفزيونية وأنا متأثرة بالأجواء النارية حولي. ثم خفضت الوتيرة. أقمت في بيت أشباح لا تعلم فيه ملامح

واحد من آخر، ولا تظهر عليه أمارات مقر إعلامي ولا عسكري. ألقوا بي في غرفة مفتوحة على رصيف. خمس قذائف يطلقها القناص باتجاهي كل نصف دقيقة. ورجل غريب يطلق الوسادات كما الرصاص.
- من هو؟
- لا أعرف.. اعتقدت أنك تعرفه.
استغرب على عجل وقاطعني:
- على أية حال سنواصل عملنا بعد قليل، لقد وعدني الرجل بهذا، توجد شبكة إنترنت هنا. ولكن ننتظر مجيء المعنيين بالأمر حتى يتيحوها لنا".

أصبحنا نحن الاثنان مكتوفَي الأيدي، ولا نعرف من أين نبدأ في مكان ابتلينا بأشباحه المجهولة.
جاء الرجل في الموعد المحدد، وأتاح لنا شبكة تواصل فضائية. لم يكد يشع وميض لونها الأخضر حتى وافانا صندوق الرسائل بعشرات الأخبار بما فيها عن المظاهرات جمعة هذا اليوم. اتخذت من غرفة فارغة لصيقة بالشبكة متكأً لأجري اتصالاتي. الغرفة فارغة كذلك. جلست على أرضها أتحدث مع الرفاق والأقارب. أرسلت التقرير الدمشقي لكل جهات الاتصال عندي. كان فداء يسمع مشاركتي على التلفاز وأنا في الغرفة اللصيقة. جئته فوجدت الصالة محتشدة بالناس. نظروا إليّ بلا إعجاب، دخلت أخوض بحديث متذمر عن بقاء براء في وادي بردى. انتبهت فجأة لعيون تلفني. الصالة ملأى بالحشود. اعتقدت أنني سأفهم شيئًا من حضراتهم. سألت ببراءة وربما بعَتَه (كالعادة): "لِمَ تفعلون بنا هذا"؟ جئنا لنصوّر لقاءات مع ألوية الفاروق. فأعرضتم عنا، بل وتعرقلون رحلتنا.

ردّ الطبيب حسام: "ولماذا نساعدكما؟ لا مشكلة لدينا في التواصل مع أي وكالة أو محطة فضائية ولا داعي لمخاطرتك كفتاة لأجل هذا.. مليان شباب".
رد فداء: "خلتُكم إخوة تستقبلون صحفيين من كل الدنيا. والأقربون أولى بالبر. تفاعلنا مع ما نسمع على الإعلام من مجازر في الرستن وبابا عمرو.

تصرفنا بقدر ما أتيح لنا".
ثمّ تدارك قوله عابسًا: "على أي حال. لم تكن القصير وجهتنا، ولكننا أعثرنا بكم صدفة".
هنا يدخل الطبيب محمد على خط الشجار:
"إنهن أربع أو خمس بنات سوريات، بالكاد يتحدثن إلى الإعلام. لم لا تكون من بينهن؟ على الأقل بتنا نعرف طلة إحداهن وجهاً لوجه. من يدري ربما الباقيات يتحدثن من أمريكا وينسبن أنفسهن إلى قطاع المعذبين المنكوبين في البلد".

لم يكن كلامه سوى من باب التطمين. طبيب يصعّد وتيرة الحديث والآخر يسدلها. لقد حكى كمن يستدرك خطأ رفيقه كي لا نشعر بنيّتهم. يخططون الليلة لعملية عسكرية تفضي إلى تحرير بلدية القصير، وهذه أهم منطقة بالنسبة للنظام هنا.
أشار الأخير إليّ: "سيأخذكِ أبو فارس وستصوّرين من تحت الاشتباكات ما تشائين وتحققين سبقا صحفيًا تحت النيران ما سبقكِ أحدٌ إليه".

أجبت بعناد واضح: "أسمعتني أقول لك أن لي وجهًا بهيًا يطل على الشاشة؟ لا أريد تحقيق شيء. كما ترى أنا أتبع فداء بالكاميرا فقط. لأنه الدمشقي الوحيد الذي تجرأ وتحدث ليثبت صدقنا. لا نريد شيئًا لأنفسنا، فحالنا مختلفة عن أحوالكم. ما يزال باب العودة إلى دمشق محدودًا بأربعين حاجزا. لا نريد سوى أن نكمل خطة طريقنا المرسوم والسلام".

عاد الطبيب محمد إلى الفضول واللعب بأعصابنا:
- وماذا استفدتِ الآن من هذه المخاطرة؟ وماذا استفدت أنت من مناشداتك على القنوات؟ لمَ تورطين نفسك مع هذا الولد ما دمت غير معروفة للنظام. وجه فداء معروف ويظهر بكلتا عينيه ليكشف جرائم أكبر من مقدرته. كيف ترافقينه وتتعرضين لخطر أكبر من ظهورك على الشاشة؟

إن قلت له: "لا شأن لك"، قد تكون عاقبة الجواب وخيمة عليّ. اتخذت كلامه هزوًا.. وأجبت متوجّهةً بالحديث إلى فداء بسخرية: "بصراحة لا أدري كيف ورّطتني معك بلا حسبان". ضحك الرجل ضحكة صفراء نقلتنا من الحديث عن العسكرة ومناوشاتها إلى موضوع الأكل. غادر المتجمعون في الغرفة وجاءنا اثنان من أفراد الكتيبة بالطعام.

تناسيت حقدي على الفور. مشكلاتنا والجوع شأن آخر، وليس من عادتي أن أخلط بين الاثنين أبدًا. تربعت أمام إناء المقلوبة الكبير، ملأت الصحن بالباذنجان والأرز وإلى جانبهما اللبن. أكلتهم دفعة واحدة دون أن أوفر قطعة فليفلة أو خيارة مكبوسة. في البدء ظنّني صاحب الأطباق جائعة خجلى، فملأ لي الطبق الآخر حتى نهاية الحرف. سكبوا لي الأول والثاني وملأت بنفسي الثالث والرابع. حاكيت الطبق علنًا: "ما أطيب الطعام بعد الجوع. اممم.. في العادة لا آكل كثيرًا بصراحة. ولكن اعذروني منذ ثلاثة أيام وأنا على لحم بطني فقط".
قاطعني فداء خجلاً مما أقول: "هل نفهم أنكِ ستعوضين الأيام الثلاثة بطبق الليلة"؟
لم أزحزح ناظري عن الصحن. التفت إلى الطبق مرة أخرى:
- الحمد لله الذي لم يطعمني المقلوبة على حسابك.

كان المتحلقون حول المائدة قد شبعوا منذ الطبق الأول. وأنا لا أراعي ما يُروى عن حصار حمص أي اعتبار. آكل بنهم كأني في بيتي وأعز. توجهت إليهم:
- أرأيتم بأمّ أعينكم كيف يضيق فداء ذرعًا بلقمتي؟
- لا تردي عليه. كلي أختي لا تأكل إلا العافية.

إن تحدثوا بحرف واحد عن نهَمي سأغنّي لهم موشحًا طويلًا عن جوعي وتعبي أدرأ به كل متاعبهم. فلو أنهم مجاهدون بحق لأكلوا الحلة كلها. فالأكل على قدر الطاقة والتعب طوال اليوم. وإن تحدثوا عن الحصار وقلة الطعام، قد

أكتب تقريرًا مفصلًا عن بخلهم في المداخلة التالية. أومأ أبو فارس ليسكبوا لي صحناً آخر. كانوا على يقين أني لم يعد بمقدور معدتي الاتساع أكثر، لكن يبدو أنّه لا بدّ من تلقيني درسًا محرجًا بعدما جعلت الحلة خالية.

لم أنتبه لهمزهم ولمزهم. لمّا عقدوا عليّ الأيمان بألا أتوقف قبل أن أفرغ الحلة. توقفوا جميعاً عن الأكل وبدؤوا يضحكون. اضطرّ فداء للتدخل وسحب الطعام من أمامي درءًا لمزيد من تلك المهزلة:
- ماذا جرى لك؟ تنكبّين على الأكل كأننا لا نملك في بيوتنا طعامًا.
سوّد الله وجهك. يتناجون حول لقمتك منذ دقائق.. عيار الجوعان أربعون لقمة.. لقد وصلتِ المئة.
صرخت في وجهه لهذه الفعلة الشنيعة.
- تأكل خمس لقيمات وتخجلني بشبعك مبكرًا أمام الناس. كل مرة أقوم جائعة، لكن هذه المرة لن أفعل.

كان هذا السبب كافيًا عما كل ما عداه لئلا أرافقه ثانية، فعلي أن أدخر طاقة حتى أتحمل القلق والفزع والحرّ. وهو لا يجوع ولا يأكل ولا ينام. ليس بإمكاني أن أعيش عيشته حتى لو رافقني. نحن شركاء وعليه أن يتفهم جوعي مثلما أتفهم شبعه.

هذه الأيام أحمد الله أنني تغديت وشبعت مهما قيل في بطري. فقد ركبني حصار حرمني أدنى مقومات الطعام اليومي، وجعلني أتنقل بين الميادين خاوية المعدة. لا باذنجانة ولا خيارة ولا فليفلة. لقد غيّر الجوع كل الطباع الحميدة التي ربيت عليها نفسي وأفقدني السيطرة.
غسل فداء يديه وتركني أكمل الصحن مستسلمًا.

Night Vision

الكون.. صمت الكون مخيف. انقطعت الكهرباء وخلا المنزل من ناسه. يترجم الليل سابقة هدوء تدل على أصوات الاشتباكات. لقد صدقنا الطبيب إذ قال: "ستبدأ المعركة عند مقرّ البلدية أول الليل". لكنه لم يصدق في مساعدتنا في التقاط الصوَر. صحيح أنّنا لا نجيد التصوير أمام الهاون ذي العيار الثقيل. لكننا نعرف أن أي صورة مهتزة داكنة أفضل من المضي دونها. رأيت فداء أمامي يصوب الكاميرا من النافذة باتجاه الصوت المتضارب. يلتقط الصور عشوائيًا بالخفاء.

ارتأى أن نغسل قلوبنا من آثار القلق لنركز في شيء آخر. مشيت أمامه إلى "ليوان" قرب باب الزقاق المظلم بكاميرتينا. تجاهلنا القنص المحيط. عند الخشب المتهاوي تعثرت ركبتي بقدم مسنودة على الباب بقوة. بموازاتها بارودة وضعت لتمنعنا من المغادرة دونما اعتراض.

قلت في نفسي لا بد لهذه الآلات التي نحملها أن تساعدنا في أمر ما. فتحت ضوء الكاميرا فقد تنفع أشعتها الحمراء في إرسال أضواء إضافية لا نراها بالعين المجردة. فكشفت لي الرؤيا الليلية للعدسة وجه أبي فارس. الرجل الذي كان يمازحنا على الغداء قبل برهة، يتخفى في العتمة خلسة حتى يساورنا الشك بأنه خارج الخربة.

أخبرته بلطف أن يذهب معنا ليساعدنا في التجول ويدلنا على الطرقات. هز برأسه وطلب مني بطبيعة الأمر أن أعود إلى الغرفة. تجاوزه فداء وفتح الباب. بقبضة مواربة لقّم أبو فارس بندقية روسيّته ليصوبها باتجاهنا قائلا لفداء: "أتحسبني أمزح معك؟". اقتاده إلى الغرفة بشناعة ثم طلب منّي اتباعه. اختلفت ملامح وجه أبي فارس كليًا. وعكست بوضوح شيئًا مريباً يخفيه نحونا. لم يُملِ علينا أي معلومة بل تحول إلى رجل مقتضب الحوار. أفهمنا

أننا ممنوعون من التحرك حتى يُعطى الأمر من سيده. أو سنبقى الدهر رهن إشارة مجهولة.

سأله فداء بغلظة: "لماذا أتوا بنا من خارج القصير ما داموا لا يمنحوننا ثقتهم؟ لماذا لا تشهرون أمامنا اعتقالنا ما دمنا معتقلين فعلاً؟". تنفس فداء بعمق في العتمة وهو يقلّب الاحتمالات. إن تواصل مع المقدم أبو محمد وشكا له سوء المعاملة، سينكرون كل ما فعلوا وربما سيزدادون سوءًا لسبب ما زلنا نجهله. حدق فداء في عينيّ. وصارحني بمخاوفه لأول مرّة.

هل يمكن أن يكون راعي الغنم الذي قص الطريق بنا قد أرسِل ليواصل مراقبتنا ويعرف أي طريق سوف نسلك ومع أي مجموعة نتعامل؟ أينوي الرجل أن يتخلص من إثم قتلي على أرضه لأنني سألت عن عمران؟".
المشكلة أيضًا أنني أبرزت لهم هويتي ليتأكدوا إن كنت إعلامية أم لا. وكم تعجبت من هذا الطلب. أي إعلامي عاقل لا يفعلها ويظهر على وسائل الإعلام باسمه الحقيقي حتى يتأكد من اسمي في الهوية. إذًا لماذا طلب هويتي وقرأ اسمي كاملًا على الملأ؟

لم يكن يبدو على الرجل الذي اعترضنا في القلمون أنّه صاحب كلمة مسموعة إلى هذا الحد. كان مجرد مسلح يحرس أرضه ولا يسمح حتى لطائر بالمرور عليها دون موافقة. قال فداء بجدية: "عزيزتي.. ماذا لو قتلت أو أسرت هنا؟ ما عساي أفعل بك؟ لا أثق بأحد ولا أنت تعرفين منهم أحدًا". لام أحدنا الآخر حين انبعث صوت الراجمة من جديد. عابثًا بالوشاح على كتفي، همس فداء باسمي: "أتتوقعين أن رفقتكِ لي قد زادت الأمر تعقيدًا وعمّقت شكوكهم بنا؟".
- كلا، فنحن لا نخالف عرفهم، هناك أمر غير مفهوم لا يتعلق بي ولا بك.
ارتاب الليل، ونحن عالقون في الفكرة ذاتها. ماذا سيحدث في مكان غريب إن مكروا بفداء أثناء العودة أو قتلوه كما قتل عمران؟ ليس هناك شيء مؤكد

ليجعلنا نهرب الليلة بخطى لا رجعة فيها.
مضت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. التقطنا كل الصور التي أتيحت في الخربة بعيدًا عن أعين أبي فارس. تبعتُ فداء بالكاميرا مستغلين أدنى الظروف السانحة. بدأ القول بصوت خافت "نحن الآن في القصير.. إبادة جماعية.. كل خمس ثوان تسقط قذيفة وتستهدف البيوت والمشافي".

لم تكن لدينا فكرة عن التمهيد للتصوير أو الإعادة. وحين نحرر صوراً ما نُظهر الشخص الذي يتحدث في التقرير مرات ثلاث. يؤدي المراسل دور المراسل والضيوف معًا، ويحكي عمّا يرى دون تحضير مسبق. تأخذ القناة منا كل هذه العاهات الصورية اضطرارًا. لأن الخلفية تحمل أحداثا قاتلة لا يشرحها إلا شخص سمع ورأى.

**

مرت ساعة ونصف، وعلَت يدُ فداء وهو يرفعها وينزلها محاولًا إرسال رسالة إلى أصحابه في الرستن لعلهم يولونه اهتمامًا ويرسلون أحدا لنجدتنا، أو لمساعدتنا في توفير ظروف عمل أفضل.

رجحت المعركة في الخارج إلى كفّة الثوار. لكن النيران ما تزال تعلو على أشدها بين الطرفين. لمحنا من النافذة منظر بزة عسكرية مجهولة تتسلل باتجاه الخربة حيث نحن. كأنما هو عسكري من قوّات النظام هارب. هل نحن بين خطرَين؟ اقتحمَنا صوتُ صراخ رجل تسلق الجدار في أعلى الغرفة التي كنت أنام فيها. طلقات الرصاص تعلو فوق رؤوسنا، والكل منشغل بسوانا.

لا نميز رجلا في جيش النظام من آخر في الجيش الحر. من الذي تسّلق الجدار للتو؟ ركضنا إلى المخبأ المجاور. وحبسنا أنفاسنا ريثما نفهم ما يدور خارجًا. اختفى أبو فارس ولم يبق في البيت سوانا. انقطعت الكهرباء والإرسال مرة

أخـرى وازداد الأمـر ريبة. عاد فداء أدراجه ليجلب أجهزتنا من الطرف المقابل، فمازالت الشـكوك واردة حيال عسكري مجهول دخل الغرفة.

مشـيت خلفه نحذر من ورائنا ومن أمامنا ومن أعلى ومن أسـفل. فتحنا شرارة الجهـاز المحمـول لنـرى الأشـياء في الضـوء. المعـارك تجري في محيـط مظلم، فالنظـام يملـك قناصـات ترصـد كل صغـيرة وكبيرة، مـا يمنع أهـل الحي من إشـعال أي وميـض قد يكشـف مواقعهـم. هـدأ الوضع فجـأة. لا رصاص ولا اشـتباكات ولا كهرباء.

بـدت الأمـور أقل توترًا ودخلت مُنى من الباب بشـكل طبيعي. لم تكن بصحبة رجـل غريـب. هذه المرة أوصلوها لباب الخربة ورحلـوا. دخلت لتنام في الغرفة المشـبوهة، تلك التي يخيم عليها الرعب من خيال رجل تسـلق أمس هاربا إليها. كيف أنـام في الغرفة ثانية؟

بمـا أن الأمـور تتعقـد الى هذه الدرجـة، أخبرت فداء بمـا جرى الليلـة الفائتة، وأن رجـلاً غريبًا خلف السـتار حاول اسـتنطاقي، وأن الغرفة كانت مكشـوفة للشـارع مبـاشرة. احمـر وجه فـداء ومدّ يـده إلى إزاره:
- خـذي هـذا.. احمي به نفسـك. ضعيـه في الحقيبة بسرعة مـع معداتنا وأبقيه قربـك حين تنامين. قـد تحدث معكِ أمـور مريبة الليلة.
- وأنت؟ ما الذي سيحميك؟
- أنـا.. آه.. سـأبقى مسـتيقظاً لعـل الصبـح قريب. نامـي جيدًا فصبـاح غد لا يبشر بخير.
- حسنًا.

كان فـداء ينوي الهرب في الصباح، لنلتقي رجلا عند المداخل سـيحاول إخراجنا إلى أقرب خط آمن. ركنت الحقيبة قربي ونظرت إلى الكاميرا بسـخرية. الغطاء الإعلامي لا يحمينا قَـط بل يعرض الرحلة لخطر مضاعف. الكاميرا وإن وثقت

حدثـاً جلـلاً أو أخذتنـا إلى عدالـة متخيّلـة، فإنهـا لا تدفـع عنـي رصاصـة ولا تزحـزح مـن يريـد اعتقـالي، بل تطلب منـي أن أحملهـا أينما رحلـت. وها هي تنظـر إليّ بعينهـا التي هـي كعين بومة لا تفنّد أيّ ادّعاء بأنّها سـتجلب آخرتي.

ينتابنـي الغيـظ.. إذ كيف نغادر يوم غد ولا نعـودُ بالثمار التي جئنا من أجله؟ أيـروح تعب الطريق سـدى؟ آخر مرة أغلقت حسـاباتي الوهميـة في المواقع إلى إشـعار آخر، كنت قد شـغفت بجمال المقاومين الأخاذ. جئت أرسـمهم بلوحتي الصغـيرة، لعلمـي أن كل حـدث لا يوثق ليس إلا جعجعة رحـى. هجرت مواقع التواصل لأني أبحث عن حياة مكتملة أعيش تفاصيلها. لقطة مباشرة يشاركني النـاس بها القلق والتوتر ونشـوة الانتصار. هجـرت المجموعات التي صممتها. أوقفـت قناتـي عـلى يوتيوب لأنخـرط في الشـارع إلى أبعد حد. حـدث ذلك قبل عهـد فداء وقبل أن يجد نفسـه غمـدًا لمدينتنا، ثم أخبرته برغبتي في التواصل مع المحطات. ليُمطِر حسـابي بعناويـن كل القنوات العربية تباعًا.
لم يكن الأمر اعتياديًا. انقسـم الناس قسـمين، قسم ينشط في الميدان بلا هواتف ولا اتصالات، وآخر ينشـط في الإعلام من خارج البلد باسـم هيئات تتحدث عما يجـري في الميـدان، دون أن يعرفهم أهل الميدان أو هـم يعرفونهم. راج الحديث السـاخر يومهـا: "هـم المخفيـون الذيـن يعملـون مـن وراء الكواليـس، ونحن التعسـاء الدراويـش الذين لا يحسـنون نطقًـا ولا يجيدون أكثر مـن لعن روح حافظ في السـاحات بجهل، وبدأ كل واحد يحتكر جهات التواصل والأرقام التي يتعامل معها لصالح جهة بعينها أو ربما لصالحه الشـخصيّ".

فـداء.. ابـن الميـدان وابـن القابـون قبـل كل شيء، ذاك الحيّ الصغير المشـهور بطيبـة أهلـه وكرمهـم وبسـاطتهم وسـذاجتهم أحيانًـا. يحب فـداء أن يتزعم الشاشـة ليتكلـم بالتفاصيـل الميدانية والعسـكرية التي شـاهدها. يؤمن بقيمة العمـل الجماعـي ويسـعى لجمع أكـبر عدد ممكن مـن الراغبين بدخـول مجال الإعـلام حولـه. وقد دعا بنات معارضات من عمري ليكمـل بهن ركيزة مكاتب دمشـق، لكن الخـوف والجدل والسـجن يحول دون هـذه الرغبة.

دنـا فـداء منـي ومن عائلتـي ودعم رغبتي بكل مـا يملك، وأكمـل ما نقص من معداتـي. راحـت الفئـة الأخـرى تتضـور من صوتـي. كيف لي أن أتزعم اسـم مدينـة مليئـة بالرجال؟ زعموا في ما أقوله الكذب والافتراء، حتى لو كان كلامي يصب في القضية ذاتها. سـيبقى الصوت الصادر مني نقيصة ومعابة. كان عليّ أن أسـتأذن الفئـة التي تعنى بالإعـلام الرقمي قبل النزوح لهـذه الخطوة، وإن كنـت في العادة لا اسـتأذن حتّـى وليّ نعمتي.

عوملـت بالموضـة الرائجـة، واتهمـت بأننـي أتحـدث مـن بلـد لا أحلّ فيهـا. إنها الوصفـة المثلى لتلقيني درسًـا على هذا العناد ووضع حجر عثـرة أمامي وأمام أيّ محطـة تتركنـي أدلي لها بشـهادة لأنني لا أعيـش في الداخل.

أتذكر أني معاندة عاتية بما لا يقتضي أن أفكر بحواس شخص مقابلي. لا أؤمن بالفكرة التي تعتقد أن علينا مراعاة المجتمع الذي نكون فيه. ما هذا الهراء؟ لتقال الفكرة لواحدة غيري. لو أني بنت مدينة أخرى لربما قبلت لأني جاهلة بالأعراف. لكني أجيد التعاطي مع الأقرباء والأنذال ومع عقلية الجد والجدة، فهذا مجتمعي بالأصل. أعرف التشابك الحاصل في تلك المدينة. مليون إنسـان فيها منقسـمون إلى خمسين رأي. هل يعقل أن أفكر بمشـاعر مليون إنسـان لأنه يطلق عليهم اسـم "المجتمع"؟ لم لا يفكر واحد من المليون بمراعاة طيشي؟ قطعاً ليس باستطاعتي أن أرضي مليون شخص. لم يجتمعوا مرة على فكرة.. هل أقعد مكتفة حتى أجد فكرة ترضي الجميع؟

لسـت إلا مزمار حي لا يُـطرب. إن بقيت أعمل مسـعفة تحـت الرصاص طَوال عمـري، هكـذا فقط سـأرضى الجميـع. سـيدعون الله عـلى الـدوام أن يحميني، لأن الأمـر سـيظل سرًا بـين أهـل المدينـة، وأظـل أنـا مـلء أيديهـم في أي وقت. سيخترعون الدعوات لأمجادي ويخفونها في أي وقت، أما إذا ما بحت على التلفاز بشـجني سـأزدان ثقة وثرثرة. ومن يـدري ربما أتحدث عـن خطيئاتهم في حقّ الإعـلام لاحقًا لذا سـيدعون الله عـلى الدوام أن يأخذني أخـذ عزيز مقتدر..
وأقول يا رب استجب أو لا تستجب.. فأنا بين يديك وحدك.

**

نَـــكِّـــروا لها صورتها

في يوم من الأيام رغبت ألا تكون مهمتي مجرد مرافِقة تموّه عمل الشـباب أمام الحواجـز. أضربـت عـن أي خدمـة أسـديها. حتـى اقـترح فـداء أن أرافقهم في رحلة إعلامية مشـوقة لكنها ملأى بالمُخاطرة.

انطلقنـا مـن بنـاء في حـيّ ركـن الديـن الدمشـقيّ. التقـى كل أعضـاء المكتب الإعلامـي في ركـن الديـن عند هـذه النقطـة. ركبتُ مـع ثلاثة شـبان في حافلة خـضراء كبـيرة. كالذي تزج به قـوات الأمن المعتقلـين في العادة.. جلسـنا بهذا الترتيـب: فـداء، بـراء، محمـد، والسـائق وأنـا. كان بـراء ربعة القامـة يرتدي سروالًا أبيـض قصـيرًا، وكنزة ضيقة تبرز له زندين سـمينين، ونظارة سـوداء يعلقهـا عـلى أذنيـه الحنطيتـين؛ وتارة على شـعره المبلـول المثبَّت. نـزل أدراج الحافلة ليظهر للناس في الشـارع أنه يطير بين حرف الدرجة والهواء؛ كأنما هو عميد في أكبر سـلك أمني في البلد؛ موحيًا للحواجز التي سـتعترض طريقنا بأننا ثلة من الشبيحة.

يحمـل بـراء إجازة عسـكرية توحي بأنـه ضابط سـيعود إلى ثكنته بعـد أيام. ووضعـتُ أنـا نظارة شمسـية على عيني في نهايـة الحافلة؛ بينمـا ارتدى محمد وفـداء زيًـا تمويهيًا يتناسـق مـع زي براء؛ حتـى خلتهما من جهـاز مخابرات بالفعـل، وصرت أخـاف أن أدلي أمامهمـا برأيـي. صدقـتُ الكذبـة حتـى كدت أهتـف بينـي وبـين نفـسي "شـبيحة للأبـد". الوجهـة كانـت إلى وادي بردى - غوطـة دمشـق الغربية.

وصلنـا بالسـلامة. إننـا أكـبر مـن أكـبر فـرد في الجيش. نحـن سـلك أمني له صولته وجولته لا أحد يجرؤ على استجوابنا؛ ونحن نسير بهذه الثقة والسرعة. كانت وادي بردى إحدى قرى الاصطياف المؤنقة التي تزنّر دمشـق. اسـتقبلنا أهلهـا بأنـس وود، ملأوا لنا أمام خـط النهر أطباق كبب مقـلاة ومثلثات جبن

ومشـويات. تركـوا كرات البطيخ الأحمر تغسـل نفسـها بمـوج النهر. شرايين البلدة ما تـزال تجري جريان بردى.

تسـلحَ أهـل النهـر مبكـرًا ليمنعـوا الجيـش مـن التفكـير في اقتحـام بلدتهـم. اصطنعـوا لأنفسـهم جيشًـا مـن أبنـاء البلدة. فرضوا سـطوة فريـدة لا تمس. يقيمـون الحواجـز ويفتشـون النـاس كمـا لـو أنهـم جهـاز الأمن. لكنهـم إذا مـا اشـتموا ريح فريق إعلامي في سـيارة مـارة أطلقوا الشـعر والمدائح احتفاءً وتكرمًا، وأخذ حراس الطريق يتنافسـون بمقدرتهم على السجع والقوافي أمامنا وكثيرًا ما يسـهبون في تأخيرنا ليجبرونا على سـماع قصيدة؛ حشـوها وصدرها وضربهـا. يلقمـون البندقية ويطلقون رصاصها تباعًـا على شرف مرورنا قرب نقـاط حراسـتهم؛ تقديرًا لهذا الشـأن المغيّب عـن قريتهم.
لـذا اسـتجاب فـداء لدعواتهـم المتكررة. فهـم أن البلدة تشـهد أحداثًـا جليلة لا يسـهب أحد في تغطيتها.
كان براء قد انشـق من الخدمة العسـكرية للتوّ، وتلـك المغامرة الإعلامية الأولى التي يشـهدها. يكاد لا يصدق مشـهد الناس حين تحرروا من كل ما كان مقيداً بـه أثنـاء الخدمـة. لفت طيب معشر أهل الـوادي نظره؛ فراح يغـرق في التقاط التفاصيل على كاميرتـه. ويبالغ في التلاطف مع أهل الوادي.

أدرك فـداء هنـا أن أهـل الـوادي يطمعـون بعلاقاته لإنشـاء مكاتـب إعلامية؛ لكـن الأحـداث والأخبار عندهم شـبه منعدمـة. لا شيء سـيدفعه لتزجية الوقت هنـاك. ارتـأى أن يدعـو إليهم في جـولات إخباريـة بعض الإعلاميـين من حين لآخـر؛ دون أن يقطـع لهـم وعـودًا. عرف فـداء أن لطف براء المفرط سـيخلق مشـكلة في الفهم، فقد بات يشـيد بنشـاطهم الثوري الذي لا يحدث مثله في مدن سـوريا. الأخ بـراء طبعًا لا يعـرف ماذا يحل بسـوريا بعد.

انتهـى اليـوم الأول، ومـا يزال بـراء يلتقط جناحـي البعوضة وضفـاف النهر بعدسـته. الرجل جـاء يتفنن ويطبق الدروس التي تعلمها في الجامعة. السـاعة

الثالثـة ليـلاً.. وأنـا أحنق من غبـاء براء رويـدًا رويدًا. نجلـس في أثناء تحضير أهـل البلدة لمظاهرة سـتنطلق وقت الفجـر من يوم الجمعـة. لا نمتلك أكثر من ثـلاث سـاعات للنـوم. دخلنـا مبنـى فارغًـا خصّصه الأهـل لضيافتنـا. يصعد الشـباب للنـوم في الركن أعلاه، وأنزل أنا للشـقة الأرضية.

يفتح لي الرجل باب الشـقة ليدلّني إلى الوسـادات والشراشـف. يمسـك بحواف الـدرج ويتوقـف برهة. يقترح بـراء أن يأخذ مني الكامـيرا ليلتقط لي صوراً في الصبـاح. نظـرت إلى بـراء نظـرة لـؤم مشـوبٍ بالحقـد وأجبته بخبث شـديد: "احتفـظ بنصائحك لنفسـك ولا تتدخل فيما لا يعنيك، لقـد أتيتُ لأصوّر مثلك".

أبقـى فمـه مفتوحًـا عـلى الوضعيـة ذاتهـا، مصدومًا بجوابـي. لكنّ فـداء كان يتمايـل فرحًا بخـزي صديقه؛ لأنّه يعرف أنّه أكبر حـشري في البلد. أخفى فداء شـماتته وحاول تهدئـة ضغينة الموقف. جدال وتّر أجواء الرحلة وكاد يكشـف "الولدنـة" التـي نخفيهـا أمـام أهل البلـدة. نمـت نومـاً متقطعاً متعبـا؛ أنظر للسـاعة كل دقيقة حتى أسـتيقظ على موعد المظاهرة تحديًا لما قال براء.

صـوّرتُ المظاهـرة، صعـدتُ الجبـل المرتفـع، تسـلّقنا القمـم لنصـور المقابـر والمشـاهد الخلابـة في آن. الأهـم أنـي نسـفت أقاويل هـذا الحـشري الفريد من نوعـه. هـو في الرابعة والعشريـن، من مواليد الصابونيـة بمحافظة حماه. لكنه يقطن دمشـق منذ زمن؛ وقد درس الإعـلام فيها ويقول إنّه قضى أمتع لحظات شـبابه على مقاعد الجامعة.

صدّقـتُ منذ البدايـة كل الخصال الذي نعته محمد بها. هو ثالث الشـبّان الذين رافقونا إلى الوادي.
"تعـاليْ لأحكـي لـكِ قصتنـا القديمـة مع هـذا الحشري. هـو فتى جـاد خلوق، لكنّـه يبـدي التملقَ أمـام دكاترة الجامعـة؛ كل الطلاب يغتاظـون منه. وتفسَر تصرفاتـه بالخبـث دومًا، لكنه بصراحة أغبى من أن يكون خبيثًا". تدارك محمد

قولـه: "بـل ربما أبسـط. انظري لـو كان الشـاب كذلك لما اسـتجاب لمطالبنا في الانشـقاق ولكان اسـتمر في التزلف لقائد قطعته إنه صديقي وأنا أزدريه حتى لا يطيل في الثرثرة"

.

يـدوّن بـراء كل كلمـة مهمـا صغرت موازينهـا، ويلتـزم بالمواعيد كمـا لو أنها محـاضرات في الجامعـة. جدّه ومثابرته ألحقته بمعهـد التدريب العالي؛ ليحصل عـلى شـهادات بتقدير امتياز في التصوير وصياغـة الخبر وكتابة القصص. حين كان بـراء في الخدمة العسـكرية بـدأت الثورة. كان يفترض أن ينهي الشـهرين الأخيريـن وينخـرط في ميدان العمل كأي شـاب تخلص مـن أعباء الخدمة.
أوائـل عـام ألفين واثني عشر أعلن بصوته وصورته عـلى كل القنوات انضمامه إلى الثورة وانشقاقه عن جيش النظام. لكن المفاجئ أنه صنّف نفسه على المنابر إعلاميا وعسـكريا في الوقت نفسـه. لا أدري كيف ترتبت معه هذه المعادلة.

يمتلـك بـراء قدرة خارقة على اسـتفزاز جميـع من في المكتب عنـد أصغر كلمة. لا نؤاخـذه عـلى أيـة حـال. فبرغـم ثقافتـه كان "أجـنّ" الموجوديـن. هـو أحد ثلاثـة يظهرون بإطلالتهم الكاملة على الشاشـة دون أن يهابـوا الاعتقال. أفهم الآن كيـف كنا نخلط الاشـياء ببعضهـا.. الميدان الطبيّ مـع الإغاثة مع الإعلام، لكننـي لا أفهـم كـون بـراء متخصصـاً في كل شيء. أي جولـة، أي نصيحة، أي فلسـفة، أي لقمـة، أي عدسـة أي سـيرة يفهـم بـراء فيها.

كل النـاس يلتقطـون الصور ويهربون إلا براء، يصور في الأماكن الخطرة كأنما ذاهـب في "سـيران" للترفيه عن النفـس. ويظل ماضيا مع العدسـة.. حتى أظن أخيرًا أن جنود الأمن سـيقتحمون المكان ويعتقلونه وهو لا يزال يطبق القوانين التي تعلمها من أساتذة الجامعة.

لمّـا عرفتـه أول مـرة؛ كنـت أنهي مداخلتـي التلفزيونيـة للتوّ. أشـاد بي ونطق كلامًـا ناعمًا حلـوًا لأنني أهتم بالتفاصيل الرصينة. فأنـا فتاة نجيبة لأنني قلت

عـلى الشاشـة "ظفَـر بقتل فـلان"، بدل أن أسـتخدم الفعـل المتـداول "اغتال". أعجبتـه الكلمـة؛ راح يطـري بعشـقه لتنـوع المفردات وتمسـكه بتقاليـد اللغة الرصينـة تحـت أي ظـرف. في تلـك الأثنـاء كنـت في المقـر ألفّ جهـازي حول بطنـي وأتأهب للهـروب. الدبابات تتجـول تمهيدًا لحملة دهـم واعتقال كبرى، والمدينـة تعيـش فاجعة اغتيال أحد أهم رموزها، بينمـا راحت القوات النظامية تحـرك عجلات "الكاسـحة" اسـتعدادًا لحملة دمويـة عليها أن تخمـدِ أي نفس معارض.
وبراء مازال يفكر بوقع فعل "ظَفر".

**

جلسـت على كرسي إسـفنجي في قرية عين الفيجة. قررت أن أشـق الصف قليلًا حتى أسـود. همسـت بعيـدًا عن أذن بـراء: أريـد أن أطير فوق حدود دمشـق. أريد أن أرى بلدانًا سـورية أخرى لا نسـمع صداها إلا على الشاشة. طرحت على فـداء الفكـرة. كل الإعـلام باتجاه حمص يسـدد خطـاه، ما الذي جـاء بنا هنا. أتحسـبها عـليّ جولـة؟.. كلـكَ أضغـاث كلمات.

شـعر فداء بالاسـتفزاز لكنّه أعجب بالفكرة؛ وراح يتواصل مع رفيقه القلموني على الفور. ترك معداتنا في عهدة براء في الوادي، وبعدسـة صغيرة وحاسـوبين شـددنا الرحال إلى ريف حمص كأنما الأمر يحتاج إلى مجرد قرار. عقدنا العزم بنـاء عـلى حديث مخـترع للتو. إسـفنجي كمـا الإسـفنجة التي اخترِعـت عليها الفكرة.

أكمـل محمـد وبراء تصويـر تقرير عـن الإضراب في الوادي وعـادا إلى القابون ببـاص الشـبيحة؛ ونحن ما زلنا عنـد نقطة العقدة.

**

اقتطعت بابا عمرو كقطعة صغيرة من ثاني أكبر المحافظات السورية، واجتث أهلُها من جذورهم. أحرقت ممتلكاتهم ونزح أهلها إلى مدن قريبة. معظم من التقيناهم في القصير هاجروا من باب عمرو بمشاعر الخوف والحب لتاريخ طويل نسخوه على جدران المدينة. نُسِف كل ما على الجدران. حتى الحرفان اللذان كتبتهما منى مع ابن خالتها يوم كانا صغيرين. يحارب أهل بابا عمرو من أجل حالة إعلامية قوية تناشد العالم من قلب كل مجزرة. هذا كل ما بقي من أملاكهم. أصغر واحد منهم غدا ممثلا إعلامياً عن مجموعة ما.

مع كل الأشياء التي راودتني وكل الحمم التي تلقيناها، لم يهدأ لي بال حين عرفت أننا سنرحل فارغي الوفاض. ليلًا وكما الإزار لففتُ الحقيبة والحديدة التي خبأتها بها على بطني بحجة آلام ترافقني. أمّنتُ نفسي ثم أيقظت منى؛ قررت أن أخبرها بكل شيء. رجوتها أن تذر الخوف جانبًا وتحدثني قصتها التي قطعتُ وعدًا بألا أبوح بحرف منها. أسررت لها أني سأغادر الصبح وربما يكون هذا آخر لقاء بيننا. إن استجابت لمطلبي سأضع لها لثاماً خلال التصوير ينكّر صورتها، كي لا يتعرف عليها أقرب الناس، وقلت إنني سأجري تغييرات على صوتها خلال المونتاج.
تخافتت معها بلغة الاشارة:
- ثقي بي أرجوك وسأساعدك بكل ما بوسعي لتغادري هذه الخربة إن شئتِ.
ابتسمت منى ابتسامة مدينة منكوبة جاءتها الريح لتقنعها بالهجرة مع المهاجرين؛ وهي المشلولة بلا قدمين.

كانت دموعها تنهمر. في جوف الليل يبدأ الحديث مع أي إنسان بأخذ مجرى آخر. يتحدث الإنسان للإنسان؛ الروح للروح والعين للعين. حتى الكاميرا تتنحى جانباً أمام قداسة الأرواح. ستنسى أن تأخذ للصدق نسخة وإن أشعلت وميضها خفية. لحظة الصدق ستنطفئ الكاميرا.. لا شيء لحظتها يختبئ.
لا تعيش منى أيامها بالإصرار الذي نزحت به، لقد قضت أغلب أيامها يتيمة الأب. زوج والدتها وجد مقتولًا برصاص النظام في آخر إضراب عام في الحي.

داهمت قوات الأمن دكانه واعتقل الولدان معه دون أن يسمع عنهما أي خبر بعد ذلك لكنها لا تحزن عليه أبدًا ولم تشِ بها الغصص أثناء نجواها بقصته.

أتمت منى التعليم الإعدادي ثم انقطعت عن الدراسة، والتحقت بمركز ثقافي متخصص لتعليم الفتيات التجميل وقص الشعر، لكنها وجدت نفسها لا تميل لهذه الألوان. جذبها التمريض والطبابة والإسعافات الأولية فاكتسبت هناك خبرة متواضعة.

لا دخل ماديا لها بعد موت أبيها. وأمها لا قوامة لها على رجل مزاجي عصبي يعمل في إصلاح سيارات البلدية صباحاً وبيع الخضار في المساء؛ دون أن يوفر شيئًا لصغاره من دمه ولحمه. فكيف له أن يفكر بمُنى وهي ابنة رجل آخر، تزوج بها طمعًا بيتها. لولا ذلك لما أتيحت له فرصة الزواج طيلة عمره بهذا الأجر الزهيد.

يطرد منى من المنزل كلما فقد اتزانه وفرغت جيوبه دون أن تتفوه الزوجة بحرف. قررت منى أن تبدأ حقبة جديدة من حياتها بعد بلوغها سن الرشد. تمنت لو تستطيع العيش بمفردها في أيّ غرفة حقيرة حتّى لو كانت بيتًا للخلاء. لكن أصغر غرفة في الحي إيجارها أكثر من أربعة آلاف ليرة.
العمل الذي وجدته منى كان بألفي ليرة فقط. لا يمكّنها أكثر من شراء وجبات اليوم. ولدت الفتاة فقيرة مثل كل سكان هذا الحي. أقسم الشقاء مدى الحياة ألا يفارقها. لو لاحقتها عدسة ما قبل عشر سنين من الآن، كانت ستحكي قصتها كاملة دون أن تتوقف عن البكاء. ستطلق ألف مناشدة لتغير التعاسة التي لبستها، عدسات الصحافيين آنذاك لم تكن ترقى لتصل حياً شعبياً كبابا عمرو. كيف سيُفسح مالك قوت البلاد المجال للحديث عن مشكلة أصلها في الأول والآخر انتهاء راتب الموظف منذ ثالث يوم في الشهر.

لا أنساها ولا أنسى الخمول الذي يرسو على محيّاها. معطفها زيتي اللون؛

تخلـع الحجـاب وتنـام بالمعطف الثقيل طَـوال الليـل. تعيش عيشـة الزاهدات المهاجرات من الدنيا. تتحدث عن قصتها بلا أي حماسة ولا تعابير على الجفنين، بالـكاد بكـت أمامي مرّة واحدة بطريقـة باردة جداً.

ذات ليـل تشرينـي دق جرس المنزل فأتاها شـاب مدمى من خلـف الباب يطلب النجـدة قـال إنه "محيي" ابـن جارها الأخرس، لا ناقة لـه ولا جمل في تفاصيل المظاهـرة. أدخلتـه منـى الغرفـة فـورًا. يعـرف محيي مسـبقًا أن منـى تعمل ممرضـة عنـد طبيبة نسـائية في المجمع، ولديهـا خبرة كافيـة لتضمد جرحه في عتمة الليل.

أحسـت منـى كم تبـدو مهمة هـذه الليلة؛ وكـم أن حياتها أسـمى بكثير من أن تعمـل لمجـرّد أن تدفـع أجـرة الغرفة آخر الشـهر. شـعرت أنها أغنـى ملكة في التاريخ حينما نجحت بتضميد الجراح النازفة. وأحيت كل من في الأرض حينما رأت محيـي يلبـس ثوب العافية. في اليوم التالي تركت غرفتها واتخذت قرارًا أن تواصل عمرها في المشـفى الميداني ببابا عمرو. نسـيت منى كل العالم حتى أمّها لم تعد تزورها إلا في المناسـبات؛ لأنها تعتبر زواج والدتها سـبب تعاسـتها كل العمـر. بـل قد احتفلت سراً بموت زوج أمّها وكانت بخبر وفاته أول الشـامتين.

نزحـت مـع أمهـا من بابـا عمـرو برفقة كتائـب الفـاروق، وأحيـط بهما حتى وصلتـا مكانًـا جديـدًا لا تعرفان فيه أحد سـوى الرجل المجهـول الذي يحاذي غرفتـي. هو مـن يعطيها التعليمات ويعتبر نفسـه وصياً عليهـا؛ لأنه أوجد لها عملًا هنا. يجلب لها الطعام والشراب كل يوم. لمسـت في عينيها اسـتلطافًا كأنما يسـتغله الرجل كل ليلة وربما يسـتغل غيابي أو وجودي.

مـا أخفتـه منى عنـي ليلة أمس بدأت تكشـفه الليلـة. قالت إن هـذا الرجل جاء خصيصًـا ليراقبنـا ويتحقق من أمرنا. وأبلغتني أن اسـم سـيده عبد الله. لكنها سرعـان مـا بدأت تدفع عن رجلها سـوء ظني. قالت إنه شـهم فقير وهو مجرد

عبـد مأمور عنـد قائد كتيبته؛ وإنه يحبه ويحترمه لأنـه يعمل لصالح الثورة. لا يفتـأ أبـو عبـد اللـه يصـادف طريقنا كل مـا أقفلنا بـاب ذكره. ما بـال هذا الرجـل؟، ألوم فداء كلما تذكرته لأنه جاء وسـأل عن رجل مشـبوه خائن؛ دون أن يحسـب للحـرف أيّ حسـاب. لـم أعد قلقة عـلى أي حال؛ الجميـل أن حكاية منى تبلورت في رأسي فأنسـتني كل ما عداها، وحسبتها نقطة انطلاق تقريري. سـأكون الوحيدة التي التقطت زوايا هذه الغرفة وأرواحها السـاكنة. نسجت في خيالي قصة إنسـانية من العدم؛ ولكن بطلـة تقريري لا تزال خائفة.

كيفن كارتر السوري

ترسل فوانيس الشمس نورها إلى الخربة رغم اسوداد المكان. استيقظتُ على شعور بالارتياح لأول مرة. أفواه نسائية تثرثر والحال عجب عجاب أيما امرأة جاءت لتتشاجر مع مُنى "قبل الشحاذة وابنتها".

كانتا تتشادان من أجل خمسين ليرة. سدّدتها منى للسيدة "خمسة وراء خمسة". وضعت السيدة كل ثلاث خمسات بجيبة. هذه السيدة تملك أكثر من سبع جيوب. تحسبها قصت كل قمصانها وصنعت منها جيوبًا بعيدة عن مرمى النظر لتطمر بها قروشها. على رأسها عصابة سوداء وثوب أسود ملفوف عند الخصر بقماشة؛ تتمتم بكلمات غير مفهومة فنصف أسنانها أكلها الدهر. كيف تفكر هذه السيدة بجمع المال والقصف لا يتوقف. كيف تساورها نفسها لتأكل وتجوب الأسواق؟ في أي زمان تعيش هذه؟ قلت في نفسي: "يا لها من دنيئة نفس".

في وقت متأخر أدركت أن من الصعب جدًا أن تقنع كبار السن في تغيير عاداتهم ولباسهم وطعامهم.. وبالتحديد أرضهم. سيدفعون حياتهم كي لا يبرحوها؛ حتى ولو عاشوا فيها بلا هدف، هكذا يفكر الكبار. يستنكرون حوافز الجيل الجديد، ويعتبرون أي مساهمة نحو التغيير بدعة واختلاقا. لن ألومهم؛ فقد أصير مثلهم حينما أكبر، بل أشعر أنّني تشبهت بهم قبل أن أهرم.

أول النهار بدت لي هذه السيدة متسوّلة تتردّد إلى منى لتعطيها قطع النقود. فالعجوز اعتادت الأصوات الضخمة، وما عادت الأصوات الرئيفة تجدي مع مسامعها نفعاً. بعد لحظات من قدومها سُطِّر تاريخ جديد بدماء القصيريين. طائرتان نظاميتان حلقتا في الجو.. قيل في الشارع إنّهما فتكتا بعشرات الناس فسقطوا قتلى وجرحى. كأنّ كلّ ما رأيت سابقاً كان لعبًا ولهوًا. كأن الآتي يعني الأجل.

أحاطت بنا سيارة لكتائب الفاروق تأمرنا بإخلاء المكان بسرعة. استوقفني أحد الأفراد: "أختي إنتي روحي مع النسوان لهنيك والشب رايح معنا". هرعتُ مع النساء بلا أسئلة. كانت اللحظة الأولى التي فارقت فداء فيها؛ وبات كل واحد يعيش الأحداث بمفرده. التحقت مع النسوة في ما يصفونه بالملجأ. كان بيتًا قديمًا مركوناً في زاوية تبعد عنها المباني ولا تبعد عنها أهدافَ القصف، وليس قبوًا تحت الأرض كما جرت العادة ليحمي الناس من هجمة مباغتة. المنطقة هنا ليست سوى أراض زراعية خصبة لا يبني عليها صاحبُها أكثر من طابق أو اثنين، وهنا يسكن ويقتات من مزروعاته وحمضياته ومشمشه.

مفهوم الشقة لم يكن طاغيًا في البلدة. كلّ البيوت قديمة ومكشوفة؛ ما يعني أن البلدة ستذوق مرارة القصف أضعافًا. حشرتُ مع أكثر من ثمانين امرأة وأطفالهن في غرفة لا تتعدى مساحتها خمسينَ متراً. غرفة تحفّها النوافذ على طول البيت. في الحقيقة لا أدري ما الفارق بين هذه الغرفة والخربة التي كنا فيها! بعد دقائق هاجت أعصابي؛ وتلفت مقدرة أذنيّ على احتمال الضغط، القصف يعلو ويهدأ. تتوتر أعصابي تبعاً لارتفاع شدته. التصقت بي سيدة ورضيعها. بصق الولد كل ما في معدته فوق ركبتيّ. تجدّدت أمنياتي بانقراض الأطفال عن وجه الدنيا. أحمد لله أنني لا أملك طفلًا في أجواء كهذه. كم هم مقرفون. ابتلت ثيابي وصدرت منها روائح كريهة. البيت خال من المياه.

بدت تصرفاتي لهم كما لو كنتُ بنتا حضرية تترفع عن عشوائيات البدو. حاولتُ طرد وسواسي. عيبٌ عليّ أن أظهر قرفي؛ كان من الممكن أن أعيش عيشتهن الآن، وهذا وارد الحدوث في أي وقت. حدّقتُ في عيون النساء حولي؛ مراهقات عازبات ومتزوجات وعاجزات. كلهن يمارسن حياتهن بشكل تقليدي ويستغربن لاستغرابي ونظراتي. كل واحدة منهنّ تقلّبني بنظراتها بعجب كما لو أنّني رجلٌ بين شتيت النسوة. كم طاردتني صور حية لبنات جميلات يتجمعن في محشر واحد.

مضت الساعة الأولى، وبدأ قصف من نوع آخر. قامت العجوز التي قصدت بيت منى في الصباح وجلست على بلاطة بين الغرفة والشارع دونما خوف. تنظر من بعيد لكتيبة النظام التي تطلق الصواريخ. تحفظ كل أنواع الطلقات والقذائف بأرقامها بل وتحصيها كلما سقطت النار قربنا.. تقولها بهذا الشكل: "لا تخافو هيدي هاوين 80. يلا أجت الراجمي.. طلعت هلق.. هي طلقة الـ 59 نزلت هلق بناية بيت الحزوري يا بني عليهن ما لحقوا يفرحوا فيها".

بعد ثلاثة أيام من المجزرة، عرفت أنها تكون أم منى ويلقبونها بأم هادي. عقرب الساعة ينتقل ببطء شديد. أخيرًا وصلت الرابعة؛ أخاف أن يأتي الليل وأنا هنا بين نسوة لا تبيح إحداهن لنفسها نطق كلمة ما لم تسأل زوجها عنها. أشفقت البنات الموجودات عليّ بعد انقضاء وقت طويل.. قالت لي بلهاءٌ حسناء: "ماذا لو متِّ هنا. لا أحد سيعرف أي معلومة عنكِ. كيف سيصل خبركِ إلى عائلتكِ؟". أفكار أخذتني وأرجعتني حتى أنامتني على وقع القصف وبحضني طفلان اثنان.

عاد فداء أخيرًا حينما صاح النهار أنا انتهيت. كان المستشفى مليئا بالجرحى. أتيح لنا التسلّل بالكاميرا إلى أروقة النقاط الطبية. أرى أثر القصف باديًا على وجوه البشر.. أرى بنتًا ترتدي كنزة شاحبة كوجهها؛ وعلى عينيها ضماد أبيض سميك. ألقاها الرجال أرضًا ورحلوا. إنها منذ هذا التاريخ 2012/6/1 ستعيش بلا عينين. لقد أطلقت راجمة صاروخها على الطفلة البالغة ست سنين. قال لي أحد أقاربها جملة بسيطة أطلقها همسًا: فقدت بصرها.

تُختزل الصورة التي أملكها عن الموت في قتل الآدميين بالرصاص الحي فور وصوله للأجساد، أو في جراح تميتُ مع الأيام. ولكنّي أغنيتُ هذه الصورة وزدتها ألواناً؛ منها ما هو ماثل أمامي ومنها ما أراه من بعيد. رسم المستقبل أمامي صورة فتاة عشرينية جميلة كفيفة تمشي على عكازين. ليس لها فرص في التعليم ولا في الزواج. كان يُمكن أن تحيا فتاة طبيعية جميلة مجنونة حالمة

لو لم تكن بطلةً من هذا الزمان ضمن هذا المكان! أخاف أحياناً ممّا أراه.. ماذا لو كنتُ أنا هذه الفتاة؟ ولكن لِمَ عليّ أن أخاف؟ أنا فتاة جاءت إلى الموت برجليها!!

تخور قواي وأمسكها من مكمن اندثارها. ما عليّ سوى أن أتخيّل هذه الطفلةَ لعبةً أو باذنجانةً. أهملت مشاعري منذ زمن. لم أعد أبكي. المرأة البكّاءة لا تصلح لميادين النيران. أشحت بالكاميرا إلى الطفلة. أتُراني أحقر من النسر الذي وجّه المصور كيفن كارتر عدسته باتجاهه فاحتقرته أعين العالم بدل أن تشيد بصورته لأنه فضل الصورة على الإنسانية ولم يهرع لإنقاذ الطفل. سألت نفسي قبل أن أرفع كلتيْ يديَّ ماذا بوسعي أن أقدم للطفلة الكفيفة؟ لا شيء البتة.. ثم أيهما أخطر فعلًا؛ النسر أم الراجمة؟ وأي نوع من الموت منهما أسهل علي في انتشال الطفل من براثنه.

جلبت لنفسي تبريرًا منطقيا مثل كل المصوّرين الذين يبرّرون عملهم بأنهم يقدّمون صوَر الضحايا على أمل مساعدتهم أهاليهم. استفاقت الطفلة من غيبوبتها فجأة. نطقت كلمات طوّقت بها رقبتي. قاطعتني قبل أن أضغط على زرّ التشغيل: "اسألي عن ولد أبو صالح. اليوم شفت ولده مات يا ريتا جاية القذيفة بقلبو مو هوي.. ياريتا جاية بعويناتو مو هوي، الله يهدك يا بشار الأسد".

البنت التي قررتُ اعتبارها دميةً وخجلت أمامها لأني لا أملك شيئًا أقدمه. تقترح عليّ قصصًا إضافية لا تعرضها جدران المستشفى. وجدت نفسها محظوظة حين رأت بمحاذاتها عدسة. آثرت أن تحكي قصة ابن جارها أولًا. الصبي الوحيد الذي ستظل تذكره قرنية عينيها. خشيت رحيله عن الدنيا بلا صورة شاهدة على موته. أول ما نطقت كان اسمه. ثم ما عادت تجيب أحدًا.

نُقِل إلى المستشفى جسد آخر. ضوضاء عند الباب وحالات واردة للتوّ. احتشدت الكاميرات والأطباء. ناداني فداء: "لنلحق الحدث الأحدث". دخل

قسم العمليات - الحالات الطارئة. غرفة منعزلة في بيت مهترئ فصلها الأطباء عن باقي الغرف بستارة. صفّوا الإبر والجرعات على "صواني" الطعام. كان صوت الجرحى المنبعث من الغرفة يدمي القلوب. أزاح فداء الستارة؛ يقف قليلاً ثم يمشي: " نحن الآن في المستشفى الميداني كما تشاهدون هذا الطفل بأسوأ حال..".
تظهر الستارة طفلاً مبتور اليد يصرخ بشرايينه ونبضه: "ياماما.. يا ماماااااااا". لعلي أنتفض لفعل شيء؛ لكن صفتي الجديدة تحتم أن ألتزم أمام الناس بالكاميرا فقط. يبدو كشف الستارة أمامي مسرحية لا يحين مشهدها الأخير.

صوت الطفل يضرب في دماغي كلما نطق باسم أمه، وأمه لا يلوح لها أثر. أسدلت جفني حتى لا ترتطم عيناي بعينيه. يبكي فيهطل الدمع الشفاف على خديه اللذيذين. لا أتمنى أن أحشره بين كلماتي، ولا تتملكني نفسي وأنا أنسج هذه القصة. أين يعيش؟ هل مات؟ أدعو الله أن يموت وأرجو المعذرة. هو بمفرده بلا أبوين لا أدري كيف جلبته سيارة الإسعاف. أحرق قلبي لأنه يمعن في كل شيء؛ لا ينسى الطفل المناظر المرعبة التي راودته خلال مسيرة الطفولة. الجرّاح، المقص، يده المقطوعة، الدماء، وجوه المصورين. حاول أن يفهم لِم تأذّى ولماذا شكله صار غريب هكذا؟

بقيت متسمرة أحمل الكاميرا. ثبتت نظري بالسرير حتى لا أركز في خياطة جرح البتر والعينين البريئتين؛ صرت ألتمس في طياتهما احتقارًا لي. الطبيب المناشد يثرثر ويثرثر ويقول: "انظروا لهذا الطفل حصل معه كذا وكذا". يحمله كأنّما يحمل جثة ميتة يشرح عليها دروسًا في الكلية. لم أعد أحتمل كلامه ولا أحتمل وجودي في هذا المكان. أحسب نفسي ضالعة في الجريمة لا شاهدة عليها. وأتمنى لو تنتهي عقدة المسرحية؛ ويسدل أخيرًا الستار.

كان الطبيبان في بقية الغرف يتوجّهان صوب كل كاميرا عابرة أكثر مما يتبعان

الجرحى. يقولان إنهما يركزان في الثرثرة والجراحة بالتساوي. عدت أصوب الكاميرا إلى مكان فارغ تتبعثر به الأدوية، ومروحة مهترئة إلى اليوم لا أعرف لماذا رفعت كاميرتي باتجاهها.

كلّ شيء في المستشفى ضئيل شحيح إلا الوجود الاعلامي بذخ وترف. الكلّ جرحى أجسادا ونفوسا. أي مواطن مستعد أن يحكي تقريراً مفصلا بلا تلكؤ؛ كبرت فكرتنا وصارت صورة، الصورة صارت قصة. عبرنا صوت أهازيج من الجهة المقابلة لشاب ينادونه القاشوش. كان يدندن ألحانًا تجوب أثير المستشفى. رحت باتجاه الألحان هامدة الوجه. لمّا التمس الخذلان فيّ قال القاشوش عليّ أن أعرف أن للصمود صوتًا بعد كل موت؛ أطلق أغنية عن الثبات عندما انطلق صوت الطفل المبتور من جديد من الغرفة. هل يدرك الأطفال المتروكون في الغرفة شيئًا عن هذا الصمود؟ وهل سيعرف الرضيع فيم بُترت يده والطفلة فيم فقدت بريق عينيها؟

اشتعلت الصور أمامي لبدايات ونهايات ألفية مأساة سورية يستعصي على التاريخ أن يصوغ لها خاتمة.

**

مقابلة حساسة!

بعد سبع ليال استطعت إشهار كاميرتي في وجه منى أخيرًا. وطلبت منها التوجه إلى العدسة بوضعية إجلال لإلقاء التحية. سألتها: "من الذي جاء بكِ إلى هنا ومن أين نزحتِ؟". قالت كلمتين وصمتت: "متل هالعالم".

- ماذا كنتِ تعملين؟

بكلمة واحدة أجابت: ممرضة.

- حدثيني بماذا تشعرين الآن؟

- مو حاسة بشي.

اصطكت أسناني داخل فمي: "طيب ماذا تحبين أن تقولي للناس".

- لا أريد أن أقول لهم أيّ شيء؛ "كل واحد بيعرف شو بدو ما حدا لازم يقول شي للتاني".

يا لحسن انتقائي. كل أجوبة منى تفضي إلى اللا شيء. حسنًا سأتوجه إلى أم الجيوب. أعرفها لا تخبئ في فمها حصاة واحدة؛ مؤكد أنّها لن تتوقف عن الثرثرة.

لا أعرف من الذي علّمني وقال لي قرّبي وأبعدي الكاميرا في وجه العجوز وسيظهر لك كنز. كل المقابلة "zoom out" "zoom in"، كم أنا بارعة.. لقد أفسدت بهما كل العبرة.

سألتها:

- حدثيني كيف تلقيتِ خبر فقد ابنيك وزوجك؟

بكت العجوز على الفور؛ سررت كما أنها ستحكي لي تاريخًا كبيرًا.

قالت الخرفة:

- ولد أختي من الصبح عم يبكي بدو يروح مشوار، أبوه ما عم يرضى، ببكي عليه من قلبي من قلبي ببكي.

صبّرتُ نفسي حتى لا أرتكب بحامل العدسة جريمة.

- طيب شو يلّي منعو، ليش ما أخدو مشوار؟ أكيد كان في قصف؛ حكيلي..

- لا مو منشان القصف هوي ما بدو ياخدو، دائماً هيك بيعمل دائمًا مشان

يجاكر مرتو.

- أرجوكِ يا حجة حكيلي عن وضعنا الزفت هلق بالقصف.

قفزت الحاجة فوق كل الأسئلة واختصرت القصة بغلاء الخبز، علمًا أنها قالت إن الربطة الواحدة لا تتجاوز العشر ليرات؛ وهي تملك في جيوبها أضعافها.

**

كل لا يتجزأ

"من بلد الوليد خالد.. مطلبنا مطلب خالد.. يلّي بيقتل شعبه خاين".

لا يمكـن أن أنكـر أن أهازيج أهالي حمص التي سـمعتها هي أجود ما صدر من أغنيـات في الثـورة. ولا يمكنني أن أنسى أن رجـلاً عشرينيًا يقاله له "خالد" كان أول الواقفين في المستشـفيات الميدانية ليـواسي جراح امرأة بيد ويتوجه للكاميرا بأخرى، مثيرًا مشـاعر كل شـاب ليحمـل الحماس ذاته ويمـشي على خطاه. من هنا من هذه المدينة خرج شـباب تحـوّل كلّ واحد منهم إلى ظاهرة.

آخـر جوقـة جمعتنـا في القصير بريـف حمص كنـا فيها ثمانية أشـخاص: من الإعلاميـين اثنـين ومن الأطباء اثنين ومـن كتيبة الفاروق اثنـين وامرأة غريبة. حين دخلت دسَّـت لمّتُهم العشـوائية تسـاؤلات عديدة في عقلي. قلت اللهم أعطني خـير هـذه الجلسـة. لـم تسـتلطفني "سـمية" زوجـة الطبيب حسـام. ولا هي اسـتهوت كاميرتـي. تنسـمت ريح سـذاجتها عندما جلسـت على يمـين زوجها؛ تـكاد تكملهـا بعنـاق في غير موضعـه. تزوجت مـن الطبيب قبل سـتة أيام من مجيئنـا القصـير، يعني ما تزال عروسًـا كمـا يقال عندنا. ترتدي الأسـود فوق الأسـود ولا تتحـدث معنـا؛ تحـصر نظـرات عينيهـا فيّ وفي زوجهـا. بعـد ذلك بقليـل أصبحـت تصبّ اهتمامهـا عليّ. تطرح عليّ بعينَ الفضول أسـئلة لا حصر لها وربّما من باب المعابة: "جميعنا هنا نحب البلد، ونضحي بأنفسـنا من أجله كمـا تريـن. لأخـبرك بـشيء لا أحـب أن أتحدث بـه أمام أحـد: قبـل أن أتعرّف عـلى حسـام كنتُ مثلك بالضبـط؛ بل ربّما فعلـت أكثر منكِ. لكـن هنالك حدود علينـا أن نتوقـف عندهـا مثل ما تعرفين، نحـن مجرّد نسـاء في النهاية. لا ندرأ عـن أنفسـنا الخطر، ولا نسـتطيع اقتحام خطوط العدوّ. مهمـا كبرنا لن نكون رجالًا أبدًا".

وتبارحـت بمجدهـا الثورجـي أمامي قبل أن تتزوج بحسـامها عـن قصة حب

تداهَنـا بهـا بـين أسرّة المرضى وعـلى أنغام صراخهـم حينما كانـت تعمل هناك ممرضـة. قلـت لهـا إن ألمـاً وراء ألم يسـوق المـرء إلى طريق آخـر، وإنّ العمل الإسـعافي لا يمنـع من نقل المعانـاة أيضًا، خصوصًا أن الأغـلال التي يحيط بها النظام دمشـق وغوطتيها مختلفة عن باقي المدن السـورية.

- ثم إنكِ فتاة مستورة ولا أراها مهنة لائقة بكِ.

أخفيت سخريتي محاولة إنهاء الحديث بيننا.

- أنـا معجبـة جـدًا بمـا قدمـتِ، وأراه لائقـا بـكِ، كما أننـي أجلّ فعل النسـاء. ولكـن سـيدتي كيف لهـذا النضال أن ينتهـي لمجرد نظرة حب صوب حسـام؟ كأنمـا تحبينـه كحب البلد بل أشـد حبًا؟

أسرت في نفسـها غيظًا حيالي، ثم دعت زوجها ليسـدي نصيحة ويمنحني فائدة، فـأيّ مهمة ثانية كانت أنسـب إليّ كفتاة مـن أن أركض بالكاميرا.

درجـت العـادات آنذاك بالمقاديـر التالية: خبز الثائر يوضع فـوق جبن الثائرة، عسـل المرضة يضاف إلى سَـمن الطبيب أو قائد الكتيبة في قصعة واحدة. أخت الشـهيد يمنى بها إعلامي أو أخ لشـهيد. لم يحضَّر بين هذه المقادير أي وصفة إعلامية تخص النسـاء. حاملة الكاميرا غير مذكورة في القائمة؛ لا أحد يتزوجها ولا تمزج في قصعة مع أي شـاب. حتّى من تجول في رأسـه الفكرة سيتعوذ من الشـيطان مئة مرّة، وسـيتخيل أنّ مشـكلاته الزوجية سـتذاع يوميّا على إحدى النشرات الرئيسـية.

بنصف دورة، تميس سـميّة بشـالها الأسـود عـلى الكتفين المعتدلـين، ثمّ تفرك يديهـا مـن أثر الشـال؛ وربّما لامتعاضها منّي. لا تسـتطيع أن تضيف العدسـة إلى أطبـاق مطبخها. ولا تدرك أن الكامـيرا تجمع بين ذكر وأنثى يهيجان توقدًا حيال فكرة مختلفة.

تطـنّ في عقـل زوجهـا وتحـشي دماغـه أسـئلة عـن هـذه "المصوّراتيـة" وهذا "الحكواتـي"، كأنّمـا جـاءت لتزيدنـا شـدّة على شـدّة. هجسـت في أذن حسـام

باستغراب قدومي: من هذا الشاب الذي معي؟ أهو صاحب أم خطيب أم حبيب؟ بالفعل لم يتنبه الطبيب حسام قبل ذلك لهذه الجزئية الخاصة. كان ينظر إليّ بتقدير حتى جاءت اللعينة؛ لا تريد أن تفوتها شاردة ولا واردة. حالَما انقاد الطبيبان إلى فكرة الملعونة سميّة، أحكما عقلهما بالفكرة. هل ينبغي أن يتخذوا فينا إجراء تعزيريًا من تلقاء أنفسهم لأننا على أرض معركة؟ هناك أكثر من سبب يؤيد تصرفهما أمام العامة، فنحن مصدر شك مطلق منذ أن دخلنا ونحن نتعمد السؤال عن شيطان يخون الثوار. لكننا نتعامل بالتوازي مع معارضين موثوقين.

راوغنا الطبيب محمد بعد أن غمزه رفيقه سرًا. جاء يبلغني إن كنت أود أن يقطعوا الطريق إلى القلمون لأتخلص من هذه العقدة؛ لكن يترتب عليّ أن أغادر وحدي؛ أي بلا رفقة شريك العدسة والسفر. أنا فتاة وأستطيع اجتياز حواجز النظام بلا مخاطر. وسيطول بفداء طريق العودة حتى يحين الفرج.

بدون تردد قبلت خياره؛ أنوي المغادرة حتى لو اصطحبني العفريت الأزرق، وليتدبّر شريكي أمره بنفسه. هنا صُدم الاثنان ولم يستوعبا مدى طيشي وأنانيتي؛ ها أنا أتخلى عن شريكي عند أول فرصة نجاة. لكنّهما تحققا من أنّ قلبي لا ينبض حياله حتى لا يتورطوا بشد وثاقنا مرة أخرى دونما استقصاء.

زرعا في وجدان فداء أنني إنسانة بلا ضمير ولا أخلاق. قررت أن أبارحه دون أن أفكر بمصيره المعلق. استطاعا أن يبثا في نفسه شعور الخذلان مني؛ حالما رأى شريكته تخزيه وتزدريه. قاطع بعضنا الآخر؛ خالني فداء ملء يديه، قطعة مزهرية واحدة. لا يكتمل تجاذبها دونما لمسات الورد العطرية. فريق صحفيّ واحد وكلٌ لا يتجزأ.
أصرَّ الليلة أن أعود إلى الشام وحدي ـ لكن الأمر ليس بهذه السهولة ـ. قطعت خطوط الثقة بيننا..
رغم أنني دفعت بتلك الخيبة شرور الطبيبين عنا لإرضاء فضول "سمية" خانم.

**

قبل أن تفتح مدينة القصير عينيها وتجد نفسها في الثورة، كان أهلها يقتسمون تجارة التهريب والأسلحة. أيما رجل أراد اكتناز قطعة معدن صعد القصير لشرائها. فقير أهلها يقال له "مريّش" أي يكاد يطير من الغنى. وإذا هرّب الرجل قنينة غاز درأ الجوع أياماً عن نفسه. ظلت القصير شريانًا رئيسًا لمجمل الحمصيين بعد انغماسها في الثورة، كل ما يدخل لكتائب حمص من أسلحة وذخائر يعود فضله إليه.

ضغطت قوات النظام على المدينة المتمردة بشتى الوسائل لتمنع تدفق السلاح إلى بقية مناطق محافظة حمص؛ إنّها من أكثر المناطق أهمية. مواقع حساسة وحدود واسعة مع لبنان. وكانت القصير أمّ من حولها من مدائن.. لكنها أرادتنا غرباء. عشت فيها أقسى أيام التفرّد؛ ثلاثة أيام وثلاث ليال. لا أتحدث سوى للكاميرا وللجدران المغمومة، ولنفسي الحيرى.

في هذا اليوم العاشر نفِد التخطيط والخطى؛ لا نرجو من أهل المدينة سوى تسهيل أمر الرحيل ــلا يرحموننا ولا يتركون رحمة الله تنزل علينا ـ كم كان متحجرًا وهائلاً هذا التحدي. علمني أن أمد عدستي على قدر رجليّ. كأن العشرة أيام الماضية كانت معسكرًا قاسيًا يدربني على الخوض في خمس سنوات ناريات. توضع العثرات فيهنّ أمامي. لتختبر مقدرتي على الصبر والتجربة.

تمتلكني قوة فانوسية لا أعرف كنهها. أظنني كسبتها بالفضول لا بالخبرة. قوة عرفتني برموز الكذبة؛ بالتاريخ الكاذب الذي أريد لعقلي. استنكرت الوجود دفعة واحدة؛ مدفوعة بالغاية والإيمان. سأكون مراسلة مهمة حتى لو كان الناس يزدرون قدرتي ونحالة حبالي الصوتية. ما عاد يملأ ناظري جنَف الأفكار السائدة. استهواني شبان ينبشون القبور قبل أن يستسلموا ليوم الحشر؛ يزجون النفس بكل لحد في سبيل العيش المشرّف.

كانت أشواقي إلى خط النار مضاعفة، ربّما لأنّني ما زلت أكتشف الحكايات

الغريبــة.. كمراهقة تعيش العشــق أول مرة عــلى أرض الصبيان.

**

من مراسل إلى تاجر

كان محمــود عرابــي آخر ناشــط اجتمعنا به على أرض الصبيان؛ وأوّل مراســل لقناة الجزيرة.
جلــس على كرسي الدبابة في مشــهد آسِر مصورًا اللقطــة الأخيرة. تباهى بمدافع جامــدة لا ســلطة لها، مدافع أرهبــتَ كل كبير وصغير، إنها بعــد المعركة مجرد نكرة. خامره الشك مرارًا قبل أن يمتهن الصحافة ويقبل بتوصيفاتها الجديدة. إذ لا مكانــة بيننا لمن يســمي الشــهيد ميّتاً والثائر مســلّحا؛ لكنــه قنوع بمكانته واختياره. انقطعت أخبار محمود دفعة واحدة منذ سقوط القصير بيد النظام. قيــل إنّــه تــرك عملــه في القنــاة وانتقــل مــن مدينة إلى أخــرى، حتــى تقلبت به الأحوال أخــيًرا وانبرى يبيع الوقود على حدود المناطق المجاورة.

**

في ليلة من الليالي جاءتنا منى تلهث من مستشــفى بعيد، حاملة في جعبتها خبرًا عاجلا:
"أبو عبد الله غدًا بيننا في زيارة خاطفة".
الاســم الــذي خيــمّ عليهــا كشــبح يناكــف وجودنــا. الجيّــد أنّ موجــة المعارك ثَنَــت كل رجــالات أبــو عبــد الله عــن التفكير بنــا. نافــح فــداء في التواصل مع القلمــون قبــل أن يصل الرجل ويترنّح بنا المصــير. كانت أصداء قصتنا تصل إلى الرســتن؛ وهي نية وجهتنا الأولى قبل أن نصبح هنا عالقين. حالما دنا الليل لاح طيــف رجال يســألون الطبيب عن مكان إقامتنا، لكنهــم جاؤوا بلا فائدة. كانت الطريق مقطوعة ولا يطير طائر واحد حيث اشــتعال المعركة.
ننتظر إشعارا آخر..
كلّ العمر قد لا يأتي.

**

بعـد ثلاث سـنوات من حصـار الغوطة الشرقيـة.. أملت عودة الزمـان بنا لكن هـذه الأيام صـارت ماضيا على مفكرتي. لا أقدّر الوقـت حتى يغدرني. أقف في عتمـة الجسر وأطوف بأسـماء لا أحد يعرفها فيبدو لي مـا وقع في الماضي ضرباً من أخيلة انحسرت في الحاضر.. لا وجود لها. قصص عشـتها تخيم شـبحًا على بلـد بأكملـه إن قلتها لا أحد يصدّقنـي في بلدٍ حصارها لا يُصـدق أيضًا؛ كلاهما بطل بلا عنوان.

أحكـي قصـصي لنفسي قبل منامها لعلّها تصدقني مشـكورة ثـم تنام وتحلم بـ "سندويشـة" مـدوّرة كالتـي تشـاهدها على الصـور الإلكترونية فتغـلي معدتي اشـتهاء دون أن تحقـق مناها.
كل ليلـة أقـول.. أحـرامٌ عـليّ أن أمتلـك كبريـاء مراسـلة أنيقـة؟ أغـلي قهـوة عـلى الغـاز في الصبـاح دون "شـحوار"؟ أجلس عـلى الانترنـت دون معارك مع البطاريـات والأشرطـة؟ أتجوّل بسـيّارة وأسـتحم قبل كل خـروج؟ آكل وجبة مـن الأرز عندمـا أعود؟ أنعـم بجلوس أمام التلفاز بـدل أن أقضي الليل في عتمة الذكريـات؟ أتدفـأ في الـبرد بلا تعـب الاحتطـاب؟ أظهر "لايفـات" الصيفية بلا انقطاع أنفاسي من شـدة الحر؟ أهذا كثير عليّ؟ أشـك أن يفهم مرتاح ما معنى أن تعمـل وتعيـش في كنَـف الجوع. أيّ أمل سـأملك؟ وبأي نجاح سـأحلم؟ من أي غـارة سـوف أركض؟ أي رغبة سـوف تدفعني للهرب؟
أنا الميّتة التي تبحث لنفسها عن قبر من رخام.

ما زلت أحاذي الرجل الواقف في الطرف المقابل أعلى الجسر؛ أحوم قبل انقطاع التغطية. أقرب المسـافة التي بيني وبين الهياكل الإسـمنتية المردومة لأكشف ما بداخلها من أسرا. أسـير بين جدرانها بالإيمان لا بنور الشمس.
واصلت الذكرى إلى طريق الماضي.
إلى القصـير التـي جلتها من وجـه الرجل المحاذي في العتمـة إلى أرواح ما عادت متاحة للنظر.
إلى معجـزة النجـاة التـي علّقـت فيهـا رائحة السـماء في ذهني أكثـر من رائحة

الرجـال في المدينـة.. شـاب نحيـل يتقـدم إلى بنـاء مدمّـر. هنـاك حيـث التقينا الشـاحنة سرًا عنـد آخـر دوار في القصـير.

قـوات الأمـن كانـت تتقدم مـرة أخرى إلى خطـوط الآمنين في معركـة وجوديّة كـبرى؛ ذبح فيهـا عشرة أشـخاص. كدنا نحمـل الكاميرا ونخـوض بالتصوير مـن جديـد لإرضاء غريزة الفضول فينـا. لكننا حين عرفنـا أن الزمن قادر على نسـياننا في أي وقت إذا ما قطعناه، أفقنا من سـبات التصوير، وهربنا مع أول حافلة حمراء تلوح حسـب الاتفاق متجهة صوبنا. بعلم اسـتقلال يجوب عرض الطريـق؛ ولـج بنا السـائق بلدة تلـو بلدة، حتـى لاح بيت الملازم أبـو محمد في الأفـق. اعتـذر لنا عن سـوء فهـم قد حصل، وشـكر الله لأنه أتاح لنا السـلامة. سـيروق لـه الحديـث بالتفاصيـل هذه الليلـة حينمـا كان يمهَـد لاعتقالنا ببطء دونمـا تـصرفٍ بطيش معلن، حتى لا تتصرف كاميراتنا بطيش مع الطائشـين. طافـت قصتنـا إلى قيادة ألوية الفاروق وهي تدعونا مرة أخرى لقصد الرسـتن قبل أن نعزم إلى دمشـق.

سـألني فـداء عـن رغبتـي في معـاودة المغامـرة لإجـراء اللقـاء مـع الضابـط المقصود. قرأ الخيبة في عيني وشـعر بالعجز إذ لم يحمل على عاتقه مسـؤولية تحقيق آمـالي الصحفية.
- أرفض بشدة إعادة التجربة ولنكمل إلى حاجز الأمن في مفرق القطيفة لنعود إلى مكتبنا وناسنا.. وتقاليدنا السلسة قبل أن تكبل أجواءنا..
إننا الآن طلقاء.

**

الوميض الثالث
مكاتب سرية

”العماء يقوي الرؤيا إلى حد النور“.
غونار إيغيلوف

طوشة مصورين..

تُعلّق أجود كاميرا في المكتب كالعقد على عنق براء ليواصل التقاط الصور في الوادي. عدساتُ هذه الكاميرا يجب أن تعامل كالذهب الأبيض بعناية وبحذر فائق. إنها الأثمن والأعلى قدرًا بين كل أدواتنا. لم يتذكر فداء أن يملي هذه الملاحظات عندما ترك العدسات المثلى بين يدي رفيقه براء. كان عليه أن يتجاوزها وهو يشدّ العزم إلى رحلة مجهولة من دون مزيد من التفكير. أي قبل أن نقصد "القصير".

حين رافقتُهما إلى مصطبة عند مجرى النهر. رأيت فداء يفرغ الكاميرا من الصور، ويقلّب بين يديه الدائرة المعنية ببث الضوء في الكادر حتى يتعرف براء إلى الإعدادات الجديدة في حوزته إذا ما تفرقنا. لم أر هذه الآلة المحدودبة مرة إلا وحلمت أن تطوّق عنقي. كبحتُ جماح هذه الرغبة حتى لا تُفسَر بحقد قديم ورد فعل معاكس أكنّه لشخص براء، علمًا أنني أدركتُ صنع أصابعه المتحجّرة فوق الكاميرا ولقطاته الباردة التي لن تفيد إحداثيات النار في شيء.

أحس فداء بغيظي، فقال إن تبديل عدسات هذه الكاميرا بين الفينة والأخرى سيربكنا في السفر. كما أن الوقت المتاح قبل انطلاقنا تلاشى، ولا يكفي لكي أتعلّم كل الخيارات التي تميز تلك العدسة.
راحت أشهر وجاءت أخرى قاسية أهرب فيها من مكان إلى آخر. جعلتني ألفّ شعر رأسي بالشّال ليل نهار. صحوتُ على رسالة حمراء فاقعة يومضها البرنامج الأزرق "سكايب". شابٌ يلاطفني على غير العادة. يا له من صباح رائق.. الحمد لله رغم تصرفاتي الصبيانية؛ مازال لدي معجبون.
- صباح الخير يا ست البنات؛ دومًا أدعو الله أن يحميكِ؛ ما زلت أفتخر بكِ كلما سمعتكِ تذيعين الأخبار على الشاشة، لا أنسى المذابح التي تمرين بها ولا يرف لها جفنكِ. كوني كما أنتِ صلبة قوية. رغم صغر سنكِ ما زلت أثق بكِ وبمقدرتكِ على تخطي أي مشكلة.

- صباح النور، يا أهلا وسهلا. يا لكَ من شاب لبق وسيم؛ لا شك أني لم ألتقِ بك من قبل. لا أحد يتكلم معي هكذا.
- بلى التقينا، ألم تعرفيني؟ أنا براء يا أختي العزيزة، وهذا حسابي الجديد.
يا للخيبة تغيرت نبرتي.
- امم أهلين براء. أأمرني؟ خير في شيء؟

اتصل براء ليسأل عن أخباري وأخبار الأهل وأحوال الجد والجدة والأصدقاء والجيران، آخر هذه المكالمة كأنما يمهد لجرم كبير. كاشفني براء بالسر أخيرًا على بساط أحمدي كما يقولون.. الكاميرا.. الكاميرا هي الحكاية صدقيني كنت على عجلة من أمري. سقطت الحقيبة أرضًا بما فيها، لم أكن أعرف أنها هشة إلى هذا الحد. لا أعرف كيف عليّ أن أخبر فداء؛ كما تعرفين إنها غالية جدًا على قلبه. ولن يستطيع إدخال غيرها بعد اعتقال سليم. أريدكِ أن تدخلي بوساطة خير بيننا درءًا لأي مشكلة سوف يحملها هذا الخبر.
- ممم إي طبعًا، مو تكرم عينك.
أنهيت الاتصال وكاد يجن جنوني لم أصدق متى تنتهي المكالمة، وكان فداء على الهواء في بث مباشر بالصوت والصورة. لا يحملني عقلي حتى أنتظر إنهاء واجبه الوطني، يا له من مجنون نزق. يتصل بالمحطات قبل أن يغسل وجهه ويحتسي القهوة معنا.

أومأت له من خلف الحاسوب أن يختصر المداخلة بسرعة. لم يربكه التشويش الذي أحدثته في الغرفة لأنني أفعلها دومًا بلا سبب؛ لكن الأمر غير عادي هذه المرة، يجب أن يعلم بالأمر على الفور. أخرجت كاميرتي الصغيرة من الحقيبة المجاورة لفداء، أمسكتها بإلحاح من خلف الكاميرا وألقيتها بها على الأرض بخفة. بمعنى أن الكاميرا الكبيرة قد كسرت وانقطعت رقبتها ورقبتنا معها. غلى قلب فداء حيال إيماءات يديْ. أوجز مداخلته حتى قال له المذيع أخيرًا.. "شكرًا لك كان معنا الناشط الميداني من مدينة دمشق".

وجهت لفداء لومًا صريخًا:
- كم قلت لك إنه لا يتحمل المسؤولية؟ كم حذّرتك من طيش هذا الفتى؟ إنّه طيب على عيني ورأسي، ولكن ليس لدرجة أن تستأمنه عليّ كلّ شيء. لو أبقيتها معي لما وصلنا إلى هذه النتيجة. قل لي من الذي سيتكرم عليك بالعدسات بعد ما عرف إهمالك لها.
ارتدى فداء نعاله سريعًا، وذهب مشيًا على الأقدام يتوغل بين حواجز النظام قرب مساكن الضباط في برزة كانتحاريّ مستعجل.

تناهى إلى حيث يسكن براء مع ثلة آخرين في مكتب من المكاتب. ولسوء حظ براء وربما لحسن حظي كان براء في الشقة وحده. حالما فتح لصديقه الباب أمسكه فداء من عنقه وعروق الدم تطفح على وجهه. "والله لأخنقك واشرب من دمك يا واطي. والله لكسرك متل ما كسرت الكاميرا". لم تترَك لبراء الفرصة ليتحدث بكلمة واحدة. ثم جلب فداء حامل كاميرا قربه وانهال ركلًا وضربًا حتى أدمى براء وأسقطه أرضًا.

لمّ فداء كل العدة التي جهّز بها المكتب وترك المكتب خاويًا حتى الشرائح المضروبة في أجهزة النوكيا أفرغها. ومرّ بها بين حواجز الأمن معصوب العينين يكاد لا يعرف بأي طريق يمشي؛ دق الباب بأنفاس متلعثمة، ألقى المعدات في وجهي وقال بصوت مقطوع النفس: "خذيهم واشبعي معدات أنتِ الأخرى". كان فداء قد لفت أنظار الأمن في الشارع لحجم الحقيبة التي يجوب التقاطعات بها كأنها حزام ناسف. رحت أخفيها خشية مداهمة مباغتة حين سألته عن أمر براء، أجاب لاهثًا: تركته يسبح في دمائه.. أظنه مات!

**

الحيوانان
فيلم من بطولتنا

تقول الحكمة: عندما وزّع الله الأرزاق على الناس لم يُعجب أحدٌ برزقه وعندما وزّع العقول أعجَب كل واحد بعقله. على الرغم من أنّ فداء كان يجمع حوله أصحاب التخَصص ليسرق منهم الحرفة، فإنّه رأى أنّ خبرتهم لا تفيد إن كانوا يواجهون الحدث بقلب مدرَب يخاف أن يخطئ.

جلس أدهم ومحمد في المكتب بعد عودة كلّ منّا من رحلته. أدهم الشامي، كما يلقَّب، كان الشاب الوحيد الذي درس الصحافة عن رغبة ودراية؛ يسعى لتحسين أداء المكتب. اقترح أدهم أن أبدأ تجربتي الأولى في عالم التقارير بصوت طبيعي لطفل يصرخ. وأنا لو أنّ ألف سيف مسلّط على رقبتي لن أغيّر رأيي في مقابلة اخترتها لتوضع في بداية التقرير.

أتشاجر معه دونما أيّ قاعدة أبني عليها شجاري. لكنّ أدهم لن يعرف الذكرى التي تحملها كل صورة التقطتُها ولا يستطيع أن يتخيل خلفيات الصوَر في ذهني، وبأي حال كنتُ عندما التقطتها. صحيح أنني لا أمتلك خبرة تخوّلني إنتاج تقرير مُتقَن، ولكن الصور في عقلي تنتج مسلسلاً مكتملاً؛ ولا أريد أن يذهب تعبي والوعود التي قطعتها على كل من التقيتهم بأنّي سأظهرهم على الشاشة. لن أسمح لأحد أن يتدخل في تقريري مهما كنتُ جاهلة.

سأتمسك بأفكاري وسأسنح الفرصة لأدهم أن يعطي رأيه؛ فما أعجبني أخذته وما لم يعجبني سأعرِض عنه. واصل أدهم إمعان النظر في المقاطع المسجلة على كاميرتي. أسند يده على ذقنه وقال لي: "ممم.. هذه صورة جيدة ولو كنت التقطتها من زاوية اليمين لكان أفضل.. امم أثناء المقابلة لا يجب أن تقرّبي الكاميرا بهذا الشكل".

قلت له: دعني أخبرك؛ عليك أن تعاين الصور بعمق أكثر، في هذه الصورة كانت منى تخبرنا عن النية السيئة التي يُبيّتونها لنا، لذلك اقتطعت الصوت بعجلة. انظر إلى هذه السيدة؛ تراها ضيفة غير مهمة أليس كذلك؟ لقد مات أولادها واعتقل زوجها، لكنها كما ترى لا يهمّها سوى النزهة التي فاتت ابن أختها. إنها من بين مئتي امرأة لا أكثر ممن وجدناهن هناك.
لجأ أدهم للصمت حرجًا.

فداء أصغر الموجودين سنًا، ولذلك أخذ ترتيب المكتب على عاتقه. وزع المهمات منذ البداية. شاب في المونتاج، الثاني ينسج القصص الجميلة. الثالث، وهو فداء نفسه، يظهر على الشاشة فقط بلقطات وصور يتحدث فيها ويمشي.
ترتيبة كما الهلوسة.
فأعبر على مزاجي وأقرأ التقرير بصوتي، ويظهر فداء في أول التقرير على هيئة مراسل معدّ. في أول التقرير يظهر، وفي نصف التقرير يحكي. يشرح فداء في كل عشر ثوان أمرًا، ويظهر في النهاية مرة أخرى ويقرأ اسمه، ثم يرفع التقرير على يوتيوب باسمي واسم المحرر. وإذا ما رأيناه قد عُرض على الشاشة ننتشي ابتهالاً بإنتاج هذا الفيلم الهندي الذي كنّا أول أبطاله.

كانت صورة الآلام قوية بما يكفي لأن تعرضها القناة رغم كل ما يعيبها؛ وحين يجري المنتج التعديلات ندرك صحة الأقوال التي كان أدهم يمليها. نعاود الاستهزاء بما حفظ من دروس جبانة في الجامعة، ونعلمه أن لا حقيقة لها بمعايير كل قناة.

يذعن أدهم من جديد؛ يحدق بنا سارحًا في قصتنا المجنونة التي يحلم أن يصنع منها يومًا ما فيلمه العجيب ويسميه..
"حيوانان".

**

28/ 6/ 2012
فتح تغطية

حتى الطيور غادرت وما عدتُ أسمع تغريدها في ذلك اليوم الموافق للثامن والعشرين من حزيران يونيو من عام ألفين واثني عشر. بمجرد تذكر هذا التاريخ أتوقف عن الكلام وأتمنى لو أنني فقدت الذاكرة. هو تاريخ النزوح الأول للمدنيين في مدينتنا. لن أتحدث عن مشاعري وعجزي. سأختزل الأثر؛ فأنا قبل هذا اليوم كنت أعد أيام عمري، وبعده توقفت.

قوات الأمن اقتحمت مواقع المعارضة بعد معارك دامية اشتعلت بين الطرفين مطلع الفجر. المسلحون يتراجعون من نقاطهم إلى أقصى المدينة. كانت أوَّل مشاهدة حيَّة لي عن معنى الكرّ والفر في المعركة. انتهت الاشتباكات بانسحاب الجيش الحر وقتل أكثر من ستين شخصًا على مرمى عينيْ. سمعتُ أيضًا صوت سيدة تستغيث مع أطفالها وهي تحاول الهبوط إلى الملجأ. فيما بعد تبين أنها سيقت لتُذبح مع بناتها عندما لمحتها أعين جنود النظام. جثث كثيرة لا أظن أن باستطاعتي أن أحصيها. اقتصر نشاطي خلال الأيام التي اشتعلت فيها المعارك على نقل الأخبار من مكتب سريّ صغير يرتاده نشطاء المدينة؛ مكتب غير مجهّز ليوثق مجازر كبرى.

ارتديت معطفي بالمقلوب وقت الفجر لأكون بين الدّفعة الأخيرة التي غادرت المدينة سرًّا زحفًا. يلطَخ الدمعُ الدماءَ على امتداد ثوبي دون أن أوثّق لقطة واحدة لهذه الجثث التي قتلت بطريقة لم تكن مألوفة إليّ بعد؛ طريقة الإعدام الميداني بالرصاص، وهي جريمة ترتكبها قوّات الأمن أثناء اقتحامها المباغت فرحًا بالانتصار والتوغل في مدينة كانت خارجة عن سيطرتها. وحينها أيّ مدني سوف يلتقي به الجنود يتهمونه بالتعامل مع الجيش الحر ويقتلونه على الفور. لم ينجُ إلا من استطاع الاختفاء عن أعين الجند، أو من اختبأ في ظلمات الأقبية غير المكشوفة.

كنت واحدة من الناجين، ولكن.. بلا أي برهان على النجاة، بلا أي دليل يساندني على إعلان هذه المجزرة البشعة. يومها فهمت أن المشاهد الأقسى والأكثر جرحًا في صميم الإنسانية تلك التي تعجز الكاميرا عن التقاطها وقت الشدة، لأنني حين كنت أترقب موتي بطريقة شنيعة ولم يكن بوسعي أن أفكر في أيّ صورة في الكون. كانت أمنيتي الوحيدة أن أتخلّص من الكاميرا التي في حقيبتي قبل أن تقتحم قوات الأمن عليّ القبو وتعدمني أنا ومن معي.

لا أعتقد أنني أمام الخوف من موت مرعب أو اعتقال محتم سوف أفكر في صورة. إنني أمام كلّ الخطر الذي كنت أصوره بكلتا يديْ. أخفيت أهم اللقطات وأهم المشاهد التي كان أثرها أكبر مما أرسلت إلى الشاشة، لكن الخطر المحدق بي منعني عن ذلك. فاحتفظت بآلاف المشاهد في ذهني وها أنا أسخر الذاكرة بديلاً اضطراريًا لالتقاط المشاهد التي حال الخوف بيني وبين دقة تفاصيلها.
في ذلك اليوم تلفّتُّ حولي في الطريق بعد مغادرة المدينة، والتفتُّ إلى المكتب ثانية؛ هناك حيث ألتقي الصبيان في مكتب بحيّ القابون بدمشق. ومن منهم سيصدِّق جريمة يُحكى عنها ولم يرها أحد سواي؟ ما الفرق إن رأيت أو لم أرَ؟ مادام الذبح يجري في الخفاء؟

وارَيْتُ قولي حتى لا يسمعني قلبي ويستجيب لهذا الإخفاق. فهنا يجب أن تتجلّد القضية. حين أقول ما لا يقال. حين أكون أول من رأى وآخر من يحكي. حين أدعهم يبصروننا. في اليوم الفائت ظهر فداء في مقطع مسجَّل ينوح على ثلاثين جثة من مدينتنا. بالكاد حتى وجدَت هذه الجثث متّسعًا لها على الشاشة.

قال لي فداء حين رآني أتلكّأ عن القيام بهذا الواجب: "لا شيء يحيّر الناس أكثر من الحقيقة ذاتها حتى لو لم يصدّقوها، ستحفَر أخيلتها في آذانهم مثلما حفرتِها فينا حين رأيناكِ ترتجفين ليلة البارحة". أخذ كل واحد يقلب مشاهدتي خبرًا

وراء خبر؛ فكلّ شاب من هؤلاء ينتمي لمدينة لم ينزح أهلها بعد، وما يزال يحمل ألقابها.. "الميدانيّ.. البرزاويّ.. القابونيّ.." جهز الثلاثة حواسيبهم ليتصل كل واحد منهم بالمحطات التلفزيونية على حدة. كانت حواسهم باتجاه خبر واحد؛ مجزرة كبرى في دوما.

أما فداء فهو أفضل العارفين بطريقة التأثير على جهات الاتصال التي يحوّلها بأسلوبه الفريد من تطبيقات جامدة إلى أرواح حيّة بينه وبينها علاقات إنسانية تتعدى معاملته مع أصحابها إرسال الأخبار وحسب. كان يصرخ ويبكي لكلّ جهة اتصال على حده؛ يتواصل مع أصدقائه في حمص والقلمون ليرسلوا تقريرًا عن المشاهدات ذاتها، حتى غدا كلّ النشطاء في المدن السّورية يتحدثون بخبر المجزرة كما لو أنهم كانوا معي ليلة البارحة.

لا تسجيل مصوّرًا يرافق هذه الرواية ولا شيء يفضي لتحرّك أيّ محطة بإسناد الشهادة كخبر عاجل. بعد ساعتين عمّ الحديث عن المجزرة حتى وصل لكلّ حسابات المسؤولين عن تلقي الأخبار في القنوات المعنيّة. استطعنا تشويش رؤوسهم بهذه القصة حتى ظننّا أنهم سيذيعون المجزرة حرجًا منّا وخلاصًا من إلحاحنا.
تصدّر الخبر كل شاشات الإعلام العربي: "قوات الأمن تقتحم مدينة دوما وتقتل أكثر من ثلاثين مدنيًا".

بالرغم من أنني شاهدت أكثر من ستين جثة تدوسها الأقدام، فإن مشهد الدبابات الواردة من شاشات النظام ـ والتي استعانت بها المحطات الإخبارية لتعزّز مشاهداتنا وتضيفها إلى الخبر ـ لم تكن تُظهر خطواتها فوق الجثث المرميّة. كانت الدّبابات تعلن انتصار الجيش بطريقة عسكرية مدرّبة على القيام بالمجازر دون أن تترك أثرًا للدماء تحت عجلات أيّ دبابة.
لذلك خُفِض عدد موتانا على الإعلام إلى النصف.
مأساة المراسل التلفزيوني أن صدقيّته تبقى مشفوعة بالصورة حتّى من

زملائه في إدارة المؤسسة التي يعمل فيها؛ ولذلك صرت أغبط زميلنا محمد على حسن اختياره. كان محمد إعلامياً دمشقياً وظّف خبرته بتوثيق المشاهدات والانتهاكات من موقعه في حيّ كفرسوسة إلى صحيفة مكتوبة، ثم إلى إذاعة إخباريّة مسموعة صمّمها نشطاء عبر الإنترنت، حتى يبقى فيها صوت المراسل من قلب الميدان أكثر حريّة في نقل الخبر، وليتسّنى له أن يعرض كافة مشاهداته ولو كان في قبو ترصده أعين المخابرات. فموقعه اللصيق بقوات الأمن كان يمنع محمد بمجرد التفكير في أن يحمل الكاميرا يومًا ما.

مداهمة لأصول التحرير الصحفي

بكاميرته مشى فداء في زقاق ضيّق بالقابون أثناء عودته من التظاهرة شتاء عام ألفين واثني عشر. قرص جلده بإصبعين لفراق اثنين من رفقائه؛ دخل المكتبَ متخفيًا عن أعين الأمن. كان أدهم ومحمد قد تأهّبا لعملية دهم مفاجئة للحي. زجّا المعدات في القبو المخبوء عن الأعين تحت بلاطة وأخفوا "الفلاشات" وبطاقات الذاكرة بين ما تبقّى من جمر المدفأة.

ترك أدهم الحاسوب بيده بعد ما حذف كل المقاطع التي تحمل في ثناياها شتائم للرئيس، وبقي ينشر على صفحة مكتب التنسيق أخبار المظاهرة. كلما سمع خطوات أقدام غريبة قرب الباب أقفل صفحته.

دخل فداء ولبد في مكانه هامسًا:

- لنرسل خبرًا عن عدد ضحايا الليلة.

كتب أدهم على حاسوبه: "ثلاثة قتلى برصاص قوات النظام في مدينة القابون شرق دمشق".

نبس فداء: "مهلًا.. اكتب خمسة".

زمّ أدهم شفتيه مستغربًا:

- ألم يخبرك الطبيب نزار بمقتل ثلاثة.

- بلى، ولكن ربّما مات اثنان من الجرحى الذين لا نعرف الآن شيئا عن مصيرهم.

- يا أخي ربّما لم يموتا.

يشعر فداء أن لا أحد يفهم ماذا يعني أن يصاب اثنان إصابات قاتلة؛ فهو يرى أن التعاملات الكتابية لا تنقل إلى المتلقي حواس الضحايا.

قال فداء: "إن الزيادة أفضل من النقصان، ربما يعتبرون الرقم ضئيلا ولا يرقى إلى مستوى إذاعته تحت اسم مجزرة".

- تقصد أن رقم ثلاثة لا يملأ العين، وأن الثلاثة لم ينكل بأجسادهم كما يليق؟ كأنك تريد أن تقول لا داعي للحزن على ثلاثة موتى لم يتجمعوا في كوكب كبير.

هـؤلاء ثـلاث عائلات سـيصبح فيها الأطفـال أيتامًـا والزوجـات أرامل وثلاث أمهات غدون اليوم بلا معيل.
- لا أخالفـك الـرأي لكنّنـي أعرف كيف يفكـرون. حالة الموتى كحالة إشـارات الإعجـاب على موقـع فيس بوك، تقاس بالكـمّ لا بطريقة القتـل المفزعة. أهمية اقتطـاع الأخبار لجزء في النشرة بحسـب الكمّ.
- إذًا فلتعتـبر المحطـات التلفزيونيّـة ما تعتبر.. لنضعهم في خانـة اعتباراتنا؛ أنا صحفـي ولا أتعامـل مع قناة محلية تذيع اخباراً صفراء على مقاسـها.
- افعل ما تشاء.

كتـب أدهـم الصـدق على عجل، ونسـخه لحسـابات المحطـات المتوفـرة. أخفى الحاسـوب في القبـو سريعًـا ليخـلي البيـت من آثـار الجريمـة. ظنّـوا أن القناة سـتضمنه برافد أحمر كعاجل أسفل الشاشـة. لأنه يشكل تحوّلا نوعيًا في مسار قصـة حياتهم وحدثًا جديدًا يؤسـس لمـا بعده. من يعيش الحادثة سيشـعر أن مكانـه هو نقطة انطـلاق الكون ونهايته.

يصعـب عـلى هذه المفاهيـم أن تتغير مـادام الإنسـان يمتلك حس نقـل الأخبار وحماسـتها في منطقة يتوقع العالم أن يتابع فيها لحظة حاسـمة. في اليوم التالي لـم يـذع على التلفـاز أي عنوان ممّـا قد كتب، وحـلّ محل المجزرة خـبرٌ تصدّر النشرة الأولى وكان مأخوذًا من القناة الرسـمية للنظام: "الجيش السوري يقتل خمسـة إرهابيين كانوا يخططون لعمليات مسـلحة داخل مقار الأمن بدمشـق. وعثـر في مقراتهم على أسـلحة وذخائـر وحبوب مخدرة".
وخرج محلل سياسي مؤيّد للنظام معلقًا على الحادثة.

مـات الجرحـى ولام الاثنان نفسـيهما عندمـا أدركا أن صدق الأرقـام لم يكن وحده القضية؛ كان عليهما أن يفصّلا الخبر تفصيلًا بدل أن يرسـلوه بسـطر واحد. لو كان أدهـم في أحسـن حالاته التحريريّة لصاغ الخبر بشـكل مهنيّ ولأفلـح ربّما في إقناع منتجي نشرات الأخبار في الفضائيّات المتابعة بتخصيص فضاء بسيط لهذا الخبر المؤلم.

مزاد إعلامي

غـدوت مخلوقـة بعقـل توقيفـي لأمـر واحـد، أصبت بجـذام يسـاقط لحمتي بأهـل الحـي. يـودّون حكاية قصصهم الخاصـة ويندمون، لـم يحترموني مرة أو يقولـوا صحفيـة.. بـل "الإعلانيـة" أو هـي شـو اسـمها لي بتلـت وبتعجـن عالإعـلام..". تعلمـت النوح واللجـوج إلى ما يلفت نظر المتحـدث، حتى لو كان ظفر امـرأة مخلوعاً.

في حادثـة مـا، أواصل الإلحـاح مع الذيـن يحدثوني بالنيابة عـن كل قناة. مرة أخبرت شـابًا يعمل في غرفة أخبار أن جنودًا من الجيش السـوري اقتحموا بيت صديقتـي لمـى، فوجدوا راية اسـتقلال بـين ممتلكاتها. لمى ابنة طبقة وسـطى تصغرنـي بعامـين. محسـودة بيننـا لحسـنها في انتقـاء الأثـواب والحـلي. كل البنـات يحببـن اسـتعارة مـا ترتديـه لمى مـن محلات العطـار والفـارس، تلك الماركات الدمشـقية الشهيرة بتناسـق قوالبها. ويرجونها متضرعات أن تعيرهم الأثواب ليحضروا بهـا حفلات مميزة.

لـم يعثـر الجنود عـلى شيء في بيت لمى يشـكك في ولائها للقائد الخالد. سـقطت عين جندي على راية استقلال بين ثياب لمى، مهداة لها من أعز الناس على قلبها. أنزلـوا كل ثيابهـا مـن الخزانـة. جلبوا الأسـيد والكلـور من الحمـام. وانكبت المـواد كلهـا على أثوابها. عطـن الكلور والماء بالخرق واهـترأ القماش.. ترك لها الجنـد فوق الفسـاتين ورقة مكتوبة بقلم أزرق مأخوذ مـن مكتبها: "هذا جزاء مـن يطلـب الحرية يا لمى" عرفوا اسـمها من احتفاظها بشـهادات تقدير قديمة حازت عليها في المدرسـة، علقتهـا على حائط الخزانة.
كان الجند يجيدون حرق قلوب البنات.
دخلت لمى غرفتها. صورت أثوابها بهاتف محمول. ظلت تبكي ليلة كاملة.

في اليـوم التالي عم إضراب كبير أسـواق البلد. جاءت تسـتعير ثوبًا مضطرة من

بيتنا ريثما يفتح السوق. حدثتني عن غرفتها المنكوبة، وأرتني المقطع على سبيل تصديق هذه القصة الغريبة كأنما تقول لي: "ألا تستحق أثوابي حزنًا جماعيًا؟". طلبت منها نسخة عن صورة ثيابها المنكوبة عبر حاسوبي فأذنت.

في الليلة ذاتها جاءتني رسالة تسألني عن الوضع العام في المدينة. أخبرت باستمرار الإضراب. وأعلمتُ من باب الطرافة بقصة أثواب لمى دون أن أفهم لماذا أضفتُ أنّني صرت أخشى على ثيابي. في آخر المكالمة طلب الإعلاميّ مني نشر القصة على الموقع الالكتروني برفقة المقطع المسجل. رفعتُ المقطع على يوتيوب وأرفقته بلمحة قصيرة عن الحادثة.

لما شاهدت لمى أثوابها معروضةً كما الركام في مزاد إعلامي على الشاشة بصوتها الحزين. ازداد ألمها وأخفت عن أهل البلد حقيقة صوتها المنبعث من المقطع المسجل لكي لا يعيب عليها أحد كشف أسرارها بصوتها.

كرهتني سرًا إلى أبعد حد. اعتقدتْ أنّ الأثواب ستظهر على الشاشة دون صوت صاحبتها.
بعد ستة أعوام قضتها في الغربة جاءت تسألني عن المقطع ذاته، وتشكر لي الحفاظ على ذكرياتها.
قالت إنها لم تعد تكرهني.
لم أعد أنشر صورًا قبل أن يعيش أصحابها الحداد.

**

منذ عدة أشهر لم يعد فداء بحاجتي، ولم يعد يطلب مني أن أرافقه في أي رحلة. نقل إليّ العدوى وجعلني من أوائل المطلوبين للأمن السياسي. يحيا كلٌ منّا بمنأى عن الآخر. مازال يخوض الرحلات ذاتها ويصوّر تقارير في مدن شتى.

ترافقه فاديا منذ أول فبراير. تُخفي وراء مساحيق التجميل والقرطين الطويلين والشعر المستعار الأحمر أسلوبًا حذقًا تخادع فاديا بفضله أعينَ أكبر المجرمين - الجيش. وراء شعر فداء المصبوغ ويديه المتشابكتين بيديها إيحاء كبير بأن الاثنين ذاهبان إلى بيتٍ خليع. وجداها الطريقة الأفضل للوصول إلى أي مدينة محرم دخولها، لأنّ أفراد الجيش يدركون قيمة هذه اللحظات. وستشغلهم الأفكار الشيطانية التي تراودهم بشأن هذا الشعر المنساب ليلفتوا نظر صاحبته تاركين أمن وأمان الوطن. واحدهم يتمنى لو يلقي بسلاحه وخوذته مقابل أن يحظى بنظرة من فتاة جميلة. كانت داريا تشهد أولى أيامها في النكبة، لا صوتَ صادحًا من هناك ولا صورة واحدة.

نجحت فاديا باجتياز الحواجز الأمامية والانسلال بفداء ورفيقه إلى إحدى حاراتها الآمنة. تترك فداء ورفيقه ليبدآ الجولة، حيث على فاديا العودة قبل حلول العاشرة، الوقت الذي يحتّمه الأب على بناته للعودة إلى البيت حتى لو كنّ في قارة أخرى.

لدى فداء هذه المرة مهام مختلفة تمليها شريكة الطريق. فصباغ الشعر وحلاقة الذقن التي يدعى بها إلى الشاشة لا يتماشيان على حواجز الأمن بعد العودة من التغطية. جمع في حقائبه أصبغة بقدر معدات التصوير، وشعرا مستعارا وأدوات حلاقة ليعود إلى مدينته كما أنه شاب آخر.

بعد أسبوع مضى عادت فاديا من عملها منهكة، أمامها مهمة شاقة يوم غد. ينبغي أن تعيد فداء إلى بيته؛ لقد طال غيابه في داريا. ضمت يديها قرب الوسادة وقالت: سبحان مغير العادات، لقد صار الشباب ينتظرون البنات كي يرجعنهم إلى منازلهم. جميلة ومتعبة هذه الحالة!
في طريق العودة مشت فاديا أمام الشبان لتستكشف الطريق. يا لتلك الصدمة!، متراس أمني كبير قد اخترق رأس الحارة وطوق مداخلها بإحكام قبل أن يُعد فداء شعره وحلته الجديدة لاستقباله. لا يبدو أن الحاجز المفاجئ

قـد اخـترق الحي صدفة. ركضت فاديا دون أن تصـدر لخطاها صوتًا. أسرعت قبـل أن تحـل خطـى الاثنين أمـام الجندي المتجول. همسـت بخـوف: "انتبهوا انتبهـوا حاجـز هنـاك". كان الجنـدي قد اقـترب ليجوب كامل الحـارة وهُما في منتصفهـا. تواريـا عند مدخل صغير وهما يحبسـان الأنفـاس. لاح لهما مدخل الكنيسـة. وكإجـراء اضطـراري زج الثلاثـة أنفسـهم داخـل إحـدى حجراتها الضيقة بخطوات واسـعة.

قـوات الأمن تطـوق الشـبابيك المحيطـة؛ وهم يطوقـون كاميراتهـم بارتجاف تتزعـزع منه الجبال. وجه الاثنان ابتهالات غريبة للسـماء من داخل الكنيسـة. ردّدا آية الكرسي ثم سـورة ياسـين. صليا ركعتين جاثمين لوجه الله تعالى دون أن تلـوح لهمـا القبلة. صليـا باتجاه تمثال مريـم العذراء (يا مـن أمّنت محمدًا وأبـا بكر في غـار حراء آمنا من الحواجز الطيارة يا أرحـم الراحمين، اللهم أمّن معداتنا وتقاريرنا اللهم نسـتودعك كاميراتنا.. يا رب سـاعدنا بجاه النبي بجاه كل الأنبيـا..).

كان قلـب فاديـا يضـج بالضحـك لهذا المشـهد الدينـي المختلط، ويزيـل منظر تلاوتهمـا القرآن داخل الكنيسـة خوفهـا بالكامل.

**

بتهمة نصرة الإعلام

تسـترجع فاديـا أحاديثهـا السرية كلّمـا رأته في مشـاركة تلفزيونيـة. تعتبر أن كلّ خـبر يُجمل فيه التطورات الأخـيرة للأحداث كأنّما يوجّهه إليها لتعرف آخر أخبـاره. مازالـت تنتظـره بفارغ الصبر. منـذ عشرة أيام انقطـع التواصل وما عـاد يـردّ على اتصالها سـوى امرأة تقول إن عزيزها خـارج نطاق التغطية.

ذهبت إلى بيت فداء في الحي الدمشـقي الصغير كي تجالس أمّه وتشـعر بالأنس معها، ولتسـترجع فـوح الرائحة المنبعثة مـن أريج قمصانـه. تعانقتا وتذكرت الأم الأيام المريرة التي تشـتتت فيها الأسرة يومًا؛ وجعلت الأب يقسـو على ابنه في الصغـر لكـي يـدرس ويعمل في آن معًـا، عملًا بالقيـم الاجتماعية السـائدة؛ تلـك التـي توجـب على الشـاب فيهـا أن يتقـن "المصلحـة" مثلما يتقـن القراءة والكتابـة. مصلحة خوّلته منذ البدايات بَيـع معدات التصوير وتجهيزها لتظهر في ماراثونـات إعلاميـة كبرى. انتصر الطفل للصورة منذ بواكير اهتماماته. كبر وأتقـن الأشـياء أكثـر مما ينبغي، وحلـم أكثر من الوقت المسـموح لـه لتحقيق الأحلام. لقد أسرّ لفاديا في اللقاء الأخير بأنّه يطمح أن يشـيد مؤسسـة إعلامية كبرى سـتعنى بتغطية شـؤون المظلومين في أنحاء العالم.
تغـيرت نظـرات الأم وانحنـت تحـت خزانـة ابنها الأكبر فـراس. قالـت لفاديا انظـري للثيـاب.. كل البناطيـل حيث حطـت عليها يـده قبل الذهاب للمشـوار الأخـير. عندما سـلّم روحه للمـوت العام الماضي. تشـاركت الاثنتـان الذكريات والغصـص وقلـق الغيـاب دون جـدوى. نذرت الأم أمـام فاديا نـذرًا أن تزفها عروسًـا لابنهـا حالمـا يعود؛ حتى لـو ترنح الكـون اعتراضًا على هـذه الزيجة.

لحظة الوعد، هدأت طيور الحب القرنفلية في أرض الدار، وقرع الجرس.
كان عـلى فاديـا ألا تصدق ناقل هذا الخبر. في كل شـهر يذاع في الحيّ خبر موت فـداء، ويكـون الخـبر مجرد لغو وخطـأ. أفلتـت كل الوعود التـي قطعتها الأم الليلـة حين علمت بإصابة ابنها إصابة خطرة.

اتجهت فاديا إلى مستشفى المواساة وهي تجانبُ مساكن الفرقة الرابعة. كان فداء قد هرِّب إلى المستشفى كي يُعالَج بهوية رجل آخر. لم يثق الطبيب كل الثقة بهذا الجسد الممدود فوق التخت. شعر أنه يعرف صاحب الوجه جيدًا أو ربما رآه على التلفاز وهو يتابع الأخبار. حالما تعرّف الطبيب إلى وجه فداء رأى نفسه في ورطة. جثة فداء كانت قد ووريت الثرى ولا سبيل للتخلص من جثة هذا الفتى المعارِض. اتصل الطبيب برفاق فداء راجيًا استنهاض جسد الفقيد من المستشفى بشكل فوريّ حتى يتخلص من جثة فداء الملقاة أمامه. سحب رفاق فداء الجثة ونسوا أن يحملوا ممتلكات رفيقهم. لكنّ من ساقوا الجثة من المستشفى ما يزالون أحياء يرزقون، وما تزال أسماؤهم وبياناتهم مفصّلة فوق هاتف فداء الذي ظل يلوح وميضه فوق سرير المستشفى التي تتوغل فيها أفراد الأمن.

هرعت فاديا تنبش إضبارة فداء وهواتفه ومفاتيحه من فوق الأسرّة، دون أن تتفرغ مليًا للحزن. ودون أن تتدرب على مناداة حبيبها فداء منذ الآن باسم الشهيد.

**

توالت الصدمات على قلب فاديا؛ نفضت الغبار عن المكتبة المنسية، استحلّت منها كتابًا يخدش وحشة الليل عندما كانت وحدها. فتح باب بيت فاديا لأول مرة بلا مفتاح. وبدون أن تدور فاديا بيديها على المقبض، اقتحم خمسة مسلحين بيتها اللصيق بالأمن. أسقطوا المكتبة بكل ما فيها أرضًا ومزّق الكتاب الأخير بيديها. جُرّت الفتاة إلى فرع المخابرات الجوية بثياب النوم. وضعت كما البعوضة في "كرفانة" كبست بها نحو أربعين امرأة. تعامل كل واحدة منهن فيها كذبابة بل قد يتسع للذبابة مكان أكبر للحركة. جميعهن واقفات متسمّرات. ميزة هذه الكرفانة الوحيدة أنها تمنح السجينة حريّة مطلقة في دخول بيت الخلاء متى أرادت دونما إذن من السجان، فهذه الميزة قد لا تتاح

لفاديا بعد اليوم.

استقبلها الجند بالركل والرفس حال الوصول، لكن المحقّق أمرهم بالتوقف عن هذه الهمجيّة. أمسك بيده ورقة وبدأ يعدّ أسماء لم تشفى منها ذاكرة الفتاة بعد. محمد. سعيد. فداء.. رتل الأسماء واحدًا واحدًا، شاملًا اسم كل من أدخلتهم فاديا وسارت بهم على أطراف دمشق في يوم من الأيام. أحد أبرز تهمة وجهت لها التعامل مع سلفيين جهاديين في القابون وداريا، وإيصال المجاهدين الى المناطق المحاصرة. وكل التقارير الواردة باسمها تفضي إلى التحبب بذكر سيرة رسول الله والصحابة.

يقرأ المحقق الأسماء من جديد، وينهال عليها ضربًا بالهراوة. يزيد وتيرة الضرب على منطقة الرحم أسفل بطنها، متعمدًا أن يحرمها القدرة على الإنجاب مدى الحياة. قال إن الوطن لا يريد نسلاً عاهرًا منها.

يومًا بعد يوم بدأ المحقق ينتبه لسلوك فاديا. سألها عن أسباب جولاتها في برزة والقابون وداريا ما دامت صادقة ومحايدة. أجابته أنها تعمل في القابون مدرّسة ومرشدة للدعم النفسي وفق اختصاصها. ضحك المحقق حتى سمعته السماء. يركلها ويقول.. "مدرّسة ألست كذلك؟! تذكّري مع كلّ حبّة أرز اسم جندي شريف من الجيش العربي السوري تسببتِ بقتله وأذعتِ ميتته على الإعلام. تذكّري كل كذبة باطلة نسبتها للأحرار". صعقت فاديا لهول التهمة التي ستفضي بها إلى الإعدام قريبًا صرخت في وجه المحقق: "لاااااااا. توقف عندك أنا لم أقتل أحدًا؛ أنا أخاف من دهس نملة كيف لي أن اقتل إنسانا؟ أنا لست قاتلة ولست إعلامية أتفهم؟ لا شأن لي بكل الأخبار".

ولكنها حلمت ذات مرة في الصغر بأن تكون صحفية، وحمدت الله أن لم يكتب لحلمها رؤية النور. اليوم تتخلى عن هذا الحلم إلى غير رجعة، وتشمئزّ من كل ما يتصل بالإعلام. لم تعد تقرأ الصحف، ولن تمارس هوايتها في

"الدوبـلاج" بعـد اليـوم. صارحت المحقـق أخيراً بـأن كل ما فعلتـه هي خدمة أسـدتها بإيصال شـباب مطلوبين للأمـن إلى مناطق آمنة. قالت له إنهم ليسـوا مجرمـين وقتلـة، إنهـم معارضون فقـط. وهم أحـرار برأيهم مثل مـا هو حرّ برأيـه. الجملـة التـي أسـقطت فاديا إلى أسـفل حيث أقـذر زنزانة في القبـو عقابًا عـلى جوابها المتصـدي. حرمت قضاء الحاجة عشرين يومًـا وهي تفرّغ مثانتها في بنطالها الوحيد؛ تجلس بين القاذورات ولا يسـمح لها بالتجول بغيرها. فمناصرة الإعلام الحر ولو سرًا يعتبرها السـجان تهمة إرهابية أيضًا وفق قول المحقق.

عـشرون يومًـا من القذارة، عشرون يومًا من الذل والإهانة الجسـدية. أشـفقت عليهـا السـجّانة بعد هذه المدة.؛ سـمحت لها بغسـل القذارة والاسـتحمام سرًا لمـرة واحـدة. آخر جولة تحقيـق قُدِمت فيهـا فاديا إلى المحقق عرفـت أن هناك موجـة عفـو جديدة عـن الأسرى. قالت له: "ألم يذع الرئيـس فتح بوابة جديدة للحـوار؟ حتـى الرئيس يقول عـلى الإعلام كذلك. أما آن لكـم أن تعتقوني لغير رجعـة؟ ألـم يـأن الأوان لترفعوا عنّي تهمـة الجهادية الباطلـة. وتتذكروا أنني ابنـة الطائفـة الإسـماعيلية؟ أنـا لم أفعل شـيئًا أكثر مـن أننـي آزرت الحرية". علقـت الغريقة آمالها بقشّـة الحـوار ظانة أنها آخذة بهـا إلى حرية قريبة. قال لهـا: "إن الحريـة موجـودة في كل مـكان، وإن اختـه تتمـشى في السـاعة الثالثة ليـلاً". ردّت فاديـا: "أختـك تفعلهـا بالفعل، لكن لسـت أنا مـن يفعل ذلك". استشـاط المحقـق غضبًـا حمية لأختـه، وانتفض سـبعة جنود معلقين أسـلاك الكهرباء على قدميها ويديها. وقفت دقات القلب وأغمي على فاديا لتجد نفسـها في القـاذورات من جديد بين الصراصير والجرذان، مكسـورة الكبرياء مُـهانة. حـين همت تمسـك الخصـال على كتفيها ظلـت أصابعها تصعـد في الخواء حتى مسند الأذنين.

هناك عرفت أن جريمة شنعاء أخرى ارتكبها الجند.
هذه المرّة في حقّ شعرها المتهدل الطويل.

**

من أرشيفي

في آخر يوم تشرينيّ من عام ألفين واثني عشر.
لـم أعـد أشـعر بـأن لحياتي معنى. أسرتـي في خدر تـام تعاني فقـد الابن وأنا أطـوف بالكامـيرا في الطرقات الموحلة بلا وعي. في أحد أيـام كانون جثمَت على المكان ليلةٌ يسـلخها البرد، وبيت نجلس فيه مع أشـباح العتمة مقطوع الكهرباء خـاوي الشـموع. تحلّقت أختـاي وأمّي وأبي عـلى سرير واحد ينعـم بالقماش وحـده دون باقـي الغرفـة. نمنـا في مقر كتيبة خـاوٍ من تـرف الحصير. كانت المدينة في أشـد معاركها؛ حيث صوت الرشاشـات والرصاص ينفرد بالمسـامع.

بحـت في آذان أمّـي وأبـي بوحًا يائسًـا يرتـدّ إليّ صداه من فـراغ الغرفة: أن ما عـاد للأشـياء أي قيمـة وأنّني لـن أحلم مرة أخـرى بمواصلة الحيـاة الطبيعية بين رجال الأمن في دمشـق. ذهبت مسـاحتي الصغيرة التي اخترتها كما ترى يا أبـي. لا دراسـة، لا قضية، لا شـبّان على قيد الحياة أقدّم لهـم آمالي. لقد حكمت عـليّ محكمـةُ الأقـدار بالسـجن المؤبّد في هـذه البقعة؛ فإن خرجت عن سـيطرة الجنود سأسـجن فيها نفسي حتى لا أسـجَن، أما إن اسـتعمروها سـأموت ميتة قاسـية. بالتأكيد أنّ أي أب وأم سـيرجون لابنتهم الحياة ببعض الرغبة قبل أن تموت. سـوف أدير إلى قبلة الشاشـة وجهي في النهايـات التي أصوغها.

كان اليـأس يخيّـم على العائلة؛ ذهب الغـالي والنفيس، لا مسـتقبل ولا حاضر.. ولا أصـواتٌ سـوف تثرثـر عـلى ابنتهـم سـوى صـوت الرصـاص. شـاهدني القائمـون على قنـاة تلفزيونيّة محلية في تقرير مصـوّر ذات مرة، فاقترحوا عليّ العمـل مقابـل أجـرٍ مالي، أمـر أرفضه كما كلّ الشـبان منـذ البداية؛ أنـا لا أبيع حياتـي ولا أختـزل وجعي بمحطة. لكن الحياة تشـتدّ بـي كلّما رأتني أصرّ على أمـر مـا. تراوغني حتى أتعلّـم أن لا شيء في الكون يظل ثابتًـا ما دامت الأرض بكل ثقلها لا تلزم نقطة واحدة. والشـمس زعيمة الكواكب تجري لمسـتقر لها.

حتـى أعلن نبأ وفـاة الكهرباء كليًا من شرايين المدينة ولم يعد بإمكاني مواصلة التصويـر والتدويـن بـلا وقـود (وعـاء الوقـود الصغـير لا يثبـت في المولّـد إلا أسـبوعاً واحـدا)، سرعـان مـا ندمت؛ يـا ليتني لم أتعـال على مقـترح القناة. يا ليتنـي قبلـت بمالها لأنعم بالنـور. صوتي يغيب تمامًا عـن كل نشرات الأخبار، لكـن النـدم لا يفيـد وأخبروني في القناة أنّهم اتفقوا مع مراسـل آخر.

**

في أحـد الأيام، مذيعة القناة المحلية تشـكر مراسـلها معلنة اسـمه: "فـداء!" إذاً هـذا هو المراسـل. فداء الـذي لا يقبل التفـرد بقناة واحدة يعمـل الآن في القناة التـي أعرضـتُ عنها. لا شـك في أنّ فقرًا مدقعًا قد سـيطر عليـه هو الآخر.
بعـد أسـبوع نُقـرَ بـابُ بيتـي نقـرة خفيفـة وإذا بفداء يحمـل بيديه شـطائر الصفيحـة السـاخنة، ويأتي إليّ كضيف رسـمي. شـاهد بيتي خاويًـا من معالم الحيـاة وسـألني عن أخبـاري الخافتة وصوتي الذي ما عاد يتردّد على الشاشـة والمواقـع. شـغلني منظـر الصفائـح عـن معاتبتـه. حالما شـبعت قلـت بغصّة: "رأيتك على الشاشـة قبل أيّام، طلبوا منّي في البداية أن أكون مراسـلتهم ولكنّي رفضـت، أمـا الآن فكمـا تـرى، لم أتوقع أن يسـوء بنـا الحال إلى هـذا الحد. لا بـأس الأرزاق قسـمة ونصيب".

كان فداء قد قضم القطعة الأولى من القرص؛ قال على الفور:
- إذًا سأترك العمل منذ اللحظة لكي تشغلي مكاني، وحالما يشغر مكان أعود.
- أكمـل قرصـك والجـم جنونـك، لا بـدّ أنّ أحـداً سـيتصل بـي لكـن القصـة ستطول.

ألقـى القـرص جانبًا ليجـري مكالمة عبر الأقمـار الصناعية. "مـن بعد إذنك لن أسـتطيع العمل معكم منذ اليوم، ولكن هناك فتاة سـتحلّ محلي". سـأل المتصل بـه: "فداء ما الـذي جرى نحن وقعنا العقـد معك أنت".

- أعلم.. ولكنّ ظروفي لم تعد تسمح بذلك.

حالما علم المتصل بفتاة بديلة سـتحل محله تذكرني؛ وقال أمهلني. لقد وعدناها خـيرًا وسـتكونان معنـا أنتما معًـا. ازدريت فعلـه وقلت له: "ما هـذا التصرف الغبـي؟ أتحسـبني قصـيرة اللسـان؟". قـال: "لا، ولكـن عـليّ أن أطمئـن عليكِ قبـل أن أمـوت". قلـت: "ومتـى الميعـاد إن شـاء اللـه؟ أنتظـر موتـك بفـارغ الصـبر؛ كل مـرة تردّد هـذه الكلمات ولا يفتأ وجهك يلـوح في أفقي". قال فداء: "سـأموت غـدًا". غـادر وهو يغلق الباب بـتردّد. في اليوم التالي لـم يمت. لكنّني لم أعد أراه.

**

كلّ مـا تركـه لي فـداء من أثـره بطاقات الذاكـرة وكاميرا معطّلـة دفعته ليدمي صديقـه ذات يـوم في سـبيلها. جاء يطلعنـي على ذكرياتنا الموثقـة، لكن كل من شـاركونا في استخدام العدسـة قد واراهم الثرى.

بعد عامين..

كل شيء قـد تغـير، وما عادت كاميرات الفيديو الرديئة التي صورنا بها أصواتنا خِفيـة تصلـح لأيّ تقرير. انقلبت الوجـوه. إعلاميو اليـوم أعمارهم لا تتجاوز الخمسـة عـشر عامًـا. رأونا نجومًـا وأبطالًا وشـهداء ومن لم يمـت مثلي صار محسـوبًا على قناة. كان الحصار يسـتفحل بين البشر. الصبيـان الجدد يتمنون الانخـراط في هـذا العالم ليجلبـوا قوت اليـوم. التحق كثيرون بوكالات ناشـئة توظف أي صبي، وظهرت مؤسسـات عديدة تابعة للعسـكريين وسلك الشرطة المعـارض وشـاع حديـث الصبية الجدد. بكامـيرا وراتب شـهري وصفحة على فيـس بـوك تسـتطيع أن تصبح إعلاميًـا. جيل اليـوم مثلنا خـاسر؛ لا طعام لا طبابة لا مسـتقبل ولا تعليم. أي شيء سـيكونون سـوى موتى؟

في ذاك الوقت الذي أمضيناه نحن في جولاتنا المميتة هُرع شبّان آخرون في جولات دراسية بعيدًا عن الهراء الذي دمّر مستقبلنا. أهم قضية شغلتهم دراستهم في الجامعة. أنهى بعضهم مواد الكلية في الإعلام أو الاجتماع والسياسة؛ هؤلاء أذكياء في كل مكان. عادوا للبلد بعد ثلاث سنين حالما خرجت المدينة عن سيطرة النظام وصارت مقبولة للعمل فيها. في المقابل بدأ شبان آخرون حياتهم التجارية حولنا، يشترون المقابلة التلفزيونيّة بألف ليبيعوها بعشرة آلاف. ولم يعد الناس يقبلون بتوزيع المعاناة مجانًا. ماذا بقي من المدن ومن كلمتنا ومن الوعود التي قطعناها؟ فليتاجروا وحدهم أياً كانت الظروف التي عرقلت المهمة. لقد كان الثمن الذي دفعته أغلى.

تعرفت على محرر في جريدة. كان الحصار يحكمني وبُعدي عن الحدود يجعلني لا أجيد التعاطي مع أحد. فرصتي في أن أكون إعلامية لقناة أخرى غير ممكنة ما دمت في هذا السجن الكبير. كل الطرق مسدودة في وجهي ولا تعاملات مع العالم الآخر. أسكنت قلمي الإعلام المكتوب ناسفة رغباتي الفضائيّة.
ومن قلب السكون.. ثم إلى منبر كبير.. "الجزيرة". القناة التي أظهرتني مطلع الثورة في "لايفات" صوتية عديدة للحصول على شهادات عيان. ما الفائدة ما دام الوضع يشتد سوءًا؛ وأنا لا أتطور في شيء. صوتي في القراءة ما يزال نحيلًا، والجوع يظهرني أصغر مما أنا حقيقة. أسمع أصوات المراسلات كل ليلة. كيف يقرأن؟ ومن أي طبقة يخرج هذا الصوت المتمكن؟ لا بد أن يخرج هذا الصوت منّي. لديّ القدرة على تقليد حبال أي صوت لدى أي بائع في الحارة، ولكن معدتي الفارغة تعيق كل التدريبات ويجرح العناء حلقي.

**

فتحتُ روائح الموتى المختزنة بالكاميرا بعد عامين. أشاهد صورنا قبل ثلاث سنين، صور لرصاص متطاير لا معنى له، مقابلة مع أخي في العيد، صور

لرجال الأمن في مبنى الضباط، الصور الملتقطة في وادي بردى من نقطة مجرى عين الفيجة، إضافة لصور اختزنها براء بعد الانشقاق وقبله حين كان في الخدمة العسكرية. دقّقت في الكادر لعلّي أعرف أحدًا بين الوجوه. لا أحد من هؤلاء أعلن انشقاقه بصحبة براء. أووووه.. إن ذاكرتي لم تعد تعمل مثل السابق، لكنني متأكدة من أني رأيت هذا الرجل من قبل إلى جانب براء. أرخيت يديّ على الوسادة لأسرح في تفكير عميق. ثبُت حجر عيني فجأة كأنني اكتشفت سرًا خطيرًا؛ أظنه أبو عبد الله. نعم أبو.. عبد الله.. إنه هو.. ليس أحدا آخر. يا للغباء، يا للمصيبة.. ربّما أكون مخطئة!
لا بل إنّه هو.
أبو عبد الله قاتل عمران لأنه رجل خائن. ما الذي كان يفعله في هذه القطعة العسكرية؟ كيف لتاجر في الجرود أن يكون برتبة ملازم في قطعة عسكرية بدمشق؟ في المدة ذاتها والشهر ذاته؟ هل كان قائد الكتيبة عميلاً مزدوجًا وكان عمران الخائن بريء؟!

كمّم فداء شفتيه في اللقاء الأخير قبل أن يفارق الحياة. آخر تعقيب قاله عن الحادثة: "كان اللعين يعمل لصالح النظام كل تلك المدة؛ عمران هو الجريمة الوحيدة التي نعرفها يا شريكتي. لا شّك أنه كان ينهي جولة تسليم الأسلحة للثوار في يوم ويحمل أسماءهم إلى مساكن الضباط في اليوم الآخر. ألا تذكرين نبأ قدومه إلى حمص في زيارة خاطفة رغم أن الطريق محاصر موصد بحواجز النظام؟ لماذا كل هذا الغباء؟ ما الذي كان يحجم أعيننا عن رؤية كل هذه التفاصيل الواضحة؟ ما هذا الخداع؟ بأي أشخاص نثق نحن؟ لماذا لم نمعن الأنظار أكثر؟ لن تفيدنا كل هذه الاكتشافات مساء يا عزيزتي. إن أبا عبد الله هذا أنموذج لقصة متعبة أعاقتها الكاميرا ثم كشفت لنا كل خباياها دون أن ينال المجرم أيّ عقوبة. اسمعيني.. سيظل هذا التراخي عنوان المرحلة القادمة من عمر الثورة. أكملي الدرب وحدكِ ما عدت أتحمل الصمت عن الجرائم والخطايا".
يقول فداء إن مغامرتنا تلك إلى الرستن كلفت عمران حياته.

الوميض الرابع

كان شـغفنا قبلهـا يطـاول الكواكـب. الشـغف الـذي عشـتُ بـه دور صحفية للمرة الثانية تريد أن تقابل ضابطًا معروفًا وتشـقّ المغامرة الغريبة. كم تحمل التعقيـدات والعراقيل من الجرائم والخفايا.

**

أما دور الصحفية المهووسـة الذي مارسـته أول مرة في منتصف أغسـطس من عـام 2011 بعـد أن اتصلـت بي مراسـلة لصالـح قنـاة سي إن إن طالبةً منّي محاولة الدخول كفتاة لأصوّر في بيت أول شـهيدة في منطقة دمشق؛ البنت التي قُـنصت وهي في السـجدة الثانية من ظهر يوم الجمعة. اسـمها فاطمة كريم. اسـتطاعت رصاصـة متفجـرة أن تثقب الحائطـين وتقتلها دون أن تشـفع لها الصورة التي وضعتها على جهازها المحمول لزين ابنة بشـار الأسـد.

هرعـتُ إلى بيتها بعدسـة المشـاوير الصغيرة. خوف أهلهـا دفعني للتعريف عن نفسي بأنني صحفية أقطن في هذا البلد، وأعمل في هذا السـلك منذ زمن. عاهدت أهلهـا أن أصـور جثمانها بكامل الحيادية والسرية دون أن يبين وجه من وجه. ألصقـت صوتي الكفيف فوق جثتها، وأرسـلت المقطـع للصحفية الأجنبية دون أن أفكر بتداعيات الأمر صحفيًا.

نـشر المقطع على الوكالـة وتناقلته القنوات العربية بصوتـي الراجف وإصبعي المعكـوف الذي يشـير إلى الجـدار "الشـهيدة فاطمة كريـم، 2011/12/8 كما تشـاهدون هذه الرصاصة المتفجـرة اخترقت الجدار هنا".

لـم أكن أعرف أن المقطع المسـجل سـينتشر على المحطـات العربية. احتفظ أبي بشـكوكه حيال هذا الصوت المنبثق من الشاشـة خائفًا يطارد ظنه. وأحتفظ أنا بحسـاب أول جهة اتصال تلفزيونية.

**

بعد أربعة أعوام..

عشية الحادي عشر من أغسطس/ 2012 / التل / ريف دمشق، وجد براء البوشي مقتولاً أمام مقره الإعلامي بعد محادثة تلفزيونية أجراها على قناة مغرضة بحسب وصف إعلام النظام.

استطاع برج الاتصالات أن يحدد موقعه دافعًا قوات الأمن لافتعال كمين محكم. تعددت الروايات عن الطريقة التي مات بها صديقنا، ولا توجد للآن رواية ثابتة عن مقتله. لكن المؤكد أن براء كان في المقر الذي زرناه به آخر مرة. أفراد الكتيبة يقولون إن قوات الأمن استطاعت التسلل إلى المقر خفية، وراحت تتوغل بين بساتين التل. دارت هناك اشتباكات متواصلة بين النظام وأفراد اللواء الذي يتحدث براء ناطقًا على الإعلام باسمه. انتهت المعركة بقتل مباشر لكل الطاقم وأفراد الكتيبة. والبعض الآخر يقول إن قذيفة مباشرة أطلقت من ثكنة عسكرية تابعة للنظام استطاعت الفتك بكل من كان في المقر ليلاً.

مات كل الشهود على هذه الحادثة. فكل الذين رافقوا براء وجدوا مقتولين كذلك، ووجدت جثثهم محترقة في ظروف غامضة. أغنى براء الشاشة بتقاريره المتجولة بين الحجر الأسود والتضامن واليرموك ووادي بردى وعربين قرب دمشق. وبصدى صوته كان ضيفًا رئيسيًا على قناة الجزيرة الإخبارية بعد أن كان من اوائل المنشقين الذين أعلنوا انضمامهم لصفوف الثورة والتحقوا بالعمل الإعلامي، ليكشفوا جرائم النظام بالصوت والصورة.

ضاقت الأحوال ببراء ذرعًا فانضم إلى لواء سمي آنذاك "لواء أحفاد الرسول"، ليكون ناطقًا إعلاميًا عسكريًا من منطقة التل. آخر شهادة قدمها فداء في حق صديقه قال فيها إنه باع سلاحه واشترى بثمنه معدات إعلامية يجهز بها مكتبه الإعلامي الجديد.

**

عثر على جسد فداء البعلي أو "محمد معاذ" مرميًا على أحد التقاطعات برصاص قناص. حاول فداء قطع العبارة التي كانت تقله من حيه القابون إلى مدينتي دوما دون المرور بحواجز النظام. قنِص في منتصف التقاطع دون أن يصل إلى الخط المقابل. فداء الذي لم يغرقه الليل ولا النهار غرِق في لجّة دمائه. أفاقت أمه يوم الخامس من يوليو 2013 ذابلة سقيمة. فداء هو الولد الثاني الذي سيدخل اللحد قبل أن تسر الأم خاطرها بنظرة أخيرة؛ مات فداء وأمه في قمة اشتهائها لضم الجسد لا القمصان.

**

غياث الشامي، الشاب الذي لم يتح له فرصة آمنة ليخبرني باسمه الأصلي بعد رحل باكرًا جدًا.

كان غيـاث ينقـل المعـدات الإعلامية على أخطـر الطرقات. كان يحيـك الأدوات في قمـاش سـيارته ولو اسـتطاع لألصقها بـين ضلوعه. يقطع بنـا الطريق بين القلمون ودمشـق بقلب حاضر لا يخاف لكنه اعتقل على أحد حواجز دمشـق في السـنة الأولى من عمر الثورة.

توالـت الأنبـاء عن عيشـة أخـرى قضاها غياث طيلة السـنين السـت في سـجن صيدنايـا. وجـرى التكتم عليه كل تلك المـدة دون أن يعرف الأهل عن ابنهم أي معلومـة. قبل أشـهر فقط من هـذه الكلمات، قرع جرس العائلـة، لكن الضيفة كانـت إضبـارة غياث وهويته. قالـت قوات الأمن للأب المكلـوم.. إن غياث مات في السـجن الصحراوي في ظروف صحية قاهرة.

**

محمد شريفة أو كما عرفته أبو بسام.
أول مـن اسـتخدم تقنية البـث المباشر لنقل مظاهرات حي القابون من دمشـق.
تحدث بصفته ناطقا باسـم الحي الـذي عاش فيه.

" عمر القابوني" مؤسـس تنسـيقيات القابون والمسـؤول عن إدخال الصحفيين وخروجهم من دمشق.
قُـصف منزله خلال اقتحام قوات الأمن حيه بدمشق في التاسع عشر من حزيران يونيو .2013. أصيب أبو بسـام بشـظايا في رأسه دخل إثرها في غيبوبة طويلة حالـت دون شـفائه ودون زفافه من العروس التي كان يحلـم أن يتوجها يومًا ما على عمُره.

لكنـه الشـاب الوحيد الذي اختار له أبـوه ميتة مميزة. اجتاز المسـعف خطوط النـار ليحقـن الجرعـات اللازمة لحيـاة رفيقه، وترك أبا بسـام على "المنفسـة" حتى تهدأ نيران المعركة. كانت آخر مرة يطل فيها المسـعف على الأب المسـكين.

تـاه الموت عن الابن وتاهت الحياة. ظل الأب سـجينًا بـين الحياة والموت ينتظر المصـير المجهـول مع أنفاس ابنه الميتة. فقـد الأب الأمل من حياة هاتين العينين. أزاح جهـاز الإنعـاش بعـد عجـز طويل. لفـظ عمـر القابوني أنفاسـه الأخيرة بسرعة.

**

الإعلامي غياث عبد الجواد - أبو تيم الجوادي.
نـاشر الأخبـار في تنسـيقية برزة والقابون بدمشـق، قُـتل خـلال اقتحام حي القابـون. كان التاريـخ هـو العاشر مـن مارس ألفـين وثلاثة عشر. لـم يلتَقط للشاب صورة واحدة توثق موت جثمانه إلا الصورة العالقة في ذاكرتي. حولته قذيفة الهاون إلى أشـلاء دفنت مبعثرة في المقبرة، رغم أن القذيفة تصغر جسـده بعشرات المرات.

أما محمد سـعيد الحموي.. مؤسـس تنسـيقية العاصمة فكان يتبادل الأحاديث مـع ابـن عمه في بسـاتين أبو جـرش- الصالحية قبيـل لحظـات اعتقالهما معًا. خـرج محمـد بمبادلة أجرتها فصائـل المعارضة حين سـلمت الأسرى الإيرانيين عـام ألفـين وثلاثـة عشر. لكـن محمد لم ينعـم بالحرية أكثر من شـهرين. قتل بقذيفة هاون انطلقت من ثكنة الفرقة الرابعة التي يرأسها شقيق رئيس النظام السوري.

**

محمـود عرابي آخر الشـهود الذيـن التقيناهم في حمص. اعتقدت أنني سـأوثق نجاتـه قبـل إنهاء هـذه الكلمات، لكنه اغتيل في مدينـة الريحانية التركية قبل أن ينتهـي عـام 2017 في ظروف غامضة.

**

نجا أدهم ومحمد شركاء فداء في أول مكتب أسسه في حي القابون بدمشق.

أما محمد "أبو العز القنواتي" كما كنا نناديه فأصيب عدة مرات في جسده وكتبت له النجاة. أطفأ فانوس الإعلام من حياته وتركها للعتمة. آخر كاميرا احتفظ بها كسرت في المعركة، ثم التحق محمد بجبهة النصرة مقاتلا بعد فواجعه برفقاء الدرب، ليشهد أخيرًا مرحلة الحصار والخلافات العسكرية.

محمد "أبو العز"، رغم كل التغيرات التي قصمت حياته وشخصيته قسمين، كان أول شاهد بعدسته على اليوم الذي تشكلت فيه كتيبة تحرير الشام بدمشق. تزوج وأنجب طفلًا جميلًا. يقول إنه يحمل السلاح الآن ليدفع عن ابنه الأذى لا أكثر بعد غياب الأمل من بزوغ شمس أخرى تغمر سريره الحزين. لا أعرف أين حط به الزمان بعد أن هجّرت قوات النظام حي القابون بكامله قسرًا إلى إدلب. لكن آخر خبر عرفته عنه هو ما كتبه على حائط الفيس بوك عن طفل جديد رزق به بين نيران اشتباكات وقعت بين المعارضة والنظام في اليوم الأول من عام ألفين وثمانية عشر، وكتب أن اسمه حمزة.

**

أما أدهم الشامي، أو كما أعرفه الآن "كنان درخباني"، الصحفي الوحيد الذي كان ضمن المكتب فقد ترك الجامعة منذ السنة الثانية والتحق بالمكاتب والتنسيقيات حتى صارت القابون رمادًا.

قُصف بيته وذهبت ذكرياته وضاعت كل الدروس التي تعلمها سدى. لجأ إلى تركيا لكن أحدًا لم يعترف بكل هذه الذاكرة الملتهبة والدروس التي تنتشي بالأحلام والأوهام. اعتراه الفقر واليأس بعد سنتين من الغربة. فشل كنان في إيجاد عمل في تركيا. قصد البحر المتوسط برحلة كادت تودي بحياته ورمى فيها كل الخبرات الميدانية. تبللَت الشهادات والبطاقات والكتب كلها بالماء.

هو الآن في ألمانيا يبدأ حياته من الصفر. لكن حلم التخرج من كلية الإعلام ما يزال يسيطر عليه. وهو الآن يستعدّ ليكمل الامتحان التجريبي في ألمانيا.

**

فاديا ابنة السلمية.. خرجت من المعتقل بلا شعر ولا رموش عينين ولا أحلام بفرصة إنجاب.

خرجت من المعتقل أخيرًا بعد سنة عانت فيها التعذيب في سجون النظام. عندما كلمتها بعد الخروج من المعتقل طلبت مني ان ألتمس العذر لها لأنها غير قادرة على سرد الأحاديث دفعة واحدة. فالأحداث في ذهنها مختلطة بسبب كدمات الكهرباء على رأسها الصغير. قالت لي إنها لا تصلح لتكون مصدرًا صحفياً أبني عليه تبعات كتابي. كانت مع كل جملة تدخلني في صمت طويل.

حظيت فاديا بالنجاة والعبور إلى تركيا بعد تمسك شديد بالبقاء في إدلب. حتى لو كلفها الأمر أن تظل كل الأمر محجبة في بيئة غير بيئتها. كان ذلك أسهل من الانخراط بغربة لا أحد يشاطرها الجرح فيها. تخضع الآن لعلاج صحي ونفسي لعلها تعود إلى طبيعتها. منتهى أحلام الصبية أن تنجب طفلًا تتحدى به المحقق الحقير.

**

مات أخي في آخر يوم أيلولي من عام ألفين واثني عشر، وهو يحمل كاميرتي الحمراء الرديئة ليصور إطلاق رصاص القناصة المتمركزين على أعلى برج في ريف دمشق. فوثقته رصاصة أطلقت على رأسه وقلبه بدل أن يوثقها. لا توجد "شاهدة" تميز قبر أخي المتروك في مقبرة الشهداء في دوما لكن أمي تميّز رائحة القبر من بعيد.

**

أما أنا...
أكتب هذه الكلمات وأنا على قيد الحياة. حاولت أن أحمي نفسي حتى لا أكمل عمري في زنزانة. وكان التهديد والحذر يسجانني أكثر من جدران السجن. توقفت عن إذاعة الأخبار كما تعرفون؛ وقوف العاجزين. ما كان بإمكاني أن أرسل خبرًا ما وأخشى في الوقت ذاته على نفسي حتى وصلت إلى تقرير الصفر، وهو آخر ما صنعته يدي.

سألت نفسي في الغربة بعد أن ابتعدت عن تغطية الأحداث واضطررت إلى النزوح الأخير: "هل نفعني الصراخ والتغطية كل تلك السنين؟ سوى أنهما عرفاني أن الألف التي أصرخها يتجاهلها الواقع مهما تعاظمت. والهاء التي أتنهدها نهاية كل خبر لم ينغرس صداها إلا بقلبي"، ثم عرفتُ فيما بعد، أي بعد أن حولت مساري من التعامل مع الإعلام عبر وسائل التواصل إلى التعامل المباشر، أن المواطن الصحفي الذي يدفع الفاتورة من دمه ودم أهله إذا قرر أن يطور صوته ويحوّل نفسه من ناشط إعلامي إلى صوت صحفي محترف لن يفلح في ترسيخ هذه الفكرة. سيظل كل العمر ينشط باستصغار وضعف، ولن يرقى ليعامل معاملة موظف أنيق مهما فاقت إمكانياته.

ربما لأنه يدخل الوسط الإعلامي بخطيئة المدينة الضعيفة التي كان يقطنها؛ بخطيئة إيمانه بالإيثار أكثر، فلا يجيد التعاطي مع الواقع الجديد ولا يستطيع العودة إلى الوطن الذي ذاق فيه الويلات.

ما يزال يسألني بعض الناس: كيف لي كفتاة في تلك الفترة أن أواجه النيران والشاشة في آن واحد في منطقة تحسب أنها الأخطر على الصحفيين في العالم؟ ربما لأنني كنت أؤمن بأن حصّتي من الوطن أكبر من حصة أيّ مواطن مسّلح قد تدعمه البندقية ليمنعني من إبراز صوتي. فحين كنت ألجأ لمواطنَ لصيقة بتطورات المشهد ويمنع عني فصيل ما التقاط مشهد محدد، أو حين ألتقي وجهًا لوجه مع أصحاب البنادق لأتلقى كلامًا مزعجًا بسبب هذا العصيان الذي

قمت به، فأتدارك أفكارهم الهوجاء ورصاصهم العاتي لأنني أعرف من هيئة كل رجل ابن من يكون، وأقول إنني ابنة هذا البلد وإنني المتجذرة فيه منذ عشرات السنين. يسحب عليّ الزناد رجل مسلح آخر حين يرى الكاميرا معلقة على يدي؛ يسألني من أنتِ ومن خولك لتصوري هنا وترسلي مواقعنا؟ لا أردّ ولا أهتم.. أعتبره باذنجانة! فإن أصرّ عليّ أقول: أنتَ من أنت؟ ومن خوّلك لتتحدث إليّ؟ يقول ربما تنقلين أخبارًا معادية للنظام. فأسأله عن تاريخ الشهيد وراء الشهيد وعن اسم فلان وفلان دون أن أضطر لتقديم بطاقة تعريفية عن نفسي. وحين لا يعرف جوابًا عن أسئلتي سوى أن يضع إصبعًا على زناده ليلقنني درسًا على هذا التصدي. هنا لا بد أن يكون بين الجنود جنديٌّ آخر يعرفني ويستدرك الموقف ويحلّ المشكلة، يقول هذا عهد هؤلاء الأشقياء فاصبري.

أصبر وأتجاهل كل شيء حولي.. أتجاهل نفسي.
بفضل هذه الحارات التي أتنصل فيها من أي كمين كان يراد لي، وبفضل من تبقى من الرجال الذين يعترفون لي بجميل الفضل ويشكرون لي ما قدّمت في الماضي، وبفضل المدن الراقية التي تفي لأصحابها مهما امتهنت فيها الكرامة، جاءت فكرة المواطن الصحفي لتكون في سوريا متميّزةً عن أي مكان آخر في الكون، لأن المدن العريقة تعرف مواطنيها وتتآلف معهم وتتركهم يجوبونها وتسعى بأظافرها أن تحميهم، لأنهم يحملون عهدها ويعرفون ارتفاع وعرض كلّ حارة فيها.

في البدء كانت قصتنا كلها صدوراً عارية وصدراً مستورا يرصد المشهد، ثم جاء عهد السلاح فصورنا رد الفعل الذي يحمي كرامتنا. ثم جاء عهد النزاع والسطوة وصار لكل فصيل أجندة لا يؤمن عقباها. عدنا لتدابيرنا الكبرى حفاظًا على سرية بقاء أرواحنا وقتًا أطول، أرواحًا لا تريد لنفسها الموت غدرًا واغتيالا لصالح أجندة مجهولة.

وهكـذا نعـود الآن إلى العهـد الأول. إلى مخاوفنـا. عدنـا لا نبلّـغ بوجهتنـا في التصوير ولا نكتبها على رسائلنا الالكترونية حتى لا يفاجئنا كمين من مجموعة غـادرة، فأكـبر جريمـة في البلـد يُعـرّف الفعَلـة فيها باسـم "ملثمـون يطلقون النـار"، فالفصيـل العسـكريّ الـذي يحلم بالشـموخ الصوريّ وبالسّـلطة فوق جثـث الموتى لن يرضى عن أصحاب الحناجر العتيقة وعن أصحاب غصن الورد والزيتـون المحمول في المظاهرة.

وفي الزمان ذاته نشـأ مصورون آخرون مسـلوبو القلب تبعوا أصحاب النفوذ. تآلفـوا مـع مشـاهد الجثـث، وعشـقوا التقاط السـيلفي مـع الهيـاكل العظمية الجائعـة. لقـد صار هـذا أعظم منظـر طبيعي في سـوريا مدينة النـار.. مدينة المصوريـن. البلـد الوحيـد الذي أنتج الإخـلاص والكذب دفعة واحـدة، الإعلام الصادق جدًا والكاذب جدًا، الرموز الكبيرة التي طمست تحت التراب أو أخمدت بالسـيف وألحق بها الأذى لتصمت.

الضفـادع الصغـيرة التي كتب لهـا أن تحيا مجدًا أزليًا وتصـير أكبر من رمز... لتصـير وحشًـا يلقف ما حوله ويـأكل الوجوه التي دفعت ثمـن ضميرها وثمن النور الذي حلمنا أن نبثه لنقمع حرائق النار ونجعلها ناراً صالحة يُـستفاد من جذوتها.

كنت أكسر وحدتي وظلمات الليل بملفات إلكترونية يرسـلها لي الإعلاميّ محمد مـن دمشـق، مجلـدات تحكي عن فـن التصوير وعـن التحرير وعـن أخلاقيات المهنـة. يومًـا بعد يـوم صرت أقرأ في هـذه المصنفات مفاهيم شـاخت وصارت عجـوزًا بعيـدة عن واقعـي الغريـب؛ أطالعها وأقلبهـا أقول في نفـسي من خطّ قوانـين الصحافـة على هـذه الملفـات؟ كيف خطها سـوى عن طريـق التجريب والإدراك والحـس بالأشـياء؟ أنهـي قراءة أحـد المجلـدات الليلة.. بالـكاد أفتح عينـيْ لأعيـش يومًا آخر. مرة خابت آمالي في اسـتيراد كتـب أخرى من "محمد" لا أريد أن أثقل عليه في أزمة قطع الاتصالات عن دمشق، فأعتمد على مشاهداتي

البسـيطة وأجعلها الوجهة المشرقة بيننا.

صـورتُ أيامـاً بلياليهـا، لاحقـتُ بكاميرتـي شـخصيات أثـرت فيّ عـلى مـدار سـنين لـم تر النـور بعد. كتبـتُ مضامين صور فاتتنـي، اختزنـتُ المتوفر منها في حاسـوبي القديم. عند الرحيل كم أثقلني حملها فوق ظهري؛ إنه الحاسـوب الثقيـل الأحمـر ذاك الـذي افتتحتُ به كتابـي مثل ما افتتحت بـه واجهة العالم الافـتراضي أوّل مـرّة. لم تكتب لهذا الحاسـوب النجاة حتى اليوم لا يزال يعاني بسـبب جريمتـي في إغراقه عـلى إثر مداهمـة مفاجئة. لابَ معـي برحلة صعبة طويلة لففت بها سـوريا من الجنوب إلى الشـمال حتى لا تمسسه يدٌ من بعدي. إنـه التابـوت والقبر الذي حملته قبـل مغادرة البلد وما زلـت أزوره في منفاي. برحلـة دامت ثلاثة أشـهر كرحلة السـفر برلـك التي تحكي عنهـا الجدات أيام الاحتـلال الفرنسي لدمشـق؛ رحلة خفين لم يتح لهمـا طروادة وقود.

**

سـألتني إحـدى الجرائـد ذات مـرة عـن نصيحة تسـديها امرأة تعمـل في حقل الصحافة العربية وسـط الحروب، لتحيك الجريدة مقالة تناسـب ذوق الورق.. لتتخـذ مـن وصف "شـعبنا المتخلـف وتقاليدنـا البالية" عنوانًا أبـرز. يا لتلك الورقـات التـي لا أتوجـه لغيرها على مـدار حياتي، لعلها تسـمعني لآخر مرة.

يـا سـيدي الصحفـيّ.. يـا آنسـتي الجريدة مـاذا عن تلـك القبـور التي ضحى أصحابهـا في سـبيل حريـة الفكـر والكلمة؟ وماذا عـن تلك اللقمة التي شـغلت أصحابهـا عـن أيّ قضية؟ ماذا عن الجـيران وعن أهل البلد الذيـن كانوا درعي المتـين قبل درع الصحافة. كانوا يكبرون لي التضحية ويترحّمون على وجوه كل الشهداء الذين يذكرونهم بين طيات وجهي ويفرحون حين يشاهدون أصواتهم تظهر على شاشة كبيرة.

السوريون طيبون جدًا أكثر مما تحمل ذاكرة الورق والصور. أنيقون؛ لبقون يتفهمون اختلاف التقاليد بين عائلة وعائلة ويحبون أن يتظاهروا بثقافة نسائهم أمام بعضهم، يتقبلون امرأة من بيئتهم تنتفض لترصد واقعهم حتى لو تاهت بين أطراف النزاع المسلح. المظاهرات التي كانت تخرج فيها عشرات آلاف النساء لتطالب بحرية الأبناء من السجون وتلعن السجان ما تزال شاهدة.

وماذا عن الضعيف الأعزل الذي ينتفض له السوري في كل زمان؟ ثمة ظروف كبرى خيمت على هذا الشعب وصارت أكبر من مقدرته على التصدي. إذا كنت أنا نفسي عاجزة عن مزيد من التحمل.
حين رأيتُ نفسي ثلاث مرات وجهًا لوجه أمام خيارين.
إما ترك "منصبي" في الجزيرة أو الاعتقال والفضيحة..
يصر علي صحفي الجريدة أن أدلي بمزيد من المعلومات عن أنباء ملاحقتي.
يعرف أن الضرر الذي لحق بي أكثر مما كتبته الصحف والمواقع عن الحادثة.
قد تأتي الايام وأكتب على هذا الحاسوب بقية الربع المخطوط بدمي؛ أظن ما كتبت للآن مجرد هوية تعريفية تختزل آلامًا لا يمكنني الحديث عنها.
أنا لم أُشف بعد.
تقول الهوية..
ينادونني فلانة الفلانية؛ وهو اسم عابر لم تختره أمي ولا أبي ولا أي فرد في العائلة.
لما بلغت خمس سنين، قرأت تاريخ ولادتي على الدفتر أول مرة.. الثامن من أغسطس - دوما ريف دمشق، بقيت أقرأ وأقرأ وأقرأ، حالمةً أن أكتب نصاً أو شيئًا يشبه النص يومًا ما.

لما بلغت العشرين من عمري وحان الوقت لكي أكتب تمهيدًا للمستقبل. ارتكبت مجرد خطأ بسيط وخرجت أحمل مذياعًا مع عشرات الآلاف لأقول "يا سوريا لا تخافي، الأسد بعد القذافي"، "الموت الموت الموت.. ولا المذلة"، فلم يخف أحد

إلا أنا ولم يسقط إلا أنا ولم يصبح حرًا إلا العصفور.. ثم مات نصف عائلتي وخلت من بعض ذكورها وتشرد نصفنا الآخر وبقيت أواكب المذلة وحدي.. متمنية الموت. فلم أكتب شيئًا ولم يتبرع أحد ليكتبني. عشت سبع سنين مجرد رقم بل أحقر من رقم لأنني لو متّ حرقًا سأكون مجهولة الهوية، ولن يتعرف أحد إليّ فأنالا أنتمي لحزب سوى الشارع.

جاء الحصار وصار الخبز حلمي وسقمت كل أعضائي. اعتقل والدي بعد أن كان أخي الوحيد قد مات. أخوالي، عمي، رجال العائلة لم يرحلوا بلطف. تركوا لي ثلاث أخوات يصغرنني أصبحن مثلي بلا مستقبل، بل صرن أسوأ.. أكثر شيء هدّمني وهدّني أنني الأكبر.

نسيت كل ما تعلمت من الأدب وصرت أسفه ثرثارة صارخة في الدنيا، وعرفت أن الروايات التي قرأتها عن الحقيقة كانت مجرد كلمات وخيال، وأن الحديث عن النمور والرياح والنملة كان أصدق مما قرأت عن مجد الإنسان.

عرفت المظلوم الذي لا يأخذ بيده أحد والحق الذي لا يظهر في آخر الرواية والفقيرة التي لا يتزوجها ابن الملك ولا تواكب أي نهاية سعيدة مهما كانت جميلة، بل إنها تزداد فقرًا وذلًا. وحين رأيت ذلي المحتم وكياني بلا كيان وازداد فقري ويئستُ وحوربت وحوصرت، قررت أخيرًا أن أتحرك وأترك الانخراط في عالم التغيير الجماعي، قررت أن أغير واقعي المرير فقط؛ بقلب لا يخفق ولا يدق كأنّ كل شيء ميت. المدينة أهلها أهلي وأنا وجعلت صوتي الرديء يستغل لغتي لأفعل شيئًا لي ولأخواتي البنات، ولبلدي الذي يحرمني لذة الافتخار به.

وصارت بطاقتي التعريفية منذئذٍ.. مراسلة لأهم قناة عربية.. فاكتمل مشهد شقائي الأخير وعوقبت على صوتي الصادح كل تلك المدة، لأن ابنة الشارع هي أصغر من أن تمثل المثقفين ورجال الدين والأغنياء. سجنت نفسي دون أن

يتبرع أحد لإخراجي من السجن.
استسلمت للموت ولكن القدر عجيب.
لا تستغربوا الآن إن قلت في إحدى الصفحات إنني مرة ذهبت لأصور الردم والجثث بلا قلب. كان يفترض يومها أن أواسي أمي في وفاة أخيها بدلًا من أن أواصل إذاعة موت الناس على الميكروفون دون أي تعبير.
فأنا نفسي كنت أقرأ خالي على الشاشة مجرد رقم.

**

حين كنت أتعرض لكل هذا الخذلان؛ كان الناس مراقبين، جياعًا، متعبين، يحاول النظام إركاعهم دون أن يتطوّع أحد لإنقاذهم. تحدثني امرأة ذات مرة عن رغبتها في فعل أي شيء ولكنها تخشى المشاعر العامة والبراميل الطائرة. العامة مظلومون لا علاقة لهم بالخوف على النساء بقدر جبن النساء. ومخاوف النساء تعيد أصغر واحدة منهن إنتاج عادات المجتمع بأكملها. هي في الحقيقة نصف المجتمع رغم التشدد الحاصل.

آخر مرة صرَّحتُ فيها للجريدة عن أوضاعنا أغلقتُ حاسوبي، مشيت لوحدي بقنوط تحت طائرة وأنا أتمنى لو قتلتني. حدثتُ نفسي بصوت عال.. "أن تكون مراسلاً في قناة معروفة يعني أن تمتلك صبر النبيّ في قومه، أن تعيش في الدنيا وسط جهنم، أن يصيبك من الأذى ما يجعل لقمتك محطّ شبهة وشهرة تتصاعد وتيرتها حسب اشتهار الاسم الذي توظفت على اسمه. بعلاقة طرديّة عن شغف الناس بهذا المنبر ومتابعتهم له أنت متورّط بكونك شريانًا ينبض في تلك القناة التي تتوجه الأنظار حولها. "أعاود القول كأنني تعلمتُ من تلقاء نفسي حكمة".

أن أكون مراسلة في قناة معروفة يعني أن أمتلك صبر نبيّ في قومه والأذى الذي سيلاحقني كأنني أعيش الدنيا في جهنم.

أن أقف بأوج استعدادي لأن أكون في لحظة ما أنا الخبر لا ناقله.
أكاد أجزم بأن قصة حياتي وكثافة ما مر فيها من مهربين ولصوص وتجار سلاح وشرفاء هي أغرب قصة صحفية أتمنى لو أنني صحفية وضَيفة في الوقت ذاته لأعدّها.

أقرأ أيضًا في تصريح قديم بحت به للجريدة. عن هذيان يتملكني بأنني لن التقي الكهرباء أو النور أبدًا بعد هذا اليوم. اعتقدت أنني سأموت في خنس العتمة؛ رغم أنني كتبتُ في صحيفة أخرى.. أطمحُ أن أصبح إنسانة لا تموت ولا تتأثر بعوامل عزرائيل. لا دافع للبقاء عندي ولكني لا أريد للتاريخ أن يُكتب لصالح المتخاذلين. ثم رفعت يدي إلى السماء وقلت يا رب لا تأخذني قبل أن أشرح للناس سرّي وسرّ مدينة لا يرغب أي صحافي باختراق حصارها. ولأعتبر نفسي غريبة عنها ولأكون هذا الصحافيّ الوافد.. حتى أكتب قصصي وقصص الضيوف الذين عبروا في دنياي منذ ولدت.
لطفولتي ثلجٌ في كل مدينة من دمشق ولصباي طيش هائل بطلول كل مدينة ثائرة. وقفتُ أمام قنابلها تكيد لي ويحلو لي بريقها. خلقتُ من الصاروخ لون أنثى.. ومن المدينة العجوز صبية حالمة بتغيير العالم في كبسة صورة، فتغيرت الصور وانكسرت العدسة وخرج منها دمها.. والعالم على حاله صموت سكوت، تماثيل جامدة تنتظر حطامها.

أجلس الآن في الغربة على كورنيش البحر وأفسح المجال لنفسي في التأمل في الدنيا وقراءة مزيد من مقالاتي القديمة، كمن تقرأ نصوص فتاة أخرى. تخرج لي من ماء المحيط بنتًا لا ترتدي لونًا سوى الوردي؛ لم تتوجه للكاميرا بعد.. عمرها ما يزال عشرين عامًا، "إنها نفسي الصغيرة قبل ثماني سنين وقبل الخوض في هذه المغامرات والحروب كلها". ركضتُ أشم نفسي القديمة أضمها.. أمسك كتفيها وأتكئ على ذراعها. قمت أسألها بحرقة.. أين رحتِ؟ أنت لا تشعرين بشيء.. لِمَ كنتِ أنانية معي؟ لا تحسين بي أبدًا، اشتقت إليكِ ولا أجد إليك أي طريق. ربتت على رأسي تربيتة الماسح على شعر يتيمة

تعيش فقد الأب وقالت لي:
-حولتني صورك الجديدة إلى مجرد ذكرى، تركتني.. تركت كل شيء.. الدراسة.. الكتابة.. العشق والرقص فوق الموج.. قلتِ إنها مجرد أيام قليلة وسيعود كل شيء على ما يرام.. جمدتِ أحلامي وأيامي.. أحرقت الاثواب وقصصت شعرك.. غادرتِ بيتك.. دفاترك.. قلت لنفسي يا بنت اتركيها تسرح قليلاً مع الصبيان.. لا بد أن تعود يومًا. أفعلتِ كل هذا لتكملي حياتك هنا على ضفاف الماء؟ وتعملين لتعتاشي فقط؟ ألم تكن صوَري العادية تعجبكِ؟ ثم إني لم أعد أراكِ في الميدان وفي جولات التغطية؛ أهذا الأزرق فندقك؟
أسدلتُ رأسي بخجل أمامها: نعم إنه هو.
- تجلسين إذًا مثلَ أي صحفي خامل لا يقدم سوى ترتيب الصور والكلمات على كرسيّ، وتكتبين على الفيس بوك انتقاداتكِ ككل الذين كنت تغتابينهم لأنهم خرجوا ولم يكونوا على قدر المسؤولية.. هههه.. أسمعهم أيضًا ينادونك باسم آخر، أهذا هو اسمكِ الصحفي؟! حتى اسمي لم يناسبكِ! وإذا نادوك به لا تلتفتين أبدًا. تعتبرين أنه يضيع شهرتكِ وتاريخكِ المجيد أليس كذلك؟ تتنكرين لي كأنّ الاسم يعنيني وحدي وتصلّين استخارات لتختاري بين الاسمين واحدًا كأنني لعبة من السوق اشتريتِها بلا لقب؟ هذا الكتاب أيضًا لا تكتبينه باسمي ولا تذكرينني بصفحة واحدة.
قولي لي.. لا تخجلي، لماذا لم تخبريني يومًا أنك تحبين أن تكوني مراسلة حربية؟، صحفية.. مصورة.. أي شيء! كنت سأساعدكِ بأقل خسائر ممكنة. لا تلوميني اليوم ولا تلومي القدر أبدًا. الله الذي كان يستجيب نداءكِ برفعة يد؛ غير مسؤول عن خراب هذا العالم. ليس عندي لكِ إلا النصيحة.
الآن وقد أتيتني على هذا الحال تطلبين النجدة! اعذريني جدًا.. أنا عاجزة عن أن أقدم لكِ أي شيء، ولا يمكنني أن أتسق بكِ من جديد. بات ديدنكِ نصفاً بلون القهر وربعاً بلون الزهر، بماذا الآن أنفعكِ؟ حتى تطلعاتكِ اختلفت؛ أنتِ لا تحلمين سوى برؤية "ريتا" أختكِ الصغرى ويحول بينك وبين العائلة كلها خلجان وقوانين قصوى. فارقتِ من منحوكِ الأمان والرفاق

الذين كانوا يعدونكِ بمستقبل جميل ويقولون أثناء السير "الله يحميكِ" خدعوكِ. كذبوا عليكِ أيضًا.. وكذبت على نفسكِ بأنكِ من جديد ستنهضين. أعرف كيف حدث كل هذا؟ لأنكِ حلمت ذات مرة بتغيير حياتك الرتيبة والخوض في أزقة قديمة تتقبلك على ما أنتِ؛ مشيتِ بينها طفلة ترغب في اكتشاف الحياة بخفين خفيفين يلامسان الأرض وعدسة أغرتكِ لتؤرخي أشياء مختلفة، فاختفى من كانوا الدافع للركض وشطبَ بلمحةٍ تاريخُ الشوارع.. أنتِ لم تغيري شيئًا أبداً.. أنت تغيرتِ يا عزيزتي.. وصرتِ تكبرينني بثماني سنوات.. هذا بالنسبة لحسابات الأرقام طبعًا.. لأنك تكبرينني بأربعين سنة بحسب حسابات الأرواح.. ثم أنتِ سقيمة كئيبة وأخاف أن تنقلي إليّ العدوى.. مولاتي المواطنة الصحفية.. عفوًا سموّكِ سامحيني إذا اخطأت.. أقصد سعادة المراسلة الحربية.. أبارك بقاءكِ على قيد الحياة بعد انقضاء كل تلك المدة.. أهنئكِ بالانضمام إلى صحافة الصبيان وبقدرتكِ على الحفاظ على أدواتكِ.. حاسوبكِ.. عدستكِ.. صوركِ..
وأرجو منك أن توثقي المزيد لنقرأ ماذا حلّ بك وبالشبان بعد تلك المدة..
أتمنى لكِ تقارير ناجحة من كل قلبي
لكن أرجوكِ..
ابتعدي عني..

**

قلت لها: فلتفعلي إذًا شيئًا واحدًا مما فعل الصبيان
ثمّ تعالي لوميني.

معهد
الجزيرة للإعلام

AJMInstitute

+974 44897666
institute@aljazeera.net
http://institute.aljazeera.net/ar